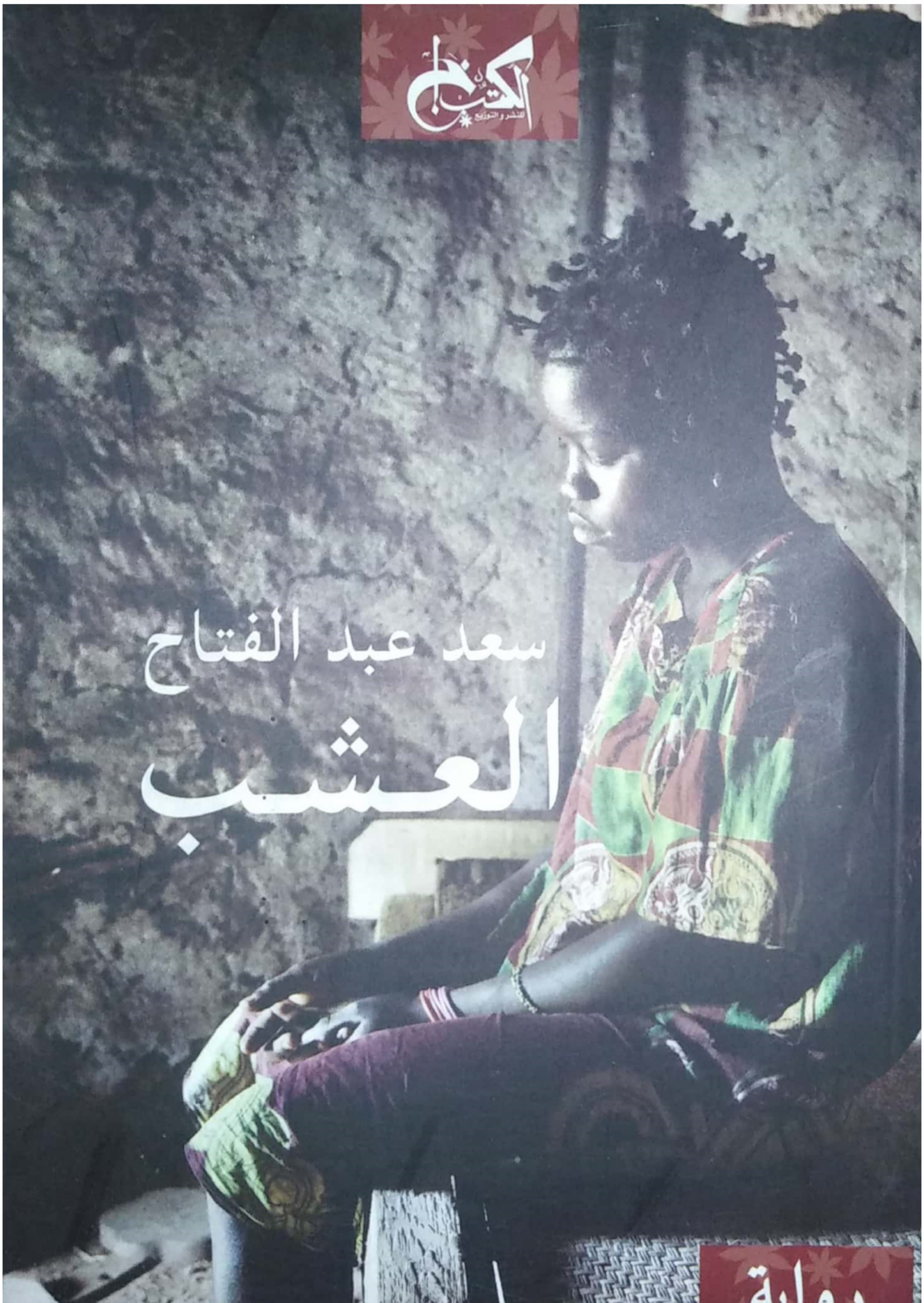
سعد عبد الفتاح
العشب
رواية

العشب

العشب
روايـة
الطبعة الأولي : ٢٠١٦
رقم الإيداع : ٢٠١٥/٢٦١٣١
الترقيم الدولي : ٩ - ٩ - ٠٠ - ٨٠٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
الغـــــلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة .
تليفـــون : ‎+٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩‎ - ‎+٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨‎
بريد إليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2016 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the author has been asserted. All rights reserved.

الكتب خان للنشر والتوزيع

العشـب

رواية

سعد عبد الفتاح

فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

عبد الفتاح، سعد.

العشب : رواية / سعد عبد الفتاح، المؤلف. — القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

٤٦٢ ص، ؛ ٢٠ سم

تدمك : ٩ ٠٠٩ ٨٠٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص

أ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٢٦١٣١

الطبعة الأولى ٢٠١٦

((انتصاري يكمن في أنني لست ميتا))

د.هـ. لورنس

الاقتـــلاع

عبد الله ولد فال

الحدود التشادية السودانية - غرب دارفور- مايو ١٩٦٩

ها أنا أقطع آلاف الأميال، أدوس فيها مع العشب أياما وليال تنزف من عمري، قربانا لما أنا منذور له.

.. وأيضا قدمي اليمنى تؤلمني، أصعد التل الصخري، التوت قبل أيام وأنا أهبط من اللوري، أواصل الصعود، تفر الأحجار من تحت قدمي، أتماسك صاعدا، أعلم أن الشمس تنتظرني خلف التل، هل ستكون آخر شمس؟ أجر جسدي بينما جراب أغراضي على ظهري يجرني للخلف، أشرف على واد ممتد على مرمى البصر، في خلفيته قمم جبال ترقد خلفها شمس الصباح المتحفزة، تتناثر بالوادي أشجار الماهوجني والسنط والسرو، بينما مخرات السيول التي تصب في بركة جافة ترسم أشكالا ثعبانية مغطاة بكثافة بأعشاب نجيلية، تغمرني السعادة لرؤيتي أغناما وبعيرا ترعى، أهبط مندفعا بفعل السعادة والحمل، يفر جمل يرعى على سفح التل، يسري ذعر الجمل الهارب في كل القطيع، أواصل السير، جمل مربوط لشجرة ماهوجني يحمل على ظهره الكثير من قرب الماء، ألقي جرابي وأهرول نحوه، أشعر

بحركة من خلفي، أستدير فأجده أمامي شاهرا بندقيته، أجلس على الأرض متهالكا، يقترب سائلا في حذر

- من؟

أقول من بين شفاه متيبسة

- حاج.

- أنت الآن في السودان.

يقول الراعي بلا مبالاة، يحك ظهره بجذع الشجرة بينما عيناه على قطيعه، يكمل

- ببعض العزم سوف تصل الجنينة[1] صباح الغد.

ثم ينظر لي بعينيه الضيقتين

- أنت إذن منذ شهور في طريقك للحج؟

أجيب وأنا أضع وعاء اللبن الفخاري من يدي

- نعم.

يهز رأسه في أسى ويقول

- يمر عليَّ الكثيرون هنا، الكل يطلب الماء والطعام، بعضهم هارب من الحروب، وآخرون هاربون من الجوع، ولكن لم يمر عليَّ أحد هارب إلى الله إلا أنت.

يصمت مطرقا، هو في نحو الأربعين، نحيل الجسد والوجه، تنفر على جانبي جبينه البارز عروق زرقاء، عيناه الضيقتان غائرتان براقتان، يتناثر شعر أسود قليل فوق خديه، أسنانه بارزة كأسنان ثعلب، أنفه مستقيم يعلو شاربا كثيفا لا يتناسب مع لحيته، يقول بعد صمت

- لا أملك لأحد إلا الماء واللبن وبعض الوقت تحت الظل.

ثم يكمل وهو يتابع شيئا ما يجري في القطيع

- ولا أذبح شاة للأغراب، ولا أدع أحدا يقيم هنا، قل لي: ألديك امرأة؟

أجيب متعجبا لسؤاله

- نعم.

لا أعلم إن كان قد سمعني أم لا، عندما قال وهو يتناول عصا غليظة ويقوم جاريا تجاه القطيع

- هزيل.

كان جملا أصفر يستعرض قوته مادا رقبته رافعا رأسه، يهدر بصوت متقطع كالقرقرة، من بين شفتيه تخرج قربة جلدية ضاربة للحمرة من حولها ينساب الرغاء، يشد بطنه ويرفع كتفيه فيصبح كالقوس، يمد الجمل رقبته ويشم مهبل ناقة واقفة أمامه، يرفع رأسه ويهدر بصوت مرتفع، يعض الناقة في فخذها ويدفعها برأسه فتبرك وهي تهز ذيلها في حركات عصبية، يعتليها بقدميه الأماميتين، يتجاوزه الراعي المندفع ويضرب الناقة فتقوم من تحته مفزوعة، يحاول الجمل أن يهجم عليه، يضربه بالعصا على مفصل ساقه، يلوي عنقه ويجري مبتعدا وهو يهز رأسه فيتناثر الرغاء.

يقول بخفة بعدما يجلس تحت خيمة الظل التي تصنعها الشجرة

- إذا طلبت النوق العشار تبرك لأي جمل. أنت هارب منها إذا؟

ـ من؟

ـ أهي قبيحة إلى هذا الحد؟

ـ عن من تتحدث؟

ـ عن امرأتك.

يقول ويضحك بفجاجة

تحتل مريم كل ذهني، وقفتها وهي تواري وجهها عن المودعين وتسألني في خضوع: إلى من تكلنا؟ بكاؤها في ليلة الوداع بينما أحاول الاستمتاع حتى آخر قطرة، الدموع في عينيها عندما خيرتها بين الطلاق أو انتظار عودتي من رحلة لا أعلم هل أعود منها أم لا، قولها: أنتظرك على شرط ألا تتزوج عليَّ. وعدي لها ألا أمس جسد امرأة سواها.

ـ امرأتي كالملاك، وهل يهرب الإنسان من الملائكة؟

أقول بغضب فيرد وهو يضحك ساخرا

ـ نعم. يهرب من كل أحد من يهرب إلى الله.

تعلو ضحكته فأقول غاضبا

ـ هذا ليس من كرم الضيافة.

أهمُّ بالوقوف، يشدني حتى أجلس، يقول

ـ يا رجل لديك امرأة كالملاك وتدعها، ماذا لو لديك امرأة تبرك لكل من قابلها؟

يصدمني قوله، أنظر لعينيه المنكسرتين، أشيح بوجهي خجلا، أتظاهر بتجهيز حاجياتي للرحيل، يعم صمت لا يجرحه سوى رغاء الجمال

وثغاء الخراف. يقوم ويتحرك بخطوات متثاقلة تجاه القطيع، ينظر في الأفق واضعا يديه على حاجبيه ليتجنب الشمس، يقول دون أن يلتفت لي

- لديك ضيوف لا يمكنك الهرب من مقابلتهم، حتى لو كان هروبك لله فليس بمقدوره أن ينقذك.

يظهر من بين القطيع ثلاثة جنود على جمال، يتدلى من خصورهم بنادق وبأيديهم سياط، يتقدم الجنود نحوي، يحاصرونني بجمالهم، يسألني الجندي البدين

- من أنت؟

أرد وأنا أحوقل

- حاج.

ثم أكمل

- أنا لم أرتكب ذنبا.

يبتسم الراعي ويقول

- من منا بلا ذنب؟

أسأله مستنجدا

- من هؤلاء؟

- حرس حدود الجمهورية السودانية.

يقولها الجندي النحيل وهو ينيخ جمله، يتقدم نحوي فاردا ذراعيه متجهما، أنظر في عينيه الخابيتين، يدفعني حتى يلتصق جسدي بجمل البدين الذي يضع قدمه على رقبتي ممسكا بها، يربط يديَّ بالحبل المتدلي

طرفه من عدة الجمل، يمشي نحو جمله ويمتطيه، يتحرك جمل البدين، يشدني الحبل فأتحرك خلفه، ألمح وأنا أستدير الراعي يندفع نحو جرابي وحذائي وعمامتي، يقول بهمس وهو يسير بجانبي خلف الجمال

- إذا رأيت الله فقل له: الراعي يخيرك بين أن تسكن أنت قلبه أو تسكنه امرأته.

يعلق جرابي على ظهره، يلبس حذائي، يضع عمامتي تحت إبطه، يقف يرمقني وأنا مربوط خلف الجمال، عندما تبتعد المسافة بيننا يقول بصوت عال

- الآن يمكنك أن تصل الجنينة قبل ساعتين.

ثم يرفع صوته مقهقها

- لا تمر عليّ في طريق عودتك.

كعبد هارب تجرني الجمال وراءها، سيدي حسن لا يريد أن ينزل عينيه عن عينيّ، اخفض يا مولانا فإدامة النظر إليك ذنب والإشاحة عن عينيك ذنب، تتفتت جبيرة أوراق السنط والصمغ التي صنعها الراعي لقدمي الملتوية، اصطفاني من بين أبناء الحي، قال الصلاة عند البيت بمائة ألف صلاة وهل الصلاة إلا دعاء، سيكون رسولنا لله، الحشائش الجافة تخدش ساقي وتلتصق بجلبابي، الحصى تحت قدميّ العاريتين كالجمرات، ألبسني بيديه الخرقة، فطمني عن الدنيا، يلتصق جلبابي العاري بجسدي بفعل العرق الناتج من شمس الضحى، في الخيمة مريم تغسلني بالماء بيدين كالبرد، أداعب صدرها المهتز فيحمر وجهها خجلا، كلما أرى شجرة أجري محاذيا الجمال وأستظل فيجرني الحبل، ألا ينتهي هذا

العشب الذي يخمش ساقي، أخرج وأنا محمل بجرابي ودعوات مولاي ودموع مريم ورسائل قومي لله، الحمل ثقيل، حتى أن حميرة طلبت أن تلد شاتها الوحيدة أربعا. بحثا عن الظل أناور الشمس برأسي العارية، أنتقل ليسار الجمل، الظل بساط ممدود تحته يرفض أن يتعداه. في الثانية عشر قدمني للإمامة وفي الخامسة عشر غادرت الخلوة، وفي التاسعة عشر زوّجني مريم وحيدته، مولاي كشجرة السدر، ظلها وافر وثمرها يشفي من كل داء. يرتقي الرَكْبُ مرتفعا صخريا يشكل نهاية للوادي، الصخور المفتتة الحادة تجرح قدميَّ، أتمترس بالأرض رافضا المسير، يزجر البدين جمله، يتحرك فيجرني الحبل فأقع، لا أحتمل، أصرخ فيهم

- ألستم مسلمين؟

لم يعرني أحد اهتماما، أكرر ندائي، يجيبني البدين بأن يفرقع السوط في الهواء، ويجيبني النحيل

- اسع يا حاج ولا تتبرم، فطريقك طويل.

أصمت فأسمع أصواتهم بوضوح

- الحكومة تتغير كل شهرين.

يقول أحد الجنود فيرد عليه الآخر

- حتى الدقيق أصبح شحيحا.

يقول البدين

- لابد أن يحدث شيء ما، فهؤلاء الساسة كالأفيال يحطمون كل شيء من أجل ملء بطونهم ولا يتركون لنا إلا برازهم النتن.

يسلك الركْبُ مدقا بين تلال صخرية، ألتفت خلفي، الوادي منبسط كسجادة، أرضيته عشب أصفر تتخلله أشجار خضراء ساكنة كالمنحوتة، لولا الجفاف ما تركناك، ولكنك ترى ما حل بنا، منذ عامين لا يسقط مطر، نبيع بأبخس الأثمان ما لا يموت من الدواب، وعما قليل سينفد ما بأيدينا، أمامنا سنين عجاف، فأحمل همنا وتوجه لما نذرناك له. تنتهي أصلة ضاربة للصفرة منقطة من عبور المدق، تختفي بين الصخور قبل أن يصلها الركْبُ، أي ألم جعلك تغادرين جحرك في هذا القيظ؟ العطش ييبس شفاهي وجوفي، يضيق المدق حتى يتسع لعبور جمل واحد، أسمع أصوات ضحك وحوار صاحب تأتي من خلف التل. ضحك مولاي حتى اغرورقت عيناه عندما شكوت له: لا أطيق البعد عن مريم، فطمتني عن الدنيا ثم أعطيتني مريم لتصير هي الدنيا، قال: الفطام قدر السالكين حتى انفصال الروح. لا تنسَ أن تمر على أهلنا في مكة والمدينة، احك لهم عما حل بنا، أطلب معونتهم، وإذا عدت بمال فاركب البحر ولا تعد ماشيًا، فقط الذهاب لله يكون مشيًا حتى تمحى الذنوب وترفع الحجب وترجى الإجابة، وأدركنا قبل أن تهرب الحياة من أجسادنا كما هربت من الأرض، لمثل هذه الأيام أعددتك، صغيرًا عشت مثلها، أكلنا كل شيء حتى أوراق الشجر، حفرنا بيوت النمل بحثا عن أي شيء، وبعد أن لم يبق شيء كانت بطوننا منتفخة وأعوادنا ناحلة، ولم يبق من أصحاب طفولتي إلا أنا، فتذكر أطفال البادية فكلهم أولادك.

ينفرج التل عن واد ضيق تحيطه تلال عارية ضاربة للسواد، في منخفضه تقف سيارة لوري حولها جنود وجمال باركة، يتجمع تحت

شجرة سنط في منحدر التل خليط رجال ونساء وأطفال. يحيط بهم أربعة جنود معلقة على ظهورهم بنادق وبأيديهم سياط.

يقول جندي بجوار اللوري للركب

- أرى معكم صيدا.

يرد البدين وهو يشير لي ضاحكا

- يقول إنه حاج!

يرد الجندي

- حاج أو قاتل يتوجب علينا استضافته.

ينيخون الجمال. يفك الجندي النحيل وثاق يديَّ. الحبل الليفي حفر رسغي، أتحسس جراح قدميَّ المدمية. أنزع الأشواك المغروسة في ساقيَّ، أمسح العرق عن جبيني ورأسي. يدفعونني نحو الخليط البشري، تتضح ملامحهم رويداً، على الأرض رجل فارع الطول ممدداً يغطي جسده ووجهه برداء، بينما ساقاه السوداوان عاريتان. كهل برأس يكللها البياض كالإكليل، وعينين واسعتين براقتين، وخدين خاسفين تحت عظام ناتئة، يجلس مستنداً على جذع الشجرة الضارب للسواد، نصفه الأعلى عار، يرتدي سروالًا ورداؤه مكوم بجواره. امرأة دميمة بوجه مكتنز وعينَين جاحظتين وخدين مشرطين وأنف أفطس تسكت رضيعًا باكيًا بجوارها. طفلان ناحلان يبدوان كتوأمين يتسليان بدفع حجر صغير بينهما. فتاة مليحة الوجه، مستقيمة الأنف، بعينين واسعتين بنيتين، تمسح العرق عن جبين فتى يبدو محموما. بجوارهم كوم من الأغراض.

أنضم للجمع، يشير لي جندي بالجلوس، أجلس بجوار العجوز ملقيا السلام مادا يدي، يصافحني، يعتدل النائم ويجلس، شاب وجهه مستدير ضخم عظامه بارزه، عيناه سوداوان واسعتان مكحلتان ببياضهما حمرة، كتفاه مرتفعتان وصدره واسع ينم عن قوة وشباب، يقول وهو يمد يده للمصافحة

- وعليكم السلام.

أصافح يده الخشنة

- من أين أنتم؟

يقول، وهو يرتدي ثوبه القطني الأخضر المزركش برسوم أوراق شجر كبيرة

- من نيجيريا، وأنت؟

- من موريتانيا.

يقول العجوز وهو يرتدي ثوبه

- أين موريتانيا هذه؟

أرد

- بلاد شنقيط.

يقول مستدركًا

- تقصد أرض البيضان، وما جاء بك إلى هنا؟ ألديكم حرب مثلنا؟

- لا، ولكن لدينا الجوع والجفاف، الموت نسر يحوم فوق رؤوسنا انتظارا للرمم.

- وما جاء بك وحدك إلى هنا! هل ستحمل لهم السحب وتعود؟
- كنت في طريقي إلى مكة، أرسلني قومي لأستغيث بالله وأدعو لهم.
- تستغيث بالله! في قريتنا كان لدينا كل شيء. البيت والماء والطعام، كانت الذرة على وشك النضوج. والصيد في الغابة به الكثير من الخير، بعنا نابي فيل وارتدينا الملابس الجديدة. كنا نصلي ونحمد الله. ونتلو جميعا القرآن حتى يطرد الشيطان من بيننا. ثم تركنا الله. فقدت أربعة من أبنائي، قتلهم جنود أوجوكوو[٢]. احتملوا اثنين من أحفادي وأرسلوهم للجنوب. فقدنا كل شيء وتركنا الله وقت احتجنا إليه.
- يا عم: الله لا يترك أحدا، ولم يأمر الجنود بقتل أبنائك بل نهى عن قتل النفس.
- لم أسمع سوى صرخات النساء واستجدائهن.
- كلنا ذاهبون إلى الله، العم أديلانو مصدوم لا تعتب عليه.

يقول الشاب وهو ينظر لي، بينما يحاول إدخال بعضا من عصيدة في فم المريض الذي يرتجف ويشيح بوجهه في ذعر. تمسك الفتاة برأسه فيتخبط جسده في حركات عنيفة تثير الرماد، يتوقف الطفلان عن تبادل الحجر بأمر من عيني الرجل، يجلسان فوق جسد المريض فتطيح بهم حركته العنيفة، أتقدم وأضع جسدي فوق صدره محاولا تثبيته. تهرب الفتاة ذات العين البنية بعينيها من عيني. رغم ثيابه المبللة من العرق، جسده ساخن وكأن بداخله حريقا، أنفاسه الخارجة من جانبي فمه متحشرجة ساخنة وكأنها تخرج من فم مرجل، يضغط الشاب على جانبي فمه فينجح في فتحه، يصب بعضا من العصيدة، يغلق جوفه

فيمتلئ فمه بالسائل، أخفف حمل جسدي من على صدره، يلتوي بقسوة ويقوم متخبطا مقتربا من جندي طارحا كل ما في جوفه، يركله الجندي بحذائه فيطيح به بجانبنا هامدا إلا من ارتجاف خامل في كل جسده، وبقايا العصيدة اللزجة على جانبي فمه وذقنه، تمسح الفتاة فم وذقن المريض وهي تبكي، يدفع الرجل وعاء العصيدة للطفلين، يجفلان منه، يرفضان حتى الإمساك به، يتحرك ويجلس بجوار العجوز، يعطيه الوعاء فيتناوله ويبدأ في الأكل بيده، يقول ببرود وهو يبتلع

- لن يمر عليه أسبوع آخر.

يقول الشاب

- بل قد لا يرى شمسا أخرى.

أسأله

- ماذا به؟

- مصاب بالسعار، عضه كلب بري منذ شهور.

يجيب الشاب، ثم يكمل وهو يقوم ويحضر قربة ماء ويضعها بين يدي

- ما اسمك؟

- عبد الله ولد فال.

أجيب وفوه القربة على فيهي، فيقول والماء البارد ينساب لجوفي

- أنا عثمان إدريس دار مروة، وهذا عمي أديلانو دار، وهؤلاء هم الباقون من عائلته، لا بل من قريتنا كلها، زوجة ابنه وابنته، والطفلان أبناء جار لنا، وهذا المريض هو يوسف أكبر أحفاده، لا تغضب من عمي، فلسنا وثنيون، نحن بيت دين، جدي هو الشيخ

دار مروة من غرب نيجيريا، لم يعلمنا القرآن فقط، بل علمنا جميعا العربية، كان يصر على أن يكون كل حديثنا بها، ونحن بالطبع نتكلم الهوسوية أيضا. ما حدث كان فوق احتمال رجل بسيط مثل عمي لم يغادر دياره يوما ما.

يتلفت للسماء وظل الشجرة ويكمل

ـ مالت الشمس كثيرا ألن نصلي؟

يضرب يديه بالتراب ويتيمم فأتبعه، يرفض العم الصلاة، يشيح بوجهه مغاضبا.

ننتهي من الصلاة فينضم لنا صيد جديد، ثلاثة رجال وامرأة عارية الصدر، ينادى البدين لنصعد اللوري، أساعد عثمان في حمل المريض، مازال جسده يرتجف إلا أن لهاثه تصاعد ونظرات الذعر في عينيه جعلتهما في حركة دائمة، نضع المريض في اللوري، يبرك عثمان فيصعد العم والنساء على ظهره ويركبون، نصعد مع بقية الجمع، يصعد ثلاثة جنود ببنادقهم، يغلقون خلفية اللوري ويستندون عليها في مواجهتنا، يتحرك الركب تاركا الوادي بينما الجنود يمتطون جمالهم متجهين للبحث عن صيد جديد.

في ساحة مسورة بالأخشاب وسط أشجار كثيفة كالغابة تتوقف العربة، يأمرنا الجنود بالنزول، أتمهل ريثما ينزل الجميع، أحمل الأغراض وأهبط للأرض الحمراء، أتلفت للشمس المائلة للغروب وسط شفق دموي يملأ الأفق، نتحرك صوب بناية مستطيلة من الحجر في نهاية الساحة، في الطرف الآخر غرفة حجرية منعزلة مسقوفة على عتباتها يقف

ممرضون وممرضات يرتدون معاطف بيضاء، نتجمع بجوار جدار البناية، يحمل عثمان المريض على ظهره، الطفلان يمسكان بيد العجوز بينما النساء وجلات بجواره، المرأة عارية الصدر تتوارى خلف رجالها الثلاثة، يدفعوننا لداخل البناية، أمام المدخل عربة صغيرة يعلوها صهريج أسطواني صدئ، يتدلى من الصهريج خرطوم أسود، في مقدمة البناية حجرتان بينهما ممر ينتهي بباب خشبي، يحتجزوننا في غرفة غير مسقوفة، يحتجزون النساء في الغرفة الأخرى، الحجرة المفروشة بمزيج من ضوء الشمس وظل الجدران خالية إلا من عدة أجولة مليئة بمسحوق أصفر كريه الرائحة، يضع عثمان المريض بجوار الأجولة، يدخل الحجرة ممرض، يأمرنا بخلع ملابسنا، نبقى بالسراويل، يأمرنا بخلع السراويل، ننظر له في ذهول، يقول العم

- خلعنا من كل شيء فلنكمل حتى يرانا الله كما خلقنا عله يطرب

يهم الممرض بصفعه، أمسك بيده، يقول

- وكافر أيضا!

يقول عثمان وهو يخلع ثوبه.

- سنتعرى.

يتعرى الجميع وكل منا يضم يديه ويواري عورته، يعري عثمان المريض الغارق في غيبوبته، يظهر ذكره مائلا على جانب، يحمل ممرض أحد أجولة المسحوق ويخرج، يصفنا وظهورنا ملتصقة بالحائط، أواري عورتي بكفي، يأمروننا برفع أذرعنا وإلصاقها بالحائط، يختلس الجميع النظر لعورات الآخرين، يأتينا صوت الماكينة تئز في صخب، يدخل

ممرض وبيده رشاش فضي متصل بالخرطوم الأسود، يضغط على المسدس فيتدفق المسحوق الأصفر الكريه الملهب بعنف تجاهنا، ينتهي من رشنا بالمسحوق فيوجهه للمريض، يأمروننا بالاستدارة، يتدفق المسحوق على ظهري، يقلب عثمان المريض، يرش الممرض ظهره، الالتهابات تبكي الطفلين وتجعل الجميع لا يتوقفون عن حك أجسادهم، الأرضية السوداء للأجساد تختفي تحت الطلاء الأصفر اللامع، يفتح ممرض صندوقا معهم، يتناول الممرضون محاقن بأسنان معدنية طويلة حادة، يدفعني ممرض لأستدير، لا أقاوم مشغولا بجسدي الملتهب من أثر المسحوق، يغرس السن المعدنية في أعلى مؤخرتي، أتأوه، ينساب السائل الناري تحت جلدي، أصرخ، تتكون كرة نار تحت جلد مؤخرتي، ينزع الممرض السن المعدنية، يأمرني بالجري، أجري صارخا خلال الحجرة.

بعد قليل كنا جميعا نجري متخبطين صارخين في الحجرة، وأصوات صراخ النساء تلطم أذاننا من الغرفة المقابلة، بينما المريض والطفلين مكومين في غيبوبة أسفل أرجلنا، والشمس تلقي بظلال عاجزة فوق الجدران.

عثمان إدريس دار

الجنينة - غرب دارفور - مايو ١٩٦٩

بعد امتناع عن الحوار معي لشهور، يفاجئني العم أديلانو المستند على الجدار الحجري بقوله وكأنه يحدث نفسه

- وكأن شيئا لم يحدث!

ثم يطيل النظر في الدخان المتصاعد من النيران تحت القدر، يتلفت على الرجال والشباب الممددين على أرض الحوش الذي يكاد يمتلئ بهم، يسألني

- هؤلاء النائمون حولنا في جحر الأرانب هذا، قادمون أو مطرودون من بقاع شتى، ترى بماذا يحلم كل منهم؟

أجيب مبتهجا لحديثه

- هذه الأجساد هدها طول ما عانته، فمجرد النوم لهم حلم، فلا أحسبهم يحلمون.

يتلفت مقلبا عينيه ثانية في الرجال النائمين شبه عراة في أركان الحجر

- هؤلاء التعساء لا يملكون سوى الحلم.

ثم ينظر لي بعينيه البنيتين ويكمل

- إياك أن يغرك همود الأجساد، فخلفها أرواح تضطرم.

ينعشني وقع كلماته الموجزة الحكيمة التي افتقدتها طويلا

ـ قل لي أنت بما يحلمون.

يقول بيأس

ـ يحلمون أنهم يحفرون الأرض بحثا عن جحر آمن، ليلدوا قطعانا من الأرانب الملونة، لتستقر في بطون الوحوش.

يصمت، أحاول جره لإكمال الحوار

ـ هكذا خلقنا الله.

يهز رأسه ويلم رداءه، يمسح قطرات من العرق أنبتها الحر الخانق على جبينه المجعد، يقول وهو ينظر لي بعينين لامعتين رغم الخمود الذي يحتل وجهه

ـ قديما قلت لك إننا لا نفعل شيئا في هذه الحياة، وإن كل شيء يفعله الله فقط، وإننا مجرد شهود، أتذكر ذلك؟

أرد بسعادة لذكره الله بكل هذا التوقير والتسليم

ـ نعم أذكر.

يهمس بأسف وهو يرتكن بظهره على الحائط الحجري رافعا رأسه للسماء المظلمة من فوقنا

ـ بعد كل تلك السنين التي مرت أقول لك: إن الله منذ خلقنا لم يفعل شيئا سوى مراقبتنا والتنصت علينا.

انتفض قائما في ذعر، أدور حول القدر، أمسك بإناء فيرتجف بيدي، ألقيه وأتحرك للباب، ازداد الهواء حرارة واختناقا رغم انتصاف الليل، أنظر للسماء فيبدو القمر الرابض في وسطها وكأنه يمارس دور الشمس، أهمُّ بالخروج لا أدري إلى أين، يناديني

ـ عثمان.

ألتفت له فيقول

ـ ألن تكمل الحديث معي؟

أرمق عجوزا قض الصوت مضجعه فاعتدل

ـ أي حديث؟ فما تزيد على أن تسب الله.

أجيب وأفر من وجهه الذي اكتسى بنور لا أحسب أنه ضوء القمر

اللامبالاة تدهن كل شيء، وكأن العم أديلانو كان يتلو قرآنا بالداخل، السماء بنجومها الخافتة المحتضرة، الحوائط بحجارتها النائمة منذ الأبد، الوجوه الجامدة بلا أدنى تعبير، الهواء الساكن بلا حراك، هل يمكنني أن أهز هذا العالم الساكن اللامبالي؟ كيف يمكنني أن أشد ملايين القلوب والأعين والآذان بصرخة واحدة؟

حتى البؤساء الممددون في أركان حوش الأرانب الحجري يمضغون أحلامهم لم أستطع إيقاظهم، علَّ أحدهم يوقف سيل الكفر المتدفق من فم العم أديلانو.

لكن عمي معه العذر، عل الله يغفر له، رغم إنه مشغول بعراكه الدائم مع الله، فقد فَقَدَ الأبناء والإخوة والأهل والمال والديار، جلساته الدافئة معهم، اهتمامه الزائد بكل ما يخصهم، تحفيظه القرآن لأطفالهم، موته المريح ورقاده بجانب آبائه، تمتعه بالذوبان في طين الأرض التي عشقها، لم يعد يرى شيئا في هذا الوجود إلا الله، فتفرغ تماما له، وبدلا من أن يحمده صب غضبه عليه، أصبح يراه في كل شيء فيلعن كل

شيء. لم يبق البنية الفائتة وأنا وعبد الله نواري حفيده الثرى، لم يزد عمي أن نزل المقبرة واقترب من رأس يوسف وقال له: عندما تقابله قل له يفعل ما بدا له. قل له إن معه سلطان القدرة ومعي سلطان اللعنة. قل له فيمنع طعمه عن فمي، وهواءه عن صدري، ودماءه عن عروقي، ولكن لن أنحني له مرة أخرى ولن أعفر جبيني بترابه.

حتى عبد الله تركنا في اليوم التالي لوصولنا للحَجْر، ذلك الإنسان الذي بقربه أحسست أنني وجدت جزءا كبيرا مفقودا داخلي، جاء رجل نحيل حول ذراعه جراب جلدي بداخله سكين، تهامس مع أحد الجنود وأخذه وغادر. قال عبد الله وهو يغادر: سأنتظركم عند خروجكم من الحَجْر. هل حقا سينتظر؟ قال العم أديلانو: لا تنتظر شيئا ليس تحت يدك. وأكمل: ولا حتى تحت يدك.

تطل عينا كلتومة البنية من الباب الفاصل بين الحوش والغرفتين الأماميتين. تقول بصوت يائس

- الأطفال يبكون جوعا.

أسمع صوت العم أديلانو من الداخل يقول

- ابحث للأرانب عن عشب.

أتحرك خارج البناية، منحت الغيوم الهواء قليلا من الرطوبة، أخرج للساحة الخاوية، يصحو جندي نائم بالباب، يزجرني آمرا بالعودة

- أريد شيئا من طعام للطفلين، نفد ما لدينا منذ الأمس.

يطيل النظر لي، بعض من الشفقة تعبر على ملامحه، يلكز رفيقه النائم بجواره

يزمجر النائم ويشيح مستديرا ليكمل نومه، يقول الجندي وهو يواري أسفه

- ما في جرابنا شيء يا ابن الحاجة[3].

- هل يمكنني الذهاب لحجرة المرضين علّي أجد شيئا.

- لا أحد بالغرفة، اذهب للداخل، عند الصباح تنصرفون.

أخجل من العودة خاويا، ألج حجرة البناية الأمامية، نقصت أجولة المسحوق كثيرا، أجلس مستندا على الجدار متغاضيا عن الرائحة النفاذة. ينسل مطر الخريف من السحب رقيقا كنسمات، **اليوم يوم عرسي. يقول قائد القوة المرابطة بقريتنا: نحن فقط نناور بالانسحاب، سنلتف من خلفهم، قوة أخرى في الطريق إلى هنا، ساعات ويصلون. ألقى كلماته المتعجلة وقفز للسيارة المحملة بالجنود، حملوا ما جمعناه لهم من قوتنا ورحلوا، منذ أيام نسمع عن تقدّم جنود بيافرا نحونا، أوجوكوو قرر الالتفاف حول جنود الحكومة، ترك لهم الجنوب الشرقي، وتحرك بقواته ناحية الغرب، وها هو يترك الغرب ويحتل الوسط، حاول أبي تأجيل العرس، غضبت، بكت كلتومة، رفض العم أديلانو وقال: لن ندع جنود أوجوكو يتحكمون حتى في مواعيد أعراسنا، وأكمل: الله يرعانا، فلا شيء يدعو للقلق. الأصيل يخيم على الدنيا، ساعات ويتحقق حلمي، كلتومة بين يديَّ في بيت مستقل، منذ شهور وأنا أبني كوخنا، رفضت أن أبنيه باللبن، جمعت له الحجارة على مدار شهرين، ساعدني حمار عمي الطيب كثيرا، سعدت عندما قال أنه سيهبه لنا بمجرد**

زواجنا، جمعت كلتومة الأغصان والأخشاب والعشب الكافي لتسقيف الكوخ، ساعد الكل في يوم البناء، بنيته بعيدا عن البيوت، كل أكواخ القرية مستديرة، أردناه مختلفا، قررنا أن يكون مربعا، بيت يضم كلتومة وعثمان يجب أن يكون مختلفا، كلانا يحفظ القرآن، ويجيد القراءة والكتابة بالهوسوية والعربية.

ـ ليس أقل من أن يذهب أبناؤنا للمدرسة الإنجليزية.

قالت، وضحكتُ للعزم البارق في عينيها البنية، كم أعشق هاتين العينين، لو أن الله لم يخلق في هذا الكون سواهما لاستحق العبادة. لم يبق سوى ساعات، أخذني أبناء عمومتي، كنت خجلا من نظرات النساء وأنا أمشي وسط الزفة في طريقنا للنهر، غسلوني بالماء ودلكوني بالعشب الجاف، ارتديت ملابسي الجديدة، خضراء كما اتفقت مع كلتومة، طاقيتي الجديدة من الصوف شغلتْها بيديها، تكحلت ونظرت في مرآتي فوجدت عينيها تنظر بخجل. في الطريق من النهر للقرية الشمس تتكور على نفسها ملتحفة بالشفق، الأشعة الصفراء تتمحك على أسطح المنازل، الحقول المحيطة بالأكواخ خضراء، وكيزان الذرة الرفيعة الملونة تلحس ما بقي من ضوء على ذؤاباتها، بينما كيزان الدخن المصفوفة بالحَب مشرعة للسماء كحراس أسطوريين في انتظار نوبتهم الليلية. دقات الطبول تزفني أنا والليل القادم، الجميع في الساحة حول منزل أبي، ملابسهم مزركشة بألوان الحياة، نساء يرقصن في دائرة تتوسطها إحداهن، تتطوح في عنف على دقات الإيقاع وضربات الأرجل في الأرض الحمراء الطينية، ينسدل شعرها ويتراقص على كتفيها، يهتز

صدرها فتهتز قلوب الشباب المحيطين بالدائرة فيصفقون بإيقاع أسرع، فتزداد سرعة دقها على الأرض وتمايلها.

علا الصفير والتصفيق ودخل الجميع في الرقص بمجرد قدوم الزفة. نحر أبي بقرة على باب البيت، درج الشباب والنساء وجوههم بالدماء، كلتومة قادمة وسط نساء من الناحية المقابلة، ترتدي جلبابا أحمر مزركشا بأوراق شجر كبيرة، وجهها مرسوم بحناء بنية، أخجل من الذهاب لها، يضحك أبي، يدفعني أبناء العم أديلانو تجاهها.

تضع يدها على كتفي، التفت لأري عينيها البنية وقد ملأتها الدموع، تهمس

- لم تجد شيئا؟

هززت رأسي بكآبة

- ساعات وننصرف من هنا.

تجلس بجواري وتردد محدثة نفسها

- وهل بالخارج طعام أو مأوى؟

التفت لها

- عبد الله سينتظرنا.

تضع يدها على كتفي

- أما زلت غاضبا؟

أردد وبقايا خيالات الأهل تنصرف عن عقلي

- تجاوزنا جميعا ترف الغضب.

تقترب بجسدها مني

. هل تعلم أن هذه أول مرة تجمعنا وحدنا جدران؟

أضع يدي على كتفها فيلتحم صدرها بجانبي

- منذ ليلة زفافنا التي لم تتم وكل الجدران مهشمة حتى جدران أنفسنا.

تقول ووجهها مدفون بصدري

- يجب أن تمضي الحياة.

أهمس محدثا نفسي

- ستمضي شئنا أم أبينا، المهم كيف وأين نمضي نحن في دروبها؟

ترفع رأسها وتدير وجهي، تنظر في عينيَّ بابتسامة شاحبة

- سيدخلون المدرسة.

لا أستطيع حتى رسم ابتسامة زائفة لأرضيها

- البريق الخافت في عينيك يحكي غير ما تقولين.

تعيد رأسها لصدري

- أريدك أنت فحسب، لا أريد غدا أو أمسِ، هل يمكنني أن أنام قليلا هكذا، هل هذا كثير؟

تضغط جسدها بجسدي، بينما ذراعاها يضمانني

تركنا الحفل عندما بدأت نيران الشواء في وسط الساحة تلقي نورها على الأوجه والأجساد، عاد من كان معنا بمجرد اقترابنا من الكوخ، بقي العم أديلانو، عشة داخل الكوخ قد انتهت من تجهيز عشاء العروسين وحملت رضيعها وانسلت بمجرد دخولنا، همَّ العم أديلانو بالخروج

عندما اقتحمنا صوت الصراخ، خرجنا مسرعين، يوسف يجري مذعورا تجاهنا تلاحقه أصوات الرصاص وطفلان، عشة تقوم وتقع وهي تجري خلفهم مذعورة، بينما الرضيع المعلق على ظهرها يصرخ بفزع، قال يوسف وهو ينهار جالسا

- أحاط جنود أوجوكو بالساحة، يفتشون كل بيوت القرية، بحثا عن الطعام والنساء.

أمرته باصطحاب النساء والطفلين والاتجاه لطريق كوشي، تشبثت كلتومة بجدران الكوخ، رفضتْ المغادرة، جرها يوسف، جريتُ في اتجاه القرية يلاحقني العم أديلانو.

على سطح المسجد المطل على الساحة أصعد، الجنود في دائرة حول الساحة، معظمهم دون العشرين، بعضهم يرتدي سترات عسكرية وسراويل مدنية، وبعضهم يرتدي ملابس كملابسنا، حوالي عشرين جنديا يرتدون ملابس عسكرية كاملة وأحذية، يتحلقون حول كبير لهم طويل ونحيل ووجهه غارق في السمرة اللامعة، على كتف بزته العسكرية نجوم ونصف شمس صفراء، في وسط الساحة النيرانُ وعليها الشواء يتصاعد منه دخان أسود، تنعكس النيران المشتعلة على وجوه أهل القرية المتحلقين حولها جثاة، أربع جثث لرجال يبدو أنهم حاولوا الهرب أو المقاومة، العم بجواري يتلو المعوذتين في هلع وارتجاف، عيناه مصوبتان نحو أبنائه وأحفاده، جندي يجر الجدة حواية وظهرها المنحني يكاد يصل فخذه، تضرب فخذه بيدها وكلمات غير مفهومة تندفع من فمها

الأهتم، بدت كنعجة حرون يجرها راعٍ، الحلق المتدلي من أنفها يلمع فصه الأزرق على ضوء النيران، يلقي الجندي بها، تتكوم بجوار النسوة.

يعلو صوت العم بجواري مرددا: كن عند حسن ظني بك. كن عند حسن ظني بك. لو حدث شيء فلن يتحمل وزره سواك.

جنديان يجران رقية ابنة العم إلياسو من ذراعيها وجسدها الهامد يزحف على الأرض، منزوعة الرداء إلا من سترة تغطي صدرها ودماء تسيل على فخذيها العارتين، صرخ العم إلياسو وهمَّ بالقيام عندما رأى رقية، بادره جندي برصاصة في رأسه، ارتمى ووجهه للأرض بلا حراك، صرخت النسوة، أطلق الجنود الرصاص فوق رؤوسهن، عم الصمت، مازال ارتجاف العم يهزني، تلفتُّ نحوه، عيناه مصوبتان للسماء ودموع تنصب منهما، مازال الجنود يجرّون نساء من الأكواخ ويضمونهن للساحة، يشعلون النيران في كل أكواخ القرية، يضع جنود أغراضا جمعوها من الأكواخ على لوري بجوارهم. ازداد عدد الجنود، لم يعد أحد منهم بشوارع القرية، بدأوا في ركوب السيارات الثلاثة الواقفة، كبيرهم يشير للجنود المتبقين حول الساحة، ينزعون الشابات من بين النساء، يلقون بهن في عربة، يحملون الأطفال الصغار ويلقون بهم في عربة أخرى وسط الجنود، أتابع أبي وأمي وأخوتي وقد برق أمل بداخلي، صوت الرصاص يتلاطم وسط الساحة، الصراخ يزلزل الهواء، تتبعثر النيران والجثث والصرخات، توقف الجنود عن إطلاق الرصاص، عم الصمت مرة أخرى، تقدم الجنود وبدأوا في قلب الجثث لوجهها، لم يطلقوا سوى عدة رصاصات أخرى، الجنود يشعلون النار في منزلنا والمنازل المحيطة

بالساحة، يلقون كرات النار على سطح المسجد. أتحاشى تبرئي. أبعدُ ما أقترب منها من العم الذي يرتجف وقد احتل الغضب وجهه. فمسح ما تبقى من ملامحه البشرية. الجنود ينسحبون للعربات التي بدأت في التحرك، صوت العربات يبتعد. أقفز من سطح المسجد تاركاً نعم ملقىً فوقه بجسد إنسان ورأس وحش.

يقتحم جندي الغرفة، يصرخ

ـ هنا يا أبناء الزانية!

تفزع وتجري متخبطة للداخل. نفس النظرات في عينيه. أقوم وأحاول تجاوز جسده المدكوك للداخل. يشدني من طوقي. تلتقي أعيننا فيشيح بعينيه، يدفعني لخارج الحجرة. يتبعني بقوله

ـ أولاد زانية.

الحرث

عبد الله ولد فال

الجنينة - غرب دارفور مايو ١٩٦٩

- البحار لا تقطع سيرا، والسنابك لا تحمل أحدا بالمجان، وجرابك خاو إلا من بعض لقيمات.

يقول الراعي فيخرجني من لحظات سعادة تنفست خلالها هواء نقيا خارج الحجر الصحي، يصمت وعيناه في عيني اللتين تقدحان غضبا وتعجبا، أرد

- لم يكن الجراب خاويا عندما استلبته كلص وقت أسري.
- لم تكن لتراني ثانية لو كنت لصا.

يقول ويلكزني بكتفي وابتسامة عاتبة تعلو وجهه ثم يكمل

- تقصد القرط الذهبي؟ وهل تحسب أنك خرجت من الحجر بلا رشوة؟

يتملكني الغضب، أمسك بتلابيب جلبابه وأصرخ

- يا شيطان ترشو جندي بكل ما أملك ثم تقول السنابك لا تحمل بالمجان، ومن قال لك إنني آخذ شيئا بالمجان، كان معي ما يوصلني لبيت الله فضيعته.

رغم احتقان وجهه من أثر الاختناق إلا أن الابتسامة ما زالت تعلوه، أفلته، يشهق ويقول

- يا عجول كدت تخنقني، دعني أكمل ولك أن تلعنني أو تشكرني. لنذهب لبيتي فتغتسل وترتدي ثيابك وتطعم ثم سأحكي لك.

وجهه المكتسي بأمارات الجد يطمئنني قليلا. يتأبط ذراعي. يدفعني فأمضي، السماء رداء فضي مبلل ينضح الماء في رتابة. الأرض تزفر الغبار تحت وقع المطر، تسلبني رائحة بواكير أمطار الخريف وهي تنفض بكارة الأرض، تبعث داخلي شجنا وحنينا لدياري الظمأى. ننحدر نحو المدينة، مئات القطيات° متناثرة بين أشجار السرو والتنبيل. عدة مبان من الحجارة في الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة وخور يلفها في نصف دائرة هابطا من الشمال ثم يسري ملتويا في طريقه للجنوب الغربي. دخان يتصاعد متسللا من السقوف المخروطية. تقطع خيوط المطر المستقيمة رحلة هروبه القصيرة، رائحة الطعام تنتشر لاهية عبر الأزقة تتسلق الحوائط الطينية وتفترش الطرق الموحلة. يجري لعابي، تتلوى معدتي. منذ شهور لم أتناول طعاما ساخنا. **عليك أن تأكل كل هذا الإناء لا تدع به لحما ولا مرقا: قالت مريم وأكملت: لحم الضأن لا يخطئ العظم، قد لا تذوق طعاما ساخنا لشهور.** هل كان كشفا؟ ومن يعالج الكشوف إن لم تعالجها مريم. ترى هل تراني الآن؟ برأسي العارية وقدميَّ الحافيتين، أضرب في أرض موحلة، وبجواري هذا النحيل ذو الوجه المسحوب والأسنان البارزة كثعلب، إلى أي وكر يسحبني كضحية؟ لم يذكر خلخال مريم الفضي، هل غفل عنه أم تغافل ذكره؟ ربما أجده قابعا في قاع جرابي، الأسوأ أن يكون قد تخلص من مصحفي، بعض لقيمات! فقط بعض لقيمات! ربما سيطعمني لقيماتي ويطعم معي.

- يجب أن نعبر الخور فالبيت في الناحية الأخرى.

يقول الراعي وهو يخلع حذاءه مستندا بمؤخرته على جذع شجرة سنط على حافة الخور، ويكمل

- هذا أوان الرشاش لا أوان المطر.

يلتفت لي ويكمل

- يبدو أن السماء ترحب بك.

ينزل المجرى الذي يتدفق ينبوع ماء في عمقه، أقف مترددا وعيناي تجولان في البر المقابل، حدائق مهندسة لا يحدها إلا التلال على مدى الرؤية.

- ما لك متحجر كجمل يخشى الماء؟

يسأل الراعي وهو على بعد خطوات داخل المجرى

أقول

- أي بيت تجرني لسرقته، فلا أحسب لك بيتا في الناحية الأخرى.

يقول وهو يعبر

- بل دنياي كلها في الناحية الأخرى.

نقطع المجرى، نصعد شمالا فيظهر طريق واسع بين الجنان يبدو كلسان عملاق للتل الجاثم في نهايته، تختلط أصوات الطيور المختبئة فوق الأشجار، ينعق غراب بلوعة، أقف متلفتا ناحية الصوت، قرد صغير يمسك فرخ غراب وينزلق هاربا بين فروع الأشجار المتلاحمة بينما الغراب ينعق ويضربه بجناحيه، تلتف الأغربة القادمة يسبقها نعيقها حول القرد وتضربه بأجنحتها وتخمشه بمناقيرها، يفلت القرد الفرخ ويجري مذعورا.

يضحك الراعي ويقول

- قرد غبي، لا يحسن اختيار فرائسه، الغراب لا يترك ميته إلا بعد أن يواريه، فهل يتركه حيا؟!

يدفعني لأمضي، يشتد المطر، تتكاثف حلكة الغيوم، يذوي ضوء الأصيل خلفها، يتوالى هزيم الرعد فيبدو متواصلا، البرق وكأنه يشعل رؤوس الأشجار، أنزل ثوبي من على رأسي، يغسل المطر شعري ويتساقط على ردائي الملتصق بجسدي، أقول

- فلنحتمِ بشجرة حتى يهدأ المطر.

- فلتحتمِ أنت بها لشهور لو أردت.

- ماذا أفعل؟

- افعل مثلما سأفعل.

يقول ويجري، فأجري محاذيا له، يغني بصوت حزين عميق عذب

- اللوري حل بي[6].. دلاني في الودي.. حبيبي جنني.. جنني جنني.. الحرير الطي.. الخيزران الني.. يا فقيري[7] اعزم لي[8].. اعملوا لي حجاب.

خلف التلال يقبع عالم الراعي، منعزل بعدة كيلومترات عن المدينة، واد واسع تحيطه تلال صخرية، الأشجار على عتبات التلال، القليل منها استطاع أن يمد جذوره بين صخورها، أشجار أخرى منتشرة خلال الوادي الفسيح المغطى بالعشب اليابس الضارب للصفرة كجلد قنفذ، مخرات ثعبانية، وبرك جافة كعروق، وندوب عملاقة تشقق وجه الأرض، في نهاية الوادي حوش واسع مسيج بأخشاب، ثلاث قطاطي؛

اثنتان لا يفصل بينهما سوى خطوات، والثالثة محروقة في قبالتهم، يفصل بينها وبينهم ممر واسع لبقية الحوش، حيث يوجد عريش مستطيل مسقف بالقش ترقد به قطعان الجمال والخراف والماعز.

تتغير هيئة الراعي بمجرد وصولنا للحوش، يرتسم الجد على ملامحه، تغيب الابتسامة عن وجهه، يبدو كأمير يستعد لملاقاة رعاياه، تصمت أصوات الكلاب التي كانت تتردد من جوانب الحوش، يسيطر الصمت على المكان، يدلف من الباب المفتوح، أتبعه على بعد خطوات، على جانب القطية الأولى عريش صغير أسفله نار يعلوها إناء يتصاعد منه بخار ورائحة طعام زكية، يدفع باب القطية الأولى ويدخل، ثوان ويناديني، أدخل متحرجا من لقاء أحد، لا أحد بالداخل، يقول الراعي وهو يمسك بالباب

- ها هو جرابك

يشير للحائط حيث جرابي معلقا وفوقه عمامتي، ويكمل

- اغتسل، وبدل ملابسك المبتلة حتى آتيك بالطعام

يخرج، يغلق الباب خلفه، المكان أوسع كثيرا مما يبدو عليه من الخارج، السقف المخروطي المفرغ يزيده اتساعا، طست فارغ موضوع بجوار قدر نحاسي في جانب القطية، حصير مفروش في الجانب المقابل، أسفل النافذة الخشبية المستطيلة عنقريب٩ فوقه فردة١٠ بيضاء، حذائي على الأرض أسفل الجراب المعلق، أخلع ردائي وسروالي المبللين، حرارة المكان أقل كثيرا من الخارج، أتذكر الخلخال، أنزل الجراب، أفرغ

محتوياته على الحصير، ما خلا القرط والخلخال كل شيء موجود، ردائي الآخر، سراويلي، مصحفي، خبزي، ملحي، وبعض تمرات.

ثلاث قطاطي، حوش وأرض واسعة، قطعان من البعير والضأن، قدور نحاسية! الرجل ثري فلمَ يفعل هذا معي؟ أحس بأنني مراقب، أستر عورتي، أعطي ظهري للنافذة المغلقة. أجلس في الطست، أستحم.

أرتدي سروالي وجلبابي النظيف وعمامتي، رغم عدم حاجتي للبس الحذاء إلا أنني ألبسه وأتجول في المكان، استعدت كثيرا من ذاتي، هذه الخرق لا تستر الجسد عن الآخرين فقط بل عن أعيننا أيضا فنرى ذاتنا، أفتح النافذة الضيقة فأسمع الراعي يقول

- لدينا ضيف يتوجب العناية به

فيرد عليه صوت نسائي بنفاد صبر

- وهذا الجسد ألا يستحق بعض العناية؟

يقول الراعي بغضب

- بعض العناية؟! أيتها الملعونة متى تعرفين أن الله لم يخلقك فقط لتمتعي فرجك؟

يرد الصوت النسائي

- وهل خلقني لأخدم فحسب؟

يقول الراعي وصوته يبتعد

- بل خلقك لأقتلك يوما ما.

يرد الصوت النسائي المبتعد
- لن أعدم رجلا .

يفاجئني دخول الراعي، أسد النافذة المفتوحة بظهري، يدخل متجهما يحمل إناءً يتصاعد منه البخار، يضع الطعام على الحصير متحاشيا أن يمسه بقدميه المتسختين، يقف وسط الحجرة متطلعا نحوي بخجل بينما الماء يتساقط من رأسه العاري وردائه، يتحرك خطوات ويقول وهو ممسك بالباب ليخرج

- تناول طعامك، وأغلق النافذة حتى لا يدخل منها ما يسيئك أو يسيء لغيرك، وتغطى حين تنام حتى لا يصيبك البعوض بالملاريا فهذا موسمها، عليك غلق الباب من الداخل، فاللصوص كالبعوض يكثرون مع هطول المطر .

لا أكاد أنتهي من صلاة الفجر حتى أسمع طرقات على الباب، يدخل الراعي وقد زال عنه خجل الأمس، بيده طبق عصيدة باللبن الساخن، يقول وهو يضع الإناء على الحصير ويتربع بجواره

- فلنتناول الفطور، لعلك نمت جيدا؟

أقول وأنا أتربع على الحصير مقابله

- منذ شهور لم أنم هكذا، رغم المطر الذي كان ينطح السقف طوال الليل محاولا اختراقه .

يقول وهو يضع لقمة في فمه

- ها هو المطر قد توقف، ليدع لنا فرصة لنبدأ العمل

أسأل محاولا الاستفسار

- أي عمل؟

يقول متجاهلا السخرية على وجهي

- لدي أرض ولديك جسد فلنتقاسم ما سنحصد من خير، فتكمل رحلتك، وأحتفظ بما يقيم أود هذه العائلة.

أقول مستغربا

- ماذا تقول يا رجل، لديك بيت وقطعان وتقول ما يقيم أود العائلة؟

يقول وابتسامة هم تعلو وجهه المثلث

- لعلك وهمت أن هذه القطعان لي. أنا مجرد راعٍ، هذه قطعان علة عوائل، أنتظر الهلال لأنال الجنيه أجري. بينما تسوق العوائل ما تريد من قطعانها لبيعه، وفي قليل من الأحوال ليعطوه لراع آخر

أقول متجهما.

- وما دخلي أنا بكل هذا؟ أنا لم أعمل فلاحا من قبل. لمَ بعت كل ما أملك لتحبسني هنا لبضعة شهور بينما أهلي ربما يتضورون جوعا في بلدي؟

يقول وبقايا همٍّ تأبى مغادرة عينيه

- لم يكن معك ما يبلغك. كان أمامك شهر على الأقل من النفقة للوصول للخرطوم، وهناك ستحتاج لاستخراج أوراق تثبت من أنت ولن تجد من يعطيك إياها. ببساطة لأنه لا أحد يعلم من أنت، لم تكن لتصل مرادك لو لم أقابلك. من أرسلك لم يكن يعلم أن الأرض منذ سنين لم تعد أرض الله لتضرب فيها حيثما تريد، اقتسمها بنو آدم وعينوا عليها حراسا في كل مكان.

أقول وقد حلت الدهشة محل الغضب

- من أدراك بكل هذا؟

يقول بلغة العالم

- عاد الجنود صبيحة اليوم التالي لأسرك، سألتهم عنك فأخبروني أنك بالحجر الصحي، وحدثوني بما قلته لك.

- وما العمل؟

أقول وقد بهت وجهي من المفاجأة، يبتسم ويقول

- الحل أن تكون سودانيا.

- وكيف لي بذلك؟

أسأل بيأس فيرد

- رغم لونك الحلبي[11] فلا عليك، هذا البلد كمصب نهر لا يتوقف من البشر، في بلد كهذا وطالما معك المال يمكنك أن تخرج وثيقة لأي أحد أنه سوداني. أما مالك فاشتريت به البذور والشتلات والمحراث، وأعطيت القليل منه للجندي لأخرجك.

أسأله محاولا مواراة الرجاء عن نبرتي

- هل تعلم أحدا يمكنه استخراج وثائق لي؟

يقول وهو يحمل الطبق الفارغ ويقوم

- أعلم، ولكن من أين لك المال؟

أقول محاولا مواراة خجلي

- ألم تقل سأعمل معك؟

أستند بظهري على الحائط منتظرا الراعي، الشمس لم تشرق بعد، القليل من شفق الصباح يلون السماء الزرقاء الصافية، وكأنه لا سحب

مرت من هنا، الجبال التي تلونت مع الصباح بدت أقل ارتفاعا مما كانت عليه بالأمس، الأشجار المغسولة زاهية بخضرتها الداكنة، الوادي الواسع مفروش بعشب شبه يابس متدرج بين الأصفر والبني، البرك المنتشرة وسط الأرض بها بقايا مياه، أي جهد تحتاجه هذه الأرض لتمهد وتزرع وترعى وتحصد.

منذ يومين اكتمل بدر صفر، انفض موسم الحج منذ شهرين، كنت أعلم أنني لن ألحق بالموسم الحالي، لألحق بالموسم القادم تبقى عشرة أشهر يجب أن أعبر فيها هذه الأرض المليئة بالفخاخ، أما لو استطعت أن أصل مكة خلال ثمانية شهور فسأصوم رمضان وأنا مجاور، يقول مولاي: **أنفاس وخطوات وأرواح الرسل والملائكة والصحابة والتابعين ما زالت عالقة حول البيت، المحروم من زار ولم يتنفس هواءً تنفسوه، المحروم من وطأ الأرض ولم يطأ موضعا وطأوه، الخاسر من لم يتدفأ بحرارة أجسادهم ويرى بنور أرواحهم.**

ترى هل ستطأ قدمي موضعا وطأته قدم النبي يوما ما؟ أم سأعود خاسرا؟ مكة كم أنت يقين لا يقبل شك وشك لا يقين فيه.

- الساقية[١٢] طاحونة الأنين طول الليالي بتنتحب.. تحت الظلام تحت المطر عز الشتا.. الساقية ثانية تقف، تكون آمال عريضة مشتتة وأكباد صغيرة مفتتة.

يخرج الراعي من وراء القطية يتبع أغنيته، يسحب خلفه حمارين يجر كل منهما محراثا يخط خلفه الأرض، الحماران لاهيان عما ينتظرهما،

يبدو أنهما مثلي لم يجربا الحرث من قبل، يفلت الراعي أحد الحمارين فيتوجه للعشب بجوار القطية، يتقدم نحوي بالآخر حتى إذا بقيت خطوات ويصلني، ينادي بصوت مرتفع كالصريخ

- يا عبد الله.

لا أرد متعجبا، ينظر لي وهو يبتسم ويكرر النداء

- يا عبد الله.

يقولها ويضغط على الباء واللام ويمد فمه كمن يبصق بالكلمة، تضحك المرأة بغنج من خلف القطية فأرد

- ماذا دهاك؟ لمَ ترفع صوتك؟

- هل ستحرث بهاتين الحافيتين؟

يقول وهو يشير لقدمي ويكمل

- لو فعلت فستنتهي رحلتك إلى الله قبل الظهيرة، وستلقاه وجها لوجه حافي القدمين والجسد. ليوبخك قائلا: لماذا لم تسمع كلام الراعي؟ لماذا حرثت بقدمين حافيتين؟

يزداد صوت المرأة الضاحك وضوحا، تظهر من خلف القطية، ترتدي جلبابا أحمر، طويلة بكتفين مرتفعتين، تلتفت نحوي، وجهها قمحي مربع، صدرها مرتفع، عيناها سوداوان حزينتان واسعتان بياضهما صاف، حاجباها دقيقان ورموشها طويلة مكحلة، أنفها مستقيم، شفتاها مكتنزتان، بطنها خاسف وقدها نحيل، قدماها صغيرتان داخل حذائها الجلدي البني الواسع، أظن أنها لم تتجاوز

عقدها الثاني بكثير، فعيناها الحزينتان كعيني طفلة، أنزع عيني المتسمرتين بجسدها في خجل، التفتُّ للراعي الذي كان يتابع وقع رؤيتي للمرأة وأقول في حدة

- أما وقد قدر الله أن نبقى معا فعليك أن تعلم أنني لا أقبل هذه الكلمات الفاجرة التي تلقيها عن الله كل حين.

يصمت وعلى وجهه ابتسامة سخرية صارخة، يلقي لي بجوالي خيش ويقول

- لف قدميك حتى ركبتيك.

أتناول الجوالين وأجلس، يهز رأسه، يغالب ضحكته، يمسك برقبة الحمار الذي ينتبه فيتوقف عن شم الأرض، يقول وهو يفرد الكلمات ويمد يده مفرودة الأصابع نحوي محاولا تقليدي

- أما وقد أردنا أن نبقى معا فعليك أن تعلم أنه يوجد هنا ديك واحد.

يقول ثم يمد رقبته، يرفع رأسه، يضع يده على أذنه اليمنى ويصيح مقلدا صياح الديك ببراعة، تضحك المرأة، تعقد يديها على صدرها، أتوقف عن لف الجوال على قدمي، لا أتمالك نفسي، أضحك، فيكمل وهو يغالب فكرة مسيطرة على رأسه الصغير

- يا عبد الله، قد تبدو لك الأرض خاوية من أي حياة، ولكن لتعلم أن هذه الأرض مليئة بما قد يذهب بحياتك لأقل خطأ، لا يقتلع المحراث وهو يفض الأرض العشب فحسب ولكنه يهدم بيوتا في باطنها، بيوتا تسكنها أفاعٍ وثعابين وعقارب وجرذان، هذا لو كان حظك سيئا، أما

لو كان حظك جيدا فأرانب وضبان، ولكن لا تحلم بالقبض على أي منها، فكن يقظا ولا تتلفت للسماء فدورها لم يبدأ بعد، ولكن انظر تحت قدميك، أمامنا أقل من شهر ونصف لننتهي من حرث الأرض وغرس البذور.

تنسحب المرأة، أقول وقد انتهيت من ربط الخرق

- الحذر لا يمنع قدرا، ولا أظن أننا سننتهي من ربع هذه الأرض قبل شهر ونصف.

يرد وهو يحجل حول الحمار.

- ومن أين لي بالبذور لأزرع ربع هذا الوادي؟ هذا لو قدرنا على حرثه، فقط لنبدأ.

لم تنقض دقائق من التخبط حتى استقامت خطوطي، قلَّت ضرباتي على كفل الحمار المتورم، استطعت أن أبادل الراعي الذي يعمل بالجزيرة المقابلة الحوار براحة، رغم الشمس التي بدأت تلهبني والورم في راحتي إلا أن رضاي عن العمل يخفف كل تعب، الراعي يدندن بصوته الحزين مقطعا آخر من أغنيته

- أحمد ورا التيران يخب. . أسيان يفكر منغلب. . ما بين بكا الساقية. . ما بين طفولة بتنَتحب. . في اللي ضاق عنه المكان. . وهم سافر واغترب. . لمدن بعيدة تنام وتصحى فوق مخدات الطرب.

خجلت عندما طربت لصوت ولد حسين الحزين في حضرة مولاي، انسحبت من الحضرة، جلست على باب الخيمة، لاحقني

صوت أكثر عذوبة، لم أطرب لكلمات المدح النبوي الشريف، طربت للصوت الذي عرى كل أحاسيسي وكاد يجري دمعتي، جعل السماء بنجومها تهتز، الخيمة تكاد ترقص من اهتزازات الوجد، بعد نهاية الحضرة قلت لمولاي

- الشيطان ركبني، وجدت للصوت لا للمديح.

ابتسم مولاي وقال: لا عليك، في نفس كل منا جزء طيب يسكنه الله، وجزء خبيث يسكنه الشيطان، وجزء ثالث شفاف لا الله يسكنه ولا الشيطان إلا أنهما يتصارعان عليه، من هذا الجزء الحر يخرج الدمع والفرح والغناء، لو كان عليك ذنب لو ضحكت أو بكيت فعليك ذنب لو طربت

غناء هذا الراعي يحمل أسى لا شر فيه، ورغم مرارته تطرب له النفس، يفتح أبواب الألم بداخلي، يجلي تلك الأحاسيس العذبة التي تخلفها الآلام وراءها.

حتى الآن لا أعرف اسم الراعي، ذلك الرجل الذي يبدو لي كأحجية، أسأله

- حتى الآن لا أعرف اسمك.

يرد بصوت مرتفع

- اسمي طه السيد أحمد.

أقول بصوت منخفض

- لمَ تفعل كل هذا معي؟

أسمع زجره للحمار مبتعدا وغناءه، فأكمل بصوت مرتفع

- كنت في طريقي مجرد عابر سبيل، وأنت في حياتك التي ألفتها، لو كنت تحتاج رجلا يعمل معك فهم بالمئات يمرون عليك، متلهفون لأقل دعوة للعمل، ولا أظن أنك كنت ستعجز عن شراء البذور حتى لو بالأجل.

لا أسمع حتى زجره للحمار، أمسح العرق عن وجهي، الجو خانق، أتلفت للشمس التي توسطت السماء، أعد الخطوط التي حرثتها، تجاوزت الخمسين، مازال معظم الجزيرة متبقيا، بالوادي عشرات الجزر، تشكلها المخرات العشوائية للسيول، تحدها برك منخفضة مليئة بالعشب وبقايا من مطر الأمس، لو عملت وحدي لشهر ونصف فلن أحرث أكثر من ثلاث جزر، هذا إذا لم أقم بشيء سوى الحرث، أقول محدثا نفسي

- ترى بما سنزرع هذه الجزيرة؟

يرد بصوت واضح

- الكركديه.

أرفع رأسي فأجده قبالتي بجزيرته

- أين كنت؟

يرد بينما يمسح عرقه، ويعدل المحراث ويعطيني ظهره ليكمل الحرث

- كنت بجوارك، وفي الجزيرة التي أحرثها سنزرع الفول السوداني، وسنزرع ثلاث جزر بالذرة، وجزيرة بالدخن، وجزيرة بالسمسم، ولو كنت قابلتك قبل شهر لزرعنا خمس جزر أخرى، ولو كان بجرابك عقد مع الحلق والخلخال لاستطعنا أن نشتري بقرتين بدلا من تلك الحمير المتعبة.

أعطيه ظهري، أعدل محراثي، أقول

- لو كان بجرابي عقد أيضا لقتلتك.

يضحك، ويقول

- تقتل وأنت في الطريق إلى الله؟

أرد ضاحكا بصوت مرتفع لكي يسمعني

- لو كان زنديقا مثلك فجهاد وحج.

يقول بصوت عال وبنبرة سخرية

- تحسب أنك تعرفً الله أكثر مني؟ أم أنك اشتريته برحلتك؟ الله الذي أعرفه لا يقبل الرشوة، حتى لو قدمتها وأنت ذليل ضارع، الله لا يقبل سوى الحب.

أقول وأنا أدير المحراث عائدا في مواجهته

- تحبه وتعصاه؟

يدير محراثه وينظر لي رافعا رقبته من فوق المحراث

- وهل يحب اللهُ سوى العصاة؟

أقول بسعادة من ظفر بجواب مفحم

- يحب العباد الطيبين المخلصين.

يعالج حجرا أمام محراثه

- لو كان من في الأرض كلهم عباد طيبون مخلصون ما عبأ الله بهم.

أقول وقد اقتربت كثيرا منه

- ولكنه وعدهم الجنة، وتوعد العصاة بالنار.

ينتهي لشاطئ البركة منتظرا وصولي

ـ نعم، يدخلونها كالخراف الطيبة، يرعون في عشبها، صليت كثيرا فلترعَ في جنة كهذا الوادي ولك نعجة، صمت وزكيت فلك واديان ونعجتان، حججت فلك واد ثالث وثلاث نعاج، هذه يا عبد الله أدنى الدرجات.

أقول ساخرا وقد وصلت قبالته تفصلنا فقط البركة الضحلة المشوشة بالعشب

ـ وللعصاة الدرجات العلى؟!

يترك المحراث ويتكئ على ظهر الحمار

ـ الدرجات العلى لمن يعرف الله ويحبه.

أنظر لعينيه الضيقة

ـ لا حب بلا طاعة.

ينظر لعيني

ـ حب بلا طاعة خير من طاعة بلا حب.

ـ يا رجل. الطاعة علامة الحب ودليله.

يقول وهو يركب الحمار مبتسما

ـ بل علامة الحب التسليم.

اتكئ على حماري

ـ التسليم يعني تنفيذ العبادة على أكمل وجهها.

يعقد رجليه على الحمار ويقول

ـ التسليم أن تقبل قدره وتحبه على قسوته.

أنظر لوجهه الناحل وأقول بغضب

- أنت تريد ربا لا يكلفك بشيء.

يقول وهو ينزل عن حماره

- وأنت تريد ربا كجندي ممسكا السوط فوق رأسك، ترشوه ليجعلك تحيا في سلام.

- أنا أريد ربا يخلصني منكما.

تقولها المرأة بصوت شبه صارخ، ننظر نحوها، ترتدي ثوبا بنيا، ومنديلا توتيا يغطي رأسها منحسرا عن مقدمة شعرها الأسود الدهني الحالك، تحمل فوق رأسها وعاء نحاسيا يبرق تحت ضوء الشمس تسنده بيدها اليسرى، الماء المنساب من الوعاء يلصق جلبابها بصدرها فيجسمه، تتدلى سلة خوص من يدها اليمنى، جسدها مشدود وركاها متباعدان، قدماها حتى ركبتيها مختفيتان خلف العشب، قطرات من العرق على جبينها المنبسط، تكمل

- لم يعد غير أن تنطوا على بعضكم كالكباش، سيبوا الله في ملكوته، وتعالوا لتأكلوا.

قالت وسبقتنا تهز ردفيها المكتنزين لشجرة الماهوجني الظليلة في جزيرة طه

ثلاثة عشر يوما مرت منذ التقيت طه في الحجر الصحي، منذ الفجر وحتى الغروب لا نتوقف عن العمل، أنهينا بالكاد تمهيد ثلاث جزر. تورمت يداي في اليوم الأول، دهنتها بزيت السمسم فطابت عند الصباح، لم يعاودني الألم مرة أخرى. اثني عشر ليلة وباب قطيتي أغلقه

من الداخل، لا أفتحه إلا في الصباح، أتبول في إناء فخاري بركن القطية لو أردت، منذ الليلة الأولى والمرأة لا تكف عن التلصص عليّ طوال الليل، في الليلة الثانية دقت الباب مرارا وأنا أقيم الليل، ثم لحظات ودقت النافذة، قطعت الصلاة وفتحت النافذة، كانت تقف على بعد خطوة، ضوء القمر يلمع على جسدها العاري، فجأة اندفعت نحو النافذة مدت يدها محاولة لمس جسدي، تراجعت للخلف مذعورا، أدخلت رأسها بصعوبة، حاولت أن تحشر جسدها في النافذة الضيقة فلم تفلح، سقطت فردة قرط مريم من أذنها، أخذتها وارتدت للخلف، كانت تتحسس كتفها المدمي وهي تعطي القطية ظهرها وتمضي باكية، بينما ضوء القمر ينعكس على ردفيها المهتزين، أغلقت النافذة.

لا أراها طوال النهار إلا عندما تُتغنج في أوقات الطعام بدون القرط، أما في الليل فأحس بأنفاسها خلف النافذة الخشبية.

اليوم سنذهب لإحضار عثمان وأهله، وافق على حضورهم بعد إلحاح مشترطا ألا يحصلوا على شيء من المحصول، قال بعدما أخبرته أنني سأتنازل لهم عن نصف حقي

- فلتعطهم ثيابك أيضا لو أردت، أما أنا فلو مات أحدهم فلن أشارك في حفر قبره.

- هل إطعامهم بالشيء القليل، هؤلاء كالجراد سيفرغون ما ببيتي.

- لك قطية، لو أردت أن تبيت بالعراء وتدعها لهم فافعل، ولا يقترب أحدهم من القطية المحترقة

ـ النساء سيعملن بالحقل، لا طعام إلا من يد امرأتي، يمكنهن أن يطحن الذرة، ينزحن الماء من البئر، ينظفن الحوش، فالنساء كالنحلات لا تسع الخلية لأكثر من ملكة واحدة منهن

ـ لتعلم أنني سأقتل من أراه نائما مع امرأتي.

كانت هذه تعليمات طه التي لم يكف عن ترديدها منذ اتفقنا على قدوم عثمان وأهله، وأخيرا أصر أن يرددها للمرة الأخيرة ونحن نربط الحمارين خارج الحجر.

أرفض دخول الحجر، ألتزم الباب مكتفيا بمتابعة طه وهو يتجول داخل الساحة متبادلا الحوار مع جمع من الجنود والممرضين، يشير ناحيتي، يتلفت الجميع نحوي وتنطلق الضحكات، يرتجف قلبي، يتركهم ويتجه لغرفة الطبيب ذات العتبات، يغيب داخلها، بعد لحظات من الانتظار يخرج من الحجرة متجها ناحيتي، يقول بصوت مرتفع لا يخلو من سخرية

ـ يا عبد الله.

يدق قلبي بعنف، يجف ريقي، هل يسلمني بعد أن استلب مالي وجهدي، يكرر النداء بصوت أعلى، هذا الثعلب يعلم ما يدور بداخلي، علامَ يناور بدغدغة الأعصاب هذه؟ يقول وبينه وبيني خطوات

ـ أعطني نصف جنيه.

رغم أني لا أملك أي مال إلا أنني بعفوية أسأله

ـ لماذا؟

يقول وهو ينظر بخبث

- سأخبرك لاحقا، أعطني نصف جنيه.

أقول باستسلام

- تعلم أنني لا أملك أي مال.

يقول بسعادة من ربح

- سأدفعه لك على أن يخصم من نصيبك في الحصاد، هذا ليس بقليل، إنه أجري عن نصف شهر من الرعي، تعال معي.

أقول بتوجس

- لأين؟

يرد بجد

- ستعطيهم اسمك ليعطوك تأشيرة مرور بالسودان.

أقول بريبة

- ألم تقل من الأفضل أن أكون سودانيا؟

يقول وهو يتجه للحجر

- ربما تريحنا هذه التأشيرة من عناء إثبات أنك سوداني، هذا لو عرفك أحد أهل بلدك في الخرطوم.

أمشي خلفه وقد سرت طمأنينة في جسدي، أدخل الحجرة التي تنعم بالرطوبة، يجلس على أحد المكتبين بها، ضابط عظيم الجسد على كتفيه خرتيتان، أمامه أوراق وأختام، قبالته على المكتب الآخر شاب بملابس إفرنجيه يرتدي نظارة تبدو عيناه من خلفها جاحظتين بلا أجفان، أمامه

دفتر بطول المكتب، رغم المكتبين والكرسيين والرجلين ودولاب خشبي عتيق فالغرفة تبدو خاوية، يرتسم على أرضيتها الحجرية بقعة شمس كبيرة يتسلق الدخان الأزرق لسيجارة الضابط على أشعتها صاعدا للنافذة، بلا مقدمات ودون أن يرد السلام سأل الضابط بعد أن أنزل عينيه عني

- اسمك؟

- عبد الله ولد فال.

يقول وقد توقف هو والشاب الآخر عن الكتابة

- اسمك رباعيا؟

- عبد الله ولد فال خيرولد حسن الحسيني.

يسأل بدون أن ينظر لي

- من أي البلاد.

- شنقيطي.

يكتب وهو يردد

- الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

- من أي بلاد موريتانيا؟

يسأل فأرد

- من بادية النعمة.

يضحك ويقول

- وهل يرفس أحد النعمة، ويتركها ليجوب البلاد كدرويش؟

أتجاوز سماجته

- أنا حاج.

يقول وكأنه لم يسمعني

- كم سنك؟

- ثلاثون.

- مهنتك؟

أتحير في الرد، هل حفظ القرآن والتفرغ للعبادة تعد مهنة، أتذكر إخوتي، يعملون بالرعي والزراعة، أما أنا فأعيش على كدهم، هم سعداء بلقب عالم الذي يطلقه عليّ مولاي، يعتبرونني درة التاج في العائلة، الآن أكتشف أنني طوال عمري كصنم في ظل خيمة وسط صحراء ملتهبة يتبرك به إخوتي.

يزجرني

- مهنتك؟

لا أعلم من أين برقت في خاطري الإجابة

- طالب علم.

- أي علم؟

- العلم الشرعي.

يكتب وهو يردد بينما ينظر لطه الغارق لأذنيه يتابع كطفل مبهور

- تاجر.

يضحك طه، يبتسم الضابط، يسأل

- الغرض من القدوم للجمهورية السودانية؟

- اسمع

أقولها هذه المرة بصوت مرتفع، فيكتب وهو يردد

- السياحة.

يقول وهو يكمل كتابته بدون أن يسألني

- هذه تأشيرة لمدة ستة شهور، يجب بعدها أن تغادر هذه البلاد، لو تخالفت فستتعرض للسجن.

ثم ينظر لطه ويكمل وهو يضع عدة أختام على الصفحات التي ملأها

- كيف حال الخراف؟

يرد طه

- بخير.

يقول بنبرة لا تخلو من تهديد

- لا الذئاب ولا الأمراض تقترب من خراف الضباط. أليس كذلك؟

يقول طه وهو يضحك

- ولا حتى عزرائيل نفسه.

يناديني الضابط، يطلب مني التوقيع، أوقع في ورقة التأشيرة، أوقع أيضا في دفتر الشاب الآخر، يعطيني التأشيرة وهو يقول

- فلترعَ الخراف جيدا، ولا تلتفت لغير عملك، فالمريض معذور، ولو قتلك طه فلن يبيت في السجن ليلة واحدة.

أستلم التأشيرة، أترك طه مع ضابطه، أجلس على بساط الظل الممدود أسفل شجرة نيم بجانب السور الداخلي للحجر، جنود وممرضون

يتحاورون ويتندرون ويضحكون وسط الساحة غير عابئين بالشمس، كتب في التذكرة. سبق أن قرأت اسمي مكتوبا ولكن لم أره في خطاب رسمي مصدق. حتى عندما جاءنا موظفون من نواكشوط لحصر أعدادنا وحصر ممتلكاتنا ودوابنا كنت في دفاترهم مجرد رقم لا اسم، أما هذه الوثيقة فلا تكتفي بذكر بياناتي بل كل ملامحي، فأسفل كلمة الطول بخط الكتبة كتب الضابط مائة وخمسة وسبعون سنتيمترا، وأسفل الوزن: خمسة وسبعون كيلو جراما. وأسفل لون البشرة: ملون مائل للأبيض، وأسفل لون الشعر: أسود، وأسفل لون العينين: سوداء، وأسفل علامات مميزة: ملامح عربية.

أنتهي من قراءة الوثيقة لمرات حتى تبخر الشمس شبه العمودية الظل، تلم الشجرة ظلها ودثرتني به مع الجذع المستند عليه، يلوذ الجنود والمرضون في الساحة بظل شجرة مجاورة، اللوري رابض في طرف الساحة. أصوات صراخ تأتيني من داخل مبنى الحجر، يبدو أن هناك صيدا ينظف ويحقن. ألتفت للجمع أسفل الشجرة المجاورة، لا أحد يعبأ بالصراخ. يرتفع صوت ممرض

- ألغى النميري الأحزاب، والأزهري معتقل في سجن كوبر!

يرد عليه جندي

- ليت نميري١٣ أعدم كل الساسة وأولهم الأزهري١٤ وأراحنا.

يقول الممرض العجوز الجالس وهو يتطلع لوجه الجندي

- عن الأزهري تتحدث، منذ ثلاثة عشرة عاما كنت واحدا من ملايين السودانيين المحتشدين بدءً من حديقة مقر الحاكم العام الإنجليزي

وحتى ضفاف النيلين، كنا نغطي كل شبر، فوق الأسطح وعلى الأعمدة وفوق الأشجار وعلى الأرض وفوق المراكب، كنا جميعا كعين واحدة تشاهد هذا الرجل وهو يرفع علم الاستقلال السوداني، لم أبك وحدي بل بكى السودان كله فرحا، حتى السماء والجبال والأرض والأشجار والنيلان كانوا يبكون فرحا، والآن هذا الرجل يلقى به كالمجرمين في السجن.

قال كلماته وتلقى دمعاته بكم ردائه الأبيض، صمت الجميع متأثرا، انفضوا كل في جهة، اختفوا من الساحة، كلمات الرجل الحزينة المتألمة ظلت عالقة حوله بالمكان للحظات، قام وثبت عمامته، مسح عينيه للمرة الأخيرة، زم شفتيه، تفل ومسح شاربه الأبيض، مشى بخطوات متثاقلة ناحية الحجر.

عثمان إدريس دار

الجنينة - غرب دارفور مايو ١٩٦٩

الركب يمضي، من القتل إلى التشرد إلى الأسر، ثم لوميض من الحرية القلقة، حرية الذهاب للمجهول، تلك التي لا تقل إيلاما عن عدمها* .

أخرج من الحجر وبيدي الطفلان الهزيلان ، بداخل البشر قوة ما لم يكتشفها أحد بعد، بتلك القوة تمكن هذان الطفلان من البقاء على قيد الحياة حتى الآن، رغم عظامهم الناتئة، وعيونهم الغائرة، وبطونهم المنتفخة، إلا أن بعينيهم بريق صحة وتشبثا بالحياة.

لا أعلم متى توقفا عن تذكر أبيهم وأمهم، أو بالأحرى متى توقفا عن البكاء عليهما، هذا الطويل الذي يقف على أعتاب البلوغ هو أبكر، أعرفه منذ كنت أراه يتعلم القرآن على العم، أما القصير دائم الابتسام والحركة فلم أكن رأيته من قبل، عرفت أنه يصغر أخاه بعامين وأن اسمه همزة، لم يكن لدى أبويهما سواهما، الأب قتل أمام عيني ضمن من قتلوا، والأم حملت على عربة اللوري مع من حملن من النساء.

كلتومة تهتم بأبكر، لا تكبره بأكثر من خمس سنوات، تمارس معه دور الأم، همزة هو المفضل لدى العم أديلانو، فها هو يحمله خلفه على

الحمار، بينما يحمل حفيده رضيع عشة بين يديه، ترى ماذا سيعلمهم؟ لم يعد لديه قرآن يعلمه لأحد، لم يعد لديه سوى الشجار والجدال واللعن، كاد الضابط أن يلقي به في السجن، عندما أبلغنا أن التأشيرة لستة شهور فقط، قال له العم أديلانو

- وبعد الشهور الستة؟

رد الضابط

- ترحلون.

سأل العم أديلانو باستهزاء

- إلى أين؟

أجاب الضابط بنفاد صبر

- إلى دياركم.

رد العم أديلانو وما زالت ابتسامة السخرية على وجهه

- وإن لم نرحل؟

نظر الضابط للراعي بغضب

- تسجنون حتى نرحلكم نحن.

سأل العم أديلانو بهدوء

- وهل بالسجن طعام أم كالحجر لا طعام به؟

رد الضابط وهو ينظر له بغضب

- بل به طعام وكرباج للأشقياء من أمثالك.

قال العم أديلانو بعزم

ـ إذن فسنلتقي بعد شهور ستة .

صرخ الضابط

ـ عندها سأرسلك إلى جهنم وبئس المصير .

قال العم أديلانو وقد عادت السخرية لوجهه

ـ أي جهنم تعني ، جهنم التي نحيا بها هذه ، أم جهنم التي في الآخرة؟ .

قال الضابط وهو ينظر له باحتقار

ـ كلتاهما معدتان لأمثالك .

قال العم أديلانو الثابت على سخريته

ـ إن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا .

قال الضابط بثورة وهو يهم بالوقوف

ـ أتتوعدني النار؟

قال العم أديلانو وهو ينظر لعيني الضابط

- بل توعدنا من خلقنا .

قال الضابط بتهديد وهو يمد يده

- إن لم تختف من أمامي ، فلن أريك الشمس مرة أخرى

قال العم أَديلانو بثبات

- وماذا أخذنا من الشمس غير سواد بشرتنا؟

ألقى الضابط بالأوراق فتطايرت على أرضية الحجرة تحت أقدامنا ، تحرك تجاه العم أديلانو الواقف بلا مبالاة ، تقدم الراعي ووقف بينهما ، رسم الراعي علامة الجنون حول رأسه محاولا تهدئة الضابط ، دفعت العم أديلانو للخروج ، تبعنا النسوة والأطفال ، انتظرنا بجوار الغرفة ، جلس

العم أديلانو مستندا على الجدار، ما زالت السخرية تعلو ملامحه، يحدث نفسه كعادته منذ شهور، بينما النساء يرتجفن، والطفلان مذعوران يمسك كل منهما بيد الآخر، والرضيع على كتف عشة لاه بمشاغلة خصلة شعر نافرة من تحت المنديل.

بعد قليل خرج الراعي يضحك من الغرفة وبيده التأشيرات، تخيلت أنه سيوبخ العم أديلانو، أعددت كلمات للرد عليه، أدهشني أنه انحنى علي العم أديلانو وأقامه، تأبط ذراعه وكأنهما صديقان التقيا بعد غياب.

ومازال الركب يمضي، يتقدمنا العم أديلانو على حمار مردفا خلفه همزة، الراعي على حمار آخر مردفا أبكر، السماء الزرقاء جدباء من السحب، تمطرنا الشمس بأشعتها فتنبت الظل تحت أقدامنا، الأشجار على الجانبين ترتدي جلباب الوقار فلا يهتز لها غصن، الطريق خال إلا منا، حتى الطيور على الأشجار وكأنها هاجرت فرارا من الحر الخانق، يدب الجميع في فتور وصمت، وكأننا ذاهبون لمعبد، أحاول الخروج من الصمت، أقول للعم بصوت حاولت أن أجعله مازحا

- ألم أقل سينتظرنا؟

يلتفت العم أديلانو من فوق الحمار ويقول

- وفاء لا ينكر، لكن لأي جحيم سيلقي بنا؟

أصمت خجلا من عبد الله، لا أظن أنه فهم شيئا، منذ خرجنا وهو مشغول بشيء ما لا أدري ما هو، فنظراته للأرض أكثر من نظراته للآخرين، رغم تحسن هيئته كثيرا عما كان معنا، إلا أن في عينيه انكسارا ما.

ومازالت الأرض تلتهب تحت أقدامنا العارية، يعطي العم أديلانو حذائه لكلتومة، أنا وعشة بلا حذاء بينما الراعي بحذائه فوق الحمار، تتقدم عشة حتى توازي حمار الراعي، تقول له وهي تنحني وتخلع الحذاء من قدمه

- لست عجوزا لتركب الحمار، وإن تبجحت وركبته فلتركبه حافيا.

ينظر لها مبتسما، لا يقاوم، يلقي لها بحذائه الآخر وهو يقول

- لكن لا تأكليه.

تقول عشة وهي ترتدي الحذاء وفي وجهها ابتسامة ظفر

- إن لم يكن ببيتك طعام فقد آكلك أنت أيضا.

لا يرد، يكمل حواره الهامس مع العم أديلانو، منذ رأت عشة الراعي وهناك نظرة مختلفة في عينيها، كانت تتابعه وهو يتحدث مع الضابط والإعجاب يملأها.

كلتومة ساهمة منذ خروجنا، عيناها البنية تلمع من فوق الغطاء الذي شدته على وجهها، مازال أثر باهت للحناء يخضب ذراعيها، حناء عرسها التي يبدو أنها تتحاشى زوالها، لم تنظر لي منذ خرجنا من الحجر.

- هل تبقى الكثير؟

أسأل عبد الله الذي يشيح بعينيه عن صدر امرأة فلاتية[١٥] عار، المرأة تحمل على رأسها سلة خوص، صدرها المهتز حلمتاه البنيتان ممتلئتان، بخلاف هذه المرأة ورجل آخر ظهر أمام باب قطية ودقق النظر فينا لا أرى

أحدا بالمدينة. الظهيرة هنا تماما كالليل، فالشمس عندما تتجبر يمارس الجميع طقوس الاختباء والالتحاف بالظل، أعاود السؤال، فيرد

- نصل مع العصر.

أسأله

- ماذا ينتظرنا هناك؟

يرد وهو يشد عمامته على وجهه

- الكثير من كل شيء إلا راحة البال.

يقولها باقتضاب يزرع الخوف بداخلي

بمجرد أن طعموا نام الجميع كالقتلى، النساء بالقطية، العم أديلانو مع الطفلين على عنقريب بالحوش، قابلتنا زوجة الراعي بفتور، تجاهلت النساء وهي تعد الطعام تحت العريش، نادت على الطفلين ليحملوا الآنية. كانت تبتسم فقط لأبكر، صليت وعبد الله العصر، اختفى الراعي وزوجته، كما اختفى النوم من عيني، أقول لعبد الله

- فلترني ما حرثته.

رغم أنني متأكد أن الأرض هي الأرض مهما تغير لونها، تظهر كالبكر البضة بمجرد مرور المحراث عليها، لكنني أريد أن أتحرك، علّني أخرج عبد الله من الصمت الذي يلازمه منذ التقينا بالحجر، يقوم مستندا على ذراعي وهو يقول

- نحتاج للحديث في مكان لا يسمعنا فيه أحد.

للمغيب مهابة، وخصوصا مغيب الشمس، يستشعرها من لا يعلم له غدا، ليل آخر من الضياع، وصباح جديد بلا تقاطيع محددة، الأفق

الغربي مضرج ببقايا أنفاس الشمس الغاربة، الوادي صامت يحبس أنفاسه في انتظار الليل، الأرض تنفث ما بقي في جوفها من حرارة، الجزر الثلاث المحروثة وكأنها نساء عاريات في انتظار البذرة، الأشجار القليلة في الجزر الثلاث شامخة تحاول مطاولة التلال المجاورة، باقي الوادي يملأه العشب، نصل الجزيرة الأولى، ما قاله عبد الله في كلمات موجزة وجلة أثار في داخلي قلق ممتزج بالشفقة، أما هو فتعلو ملامحه الراحة، تخلص من أزمة انفراد الهم به، وجد من يشاركه نفس الهم وقد يكون نفس المصير

- ترى لماذا لا يطلقها الراعي؟

أسأل وكأنني أحدث نفسي

- اسمه طه.

يرد عبد الله ثم يكمل وهو يمد بصره للوادي

- عشت في وطن قريب الشبه بهذا، نعم هو أقل خيرا وأقل خصبا وأكثر تدينا لكن له نفس الطباع، لو طلقها فلن يتخلص من عارها، فزوجة طه أصبحت صفة لصيقة بها، حتى تطليقه لها لا يمحو هذه الصفة، ولن يزيد على أن يجعلها مستباحة، كل شارد ووارد لن يتردد في مضاجعتها. ثم إنني أحسب أنه يحبها، نظراته لها نظرات محب لا كاره، بل نظرات عاشق لا زوج فقط.

يصمت ريثما يجلس مستندا على جذع الشجرة على طرف الجزيرة ويكمل

- هذه الدنيا لا تريح أحدا، كيرقة على جذع شجرة قطعت آلاف الكيلو مترات من خيمتي حتى هنا، ساعيا للوصول لشرنقة الله علني

أضحي فراشة زاهية تنطلق حرة في طريق العودة لدياري، مررت بمالي والنيجر وتشاد، رأيت أشكالا وأجناسا عديدة من البشر، بين لص وشيخ عابد، طفل وعجوز، إناث ورجال، لم أرَ أحدا سعيدا طوال رحلتي.

أقول وأنا أجلس بجواره وعيناي على الجزر المفروشة بالعشب

- ربما لأننا ابتعدنا عما خلقنا الله له، خلقنا لنعبده، لنبحث عن كل ما يرضيه، ولكننا جميعا نبحث عما يرضينا نحن، نجري وراء شهواتنا، لا وراء رضاه.

يلتفت نحو السماء التي تتلاحق بها سحب عابرة ويقول

- حتى من يعبدون الله ولا هم لهم إلا إرضاءه، كيف يستسيغون السعادة وهم يرون المعذبين والمحرومين حولهم بكل مكان وفي كل وقت؟

أقول وأنا أتابع فراشات ثلاث تتراقص حول زهرة ذابلة على حافة البركة

- ربما هذا ما يجعلهم يعتزلون في خلواتهم وصوامعهم.

يقول وهو ينظر نحوي بعينيه السوداء اللامعة

- سعادة من فقد حواسه . . .

تقطع كلماته صرخة ألم من وسط العشب، يتقلص وجهه، يتجه ناحية الصوت، أتبعه وأنا أتحسس لخطواتي، نعبر للجزيرة التالية، نقف على حافتها، نتلفت بحثا عن مصدر الصرخة، المكان صامت حتى العشب لا يهتز، يطول وقوفنا انتظارا لحركة تدل على مصدر الصوت،

نتبادل النظر فتند صرخة مكتومة من ناحية يساري. نهرع للشجرة على يمين الجزيرة التالية. خطوات داخل العشب ونكون بجوارها. كانت ممددة تحت الشجرة، رداؤها مرفوع حتى وسطها. نصفها الأسفل عار تماما، مفتوحة الفخذين. دماء على ركبتيها. أسفل منها قطعة لحم ممتزجة بالدماء، جنين بلا ملامح. هي شبه مغمضة العينين. فاغرة الفم، وجهها المحتقن مبتل بالعرق. خصلات من شعر مبتل ملتصقة بخديها ورقبتها، يداها ملقاتان بجوارها. أنظر لعبد الله في ذهول. يهم بحملها، أمسك به، يقول بغضب وهو ينزع يده:

- فليقتلني، ولكن لن أدعها هنا

يئنّ عبد الله تحت ثقلها. يمشي بخطوات متعثرة وسط العشب

- دعها لي.

أحملها متحاشيا نقاط الدم التي تنساب من بين ساقيها، عبد الله يحوم حولي. يسبقني ثم يحاذيني وينظر لوجه المرأة المتدلي خلف ظهري، يصاب بالذعر فيسبقني مرة أخرى. يتلفت للأفق الرصاصي الذائب في الغروب، يطيل النظر للحوش الذي يعلوه قمر بدأ في الاختناق مرسلا أشعة صفراء كابية. أصل الحوش فيسبقني عبد الله لقطية طه، يدق الباب بعنف، أصل قبل أن يرد أحد. يدفع عبد الله الباب. يسبقني للداخل، أسجيها على عنقريب بجوار الحائط. أغطيها بملاءة بيضاء، أهم بالخروج لإحضار النساء، يقابلني طه المندفع للداخل كالمسعور وبيده سكين، يزمجر في غضب

- ماذا فعلتم بها؟

يرد عبد الله بصوت مختنق

- أجهضت جنينها.

يلف حول العنقريب، يكشف الملائة، يمسح خيط دم من على قدمها براحة يده، يلقي بالسكين، يأمرنا بالخروج، ألمحه وأنا أغلق الباب يبكي وهو يحمل وعاء ماء من جانب القطية لجوار العنقريب ثم يغمس عمامته في الماء ويمسح قدميها.

لم تنتظر عشة التي لم تخلع حذاء الراعي من قدميها لتسمع بقية الحوار، تنزع ثديها من فم الرضيع، تتوجه مهرولة لقطية الراعي، أتبعها محاولا إثناءها خوفا عليها، تدفع الباب بلا تردد وتلج، أسمعها تقول بغضب

- تبكي كالنساء وتدعها تموت، أشعل المصباح.

ينسل ضوء من الباب الموارب فيرسم بابا مفتوحا على الأرض، الضوء الهارب من النافذة يشكل نافذة على الجدار المصمت للقطية المحترقة، الاحتراق أبشع أنواع الدمار، فهو يغير الكنه والهوية، السخام المتراكم على الحائط من أثر الاحتراق يرسم أشكالا غامضة تطفح بالكآبة.

تعاود عشة الكلام

- مالك متحجر هكذا، توقف عن البكاء، ستكون بخير، أخرج ونادي كلتومة، ولا تدع أحدا يرى دموعك.

يخرج الراعي ويقف بجانبي وعيناه على الباب، تتقدم كلتومة التي كانت تقف مفزوعة على بعد خطوات انتظارا للنداء، يأتي عبد الله تاركا العم أديلانو يحمل الرضيع ويحدث الطفلين ويقف بجانبنا

- ستكون بخير.

يقول عبد الله وهو يضع يده على كتف طه الذي يتحرك بخطوات مهزومة ناحية حوش الجمال. القمر المختنق تماما في السماء يضيء الطريق بالكاد. يتوقف عند حافة البئر. يستند على الحجارة التي تشكل سياجا حوله. يتناول الدلو المعلق بحبل السارية. يشرب ثم يلقي بقية الماء على رأسه العاري. يضع الدلو مكانه. يجلس القرفصاء مستندا على السياج الحجري. يضع رأسه بين ركبتيه. ينخرط في البكاء.

دقائق ظللنا خلالها مستندين بجواره على السور صامتين حتى جاءنا صوت كلتومة

- توقف النزيف. ستخلد للنوم بعدما تتناول الطعام. عند الصباح ستكون بخير. فلتناموا جميعا معا.

تتوجه حيث يجلس العم أديلانو. تحمل الرضيع وتعود للداخل وتغلق الباب. يأتي صوت العم أديلانو من الظلام.

- ثلاث نساء في كوخ واحد. فليحرص كل منكم على حياته.

يقهقه عبد الله ويقول لطه

- لا تسع الخلية أكثر من ملكة واحدة؟ ها هي تسع ثلاثا.

يقول طه الذي ردت روحه وهو يتحسس رداءه المبتل بالماء

- أيكم يعيرني رداء. فالملكات لا يختلفن عن الملوك. ينفين ويسجن ويقتلن. وينمن الرعايا إما جوعى وإما بأردية مبلولة.

ترد عشة من الداخل

- أنتم محترفو القتل والسجن والنفي، نلدكم لتقتلونا وتقتلوا أنفسكم

ثم تنادي

- أبكر.

يقف أبكر وخلفه همزة بالباب، تناولهما رداء وسلة بها رقائق من القرصان وتقول

- دواء الرداء المبلول خلعه، لديكم النوق فلتحلبوها، وأطعموا العم أديلانو جيدا حتى لا يتهمنا بقتله.

- فلتعطي هذا للعم والطفلين.

قال طه لعبد الله وهو تحت ضرع الناقة المستلذة بمداعبته لحلماتها ولتخلصها من ثقل اللبن في ضرعها الحافل، ثم قام وصوب نظره ناحية قطيته، أكمل وهو يجلس تحت ناقة أخرى حافلة ويبدأ في تحنين حلماتها

- رأيتك وأنت تحملها، كنت هنا أفصل النوق الصارفة عن الجمال، وجدتموها وسط العشب بجوار شجرة الماهوجني أليس كذلك؟، كل عدة شهور تفعل فعلتها هذه، تخلع قلبي عليها، في كل مرة أتوقع موتها، ولكنها لحسن حظي تنجو، لو ماتت هذه المرأة فلن أبقى هنا بعدها، فلا شيء يربطني بتلك الأرض سواها، ربما أهاجر لمجاورة الإمام الهادي[16]، أو ربما أسكن الجزيرة أبا[17] بجوار غار الإمام المهدي[18]، ولو كنت محظوظا ربما أجاور قبة الإمام المهدي في أم درمان، هناك ألتقي بالأنصار، منذ ثلاث سنوات لم أصل الجمعة بمسجد الإمام، أشتاق للتبرك بزيارة المقام، المرة الأخيرة كنت بصحبة زوجتي

بعد الحادث، تمنيت على الله ألا تجن، قرأ لها لفيف من الأنصار راتب[١٩] الإمام عدة مرات، لم تجن، أصابها ما هو أكثر من الجنون.

ـ كل منكم ترك دياره بحثا عن هدف ما وهروبا من ألم ما، عبد الله هروبا من القحط وبحثا عن العون من الله والأهل في أرض الحجاز، وأنت هروبا من الحرب وبحثا عن الله أو عن كوخ وأرض تمد جذورك بها، لكن الأسوأ من ذلك أن تكون بديارك ولا تدري معنى واحدا لوجودك.

يقول طه الواقف على بعد خطوات تحت العريش منتظرا أن يغلي إناء الشاي

ـ لك زوجة، ولا حرب لديك ولا قحط، ألا يكفي هذا.

يقول عبد الله الجالس بجواري على مصطبة القطية المحترقة وهو يبتسم

ـ الزوجة والأولاد لأمثالنا ليسوا مجرد شهوة وعزوة بل وطن.

يقول ويجلس واضعا إناء الشاي والأكواب، يشعل سيجارة ويأخذ نفسا عميقا تاركا عود الثقاب يحترق حتى تلامس ناره جلد إصبعيه الخشن ثم يلقيه منطفئا، يسأل عبد الله الذي كان يتابع النيران بين إصبعي طه بقلق

- ولكن لا نرى لك أولادا، علهم في مكان آخر؟

- هم أقرب مما تتخيل.

- تقول الأحاجي، يبدو أن السيجارة قد عدلت مزاجك.

أقول فيرد وهو يتابع النور المنبعث من قطيته

- الأحجية الكبرى هي الدنيا.

يقول عبد الله

- هي جنة الكافر، ونار المؤمن.

فيرد عليه بلوم

- تقول هذا ببساطة، لأن النار ربما لم تمس حتى إصبعك يوما، لو رأيت أبناءك والسخام متراكم على أجسادهم المحترقة، تلك الأجساد التي طالما بثت الدفء والأمل في قلبك ما قلت ذلك.

تطفر دمعات على رموشه فتبللها، ضوء القمر الذي يفلت من الاختناق يزحف حتى يمنحه رداء نورانيا، يطفئ السيجارة بين إصبعيه، ويكمل

- منذ ثلاث سنوات كان لدي ثلاثة أبناء، كان البكري في الصف الخامس والأوسط في الصف الرابع أما الصغير فكان في الصف الأول، وفوق هذا كانت امرأتي حاملا، لو قلت لكم أن قدمي كانت فوق الغيوم ما صدقتموني، تخيلت أحدهم يحكم السودان كالأزهري والآخر وزيرا أو ضابطا والثالث لن يكون أقل من طبيب، أما الرابع فكنت أتمناه أنثى، لتشع الحنان وتأخذ العين عن إخوتها الذكور، لكن لا الأنثى ولدت ولا العين عن إخوتها أخذت، أصبحنا ذات يوم ما توقف وميض البرق خلال ليلته فإذا بالقطية محترقة على الأولاد جميعا، متفحمون كل منهم ممسكا بالآخر، يغطيهم السخام وبقايا السقف المحترق، كتبهم محترقة في ركن القطية، أحذيتهم على باب القطية محترقة، ملابسهم محترقة، بقايا طعام عشائهم محترقة، حتى إناء الماء محترق

يصمت فتتدفق الدموع من عينيه، تستعصي الكلمات عليَّ وعبد الله الجالسين في الحد المظلم الذي صنعه ظل الحائط تحت ضوء القمر، يحل صمت بغيض على الجلسة والحوش والسماء بقمرها ونجومها والهواء المسجى كالمخدر في الفضاء، **ما الكلمات التي يمكن أن تواسي رجلا كهذا؟ كيف استطاع هذا الرجل أن يبقى حيا معافى في عقله وبدنه حتى الآن؟ من جاء بي لهنا؟ كنت أحسب أنني سأرى أناسا ينسونني ما رأيته، كل من ألقاه يذكرني بما حدث معي**، أهم بالقيام إلا أن عبد الله يقول

- هي الدنيا ليس لنا إلا الصبر عليها، هو التسليم يختبر الله مدى تحلينا به، ألم تقل علامة الحب التسليم؟

أقول متشجعا بكلمات عبد الله

- لست وحدك من جرب قسوة الفقد ولوعته، منذ شهور مات كل أهلي، وهجرت من بلدي، وها أنا أضرب في الأرض بحثا عن موضع لقدمي لا ينازعني فيه أحد ولا يطردني منه أحد، أنت لديك أرضك وبلدك، لماذا لا تنجب؟ بل لماذا لا تريد زوجك أن تنجب؟ فدوما يمكن أن نبدأ حياتنا من جديد

يقول وهو يشعل سيجارة أخرى ويطفئ نار الثقاب بين إصبعيه

- كثيرا ما دعوت الله أن ينزع حب هذه المرأة من قلبي، فبعد الحادثة قضينا عدة شهور في أم درمان بجوار قبة الإمام، ثم عدنا لهنا، لكنها لم تعد أبدا، تبدلت لامرأة أخرى، تلك المرأة التي كانت تخجل من أن تنظر ملء عينيها لغريب، تلك المرأة التي كانت تطلب الإنجاب

وتحزن لو تأخر حملها، أصبحت امرأة أخرى، بدلها مقتل أبنائها، أصبحت ترغب في الحمل في كل وقت كي تعوض من مات من أبنائها، حتى إنها لم تعد تضاجعني وحدي، كلما جاءها الخاطر ولم تجدني تسلم قدميها للطريق بحثا عن رجل، أي رجل، عجوزا كان أو شابا أو طفلا بلغ لتوه الحلم، قبيحا أو وسيما، وبمرور الوقت أصبح المراهقون ينتظرونها في الطريق لهنا، جماعات وفرادى، وربما تضاجع ثلاثا أو أربعا منهم، وخشيت النساء على أبنائهن فبتن يغدين ويروحن على الطريق حتى يقطعن عليهم حيلهم، ومن غاب لها ابن أو تأخر عن موعده تأتي لتسأل عنه، ولما بات وجودهم على الطريق لهنا فضيحة قل وجودهم، لكنها أوغلت أكثر حتى وصلت أطراف المدينة وأصبح من يراها على الناحية الأخرى من الخور يقذفها بالحجارة ويدميها فتعود، وأنا خلال هذه السنوات في قطعاني بعيدا عنها وعما يحدث طوال النهار، كان الحل أن أقتلها، ولكنها مريضة وليس بيدها شيء، كيف يمرض إنسان فيقتل كدواء له؟! تحملت وصفي بأقذع الصفات من كل من يعرفني، تحملت همسات الناس عندما أمر بهم، كلماتهم البذيئة التي يلقونها من خلفي كالحجارة، وكنت دوما وما زلت أدعو الله أن ينزع حبها من قلبي، فلو فرض وقررت أن أتزوج عليها فلن يزوجني أحد طالما هي على ذمتي، ولو طلقتها فأين أذهب من الله ومن قلبي، كنت أنتظر أن تنجب ولو لمرة واحدة، لم يكن يهمني إن كان هذا الطفل مني أم من غيري، المهم أنني كنت آمل أن يشفيها سماع صراخ مولود لها، لكنها كانت كلما شعرت بالجنين يتحرك في أحشائها، سيطر عليها هاجس أنه سيحترق

مثل الآخرين فلا تدعه ينمو، تجهض نفسها، مرات ومرات لم أعد أحصيها. في كل مرة ينخلع قلبي عليها، ليس خوفا من فراقها فحسب، لكن أيضا حزنا على موتها وهي على هذه الحال.

سألتني لماذا أنا؟ لماذا تفعل كل هذا معي؟ قلت إنك مجرد عابر سبيل وهم مئات يمرون عليّ، قلت هذا بينما كنا نحرث، لا لست مجرد عابر سبيل. بل كلاكما ليس عابر سبيل فحسب، بل أنتم في الطريق إلى الله، ربما تصلون لبيته الحرام، فهناك وعندما يتجلى الله على أرواحكم، ربما كان لأحدكم دعوة مستجابة بعد كل هذا العناء فاجعلوها لهذه المسكينة. سلوه أن يشفيها أو أن ينزع حبها من قلبي، فما بقي بداخلي قدرة على الصبر. فتقريبا قد أصبح قاتلا، فسوف أقتل أول من أراه يضاجع هذه المسكينة.

تعاود الدموع الانسياب من عينيه، يرتجف جسده ويهتز، يطفئ السيجارة بين إصبعيه. يقوم ويهرول بعيدا عنا، نهم للحاق به، إلا أنه يختفي سريعا كالريح. يجري مسرعا عاري الرأس، يغوص بجسده النحيل وسط الوادي الفسيح الملتحف بالعشب الجاف والصمت والوحشة، والمشوش بضوء القمر.

غادر عبد الله مع طه للمدينة. أقف وحدي على حافة الأرض، منذ بدأت في الظهور بوجهها النحاسي انفصلت عن الوادي، لم يعد أحد يطلق وصف الوادي على كل المكان، أصبح هناك الوادي وهنا الأرض. أيام ويبدأ موسم المطر، انتهينا من الحرث ولم العشب، عشر جزر لا تقل عن ثلاثين فدانا جاهزة للبذر بمجرد هطول المطر، لابد أن ننتهي من

الغرس بمجرد مرور أسبوع على الأكثر من هطول المطر، الزراعة المبكرة تحمي من الآفات، رفضت زراعة الذرة والدخن بجوار الحوش، قلت لهم: فليكن الفول بجوارنا هو والكركديه والسمسم، فهم يحتاجون لرعاية أكثر، منذ أيام لا نرى الشمس، السحب تفترش السماء ليل نهار ولا مطر، طه مطمئن قال: إنها لم تخلف موعد هطولها منذ سنين، ستمطر خلال أسبوع على الأكثر.

تظهر عشة قادمة وحيدة من الوادي، على رأسها سلة وبيدها أخرى، عشة مثلها مثل أكثر من مائة امرأة كن بالقرية، تعشن حياة قاسية، تعملن منذ الصباح حتى الغروب، تنظفن المنازل وتعددن الطعام ثم تحلبن الأبقار، وتذهبن للحقول تزرعن وتحرثن وتحصدن، ثم تحملن الحطب والغصون على رؤوسهن وهن عائدات عند الغروب للبيوت، وبالليل تحكين للأطفال حكايات الأجداد حتى يناموا، ثم تفتحن أفخاذهن للرجال حتى يفرغوا شهواتهم، وتكُنَّ آخر من ينام، ومن الصباح الباكر تستيقظن قبل الجميع، وإن كان لابد من أن يجوع أحد فهن الجائعات حتى يشبع الصغار والكبار، ثم يكون أفضل الطعام والأردية للرجال، نتخيل أننا من يدير هذه الحياة، والحقيقة أننا كقطرات المطر نتساقط بين أفخاذهن ثم ننمو ونكبر ونربى على أيديهن، ثم نتبخر لنصبح قطرات تساقط على أفخاذ نساء أخريات.

عشة ليست جميلة بما يكفي، أنف أفطس وعينان سوداوان جاحظتان ببياضهم حمرة، بشرة سوداء لامعة، رأس كبير بشعر أكرد، قامة متينة، صدر بارز وردف متعال، وذراعان طويلان لا يتناسبان من

قامتها القصيرة، إلا أن لديها روح من الجمال والإصرار والدأب يمكنها تجميل كل هذا العالم وإصلاحه.

كان رأيها بعد ساعات من الهروب أن نكمن بالغابة ثم نعود بعد أيام للقرية، قلت لها إن الانتظار سيطول، فقريتنا باتت ساحة لمعركة، سيتناوب السيطرة عليها جيش الحكومة وجيش أوجوكوو، - يا ترى من يسيطر عليها الآن. من منهم حصد الذرة والدخن، أم أن كليهما حطم تحت أحذية جنوده وعجلات عرباته تعب المئات وكلهم ورزقهم، هي من كانت تريد البقاء في كل بقعة مررنا عليها تصلح للحياة بها، ولكن كل بقعة مررنا عليها تحمل في باطنها أو فوقها آلامها، الأرض كل الأرض مغطاة بالألم والوجع والخوف والصراع على طول الطريق لهنا. اقترحت الحج والبقاء بمكة، رفض العم أديلاتو قال: لن نجري وراء من تركنا، اقترحت عليهم أن نذهب للسودان وهناك نقرر أين نذهب ولأي وجهة نولي وجوهنا.

لم نكن طوال الطريق كيرقات على جذع شجرة كما قال عبد الله، بل كنا كما قال أديلانو: كبذور عشب متخبطة في دوامات الريح، لا تعلم متى تنتهي رقصتها الأخيرة، وفي أي أرض تحط لتبدأ رحلة نموها الجديدة، نعم نحن تماما كالعشب بجذوره الهشة، وبذوره التي تحملها أي ريح، بنا يحيا كل جنس ولكن في كل وقت تدوسنا الأقدام، عشة حطت في وادي الراعي وعالمه منذ رأته، نعم منذ رأته وهي تمد جذورها في هذه الأرض. فهذه المرأة لا تهاب شيئا، فرضت سطوتها على المكان، كل المهام ما عدا الحرث أصبحت مسؤوليتها، بثت في المكان روحا جديدة،

لم تدع مهمة إلا وأحسنت أداءها وأبدعت فيها، لم تهب الإبل التي نهابها جميعا، من اليوم الثاني قامت بفصل البكار عن أمهاتهم حتى تنتهي من حلب جزء من ضرع النوق، قصت صوف الإبل والخراف جميعها، وخلال أسبوعين كانت قد غزلت هي وكلتومة كل الصوف ووضعنه في بكرات كبيرة وباعه طه واشترى كمية تكفي لأسابيع من الشاي والسكر والصابون، لا طعام إلا من صنعها، أراحتنا من العصيدة ووفرت الدقيق، توغلت في الوادي وأحضرت سلالا من قرون البامية البرية، أحضرت أيضا حبوب اللوبيا من الوادي، بالتأكيد السلال التي تحملها الآن مليئة بالخير، أصبحنا نأكل أنواعا متعددة من الأصناف، لا ينزح الماء من البئر إلا بحضورها حتى تتأكد أنه لن ينزح منه إلا على قدر الحاجة، لم يعد شاي الصباح والمساء قاصرا على الرجال، أصبح للجميع وباللبن، بعد مناورة ورفض أجبرت طه على شراء خمسا من الدجاج الناضج بينهم ديكا ذا صوت لا يقل قوة عن صوت طه عندما يروق باله ويقف على رأس النساء المتحلقات على جانب ويصيح، خلال أيام كنا نأكل البيض المقلي في زيت السمسم، توعك كبش فذبحته بدون أن تستأذن طه، قالت إنه سينقل عدواه للقطيع، أكلنا اللحم على الطريقة السودانية مقطعا في الملاح، لا أدري من علمها فعل ذلك، ربما امرأة الراعي، قددت باقي اللحم، قالت يمكننا أكل اللحم مرة كل أسبوع فأمامنا شهور من العمل قبل الحصاد، لا تكف عن الحركة منذ الصباح، حتى وهي جالسة لا تكف يداها عن عمل شيء ما، أولت عناية خاصة للطفلين، سمنوا خلال أيام، اختفت عظامهم الناتئة، وجهاهما تملؤهما العافية رغم أنهما يعملان معنا طوال اليوم، تتودد في

كل وقت لزوجة طه التي ما زالت على عادتها تغيب لساعات وتعود إما متعبة أو مدماة الجسد، إلا أن زوجة طه تحرص كل ليلة على أن تحَمم أبكر بيدها، و تجبره على تناول المزيد من الطعام. تحترم عشة كثيرا وتهابها، تعاملها على أنها صاحبة الحوش.

في البداية حاولت كلتومة منافسة عشة. كانت تنتظر حتى تبدأ عشة العمل ثم تحاول إزاحتها لتكمله. فتتركها لتبدأ عملا آخر وتنهيه قبل أن تكون كلتومة قد انتهت، بعد قليل أيقنت أن مواهبها وروحها لا تسعفانها لمنازلتها، استسلمت ونزلت معنا كأحد الرعايا. ساهمة كلتومة طوال الوقت، في البداية كانت تطيل نظراتها لي. تتبعني عيناها أينما ذهبت، تتابعني وأنا آكل وأتكلم وأضحك وأغضب وأعمل وأتألم من ثقل العمل وقسوته، بعد قليل صرفت عينيها عني. أصبحت شاردة الفكر طوال الوقت، أرمقها من آن لآخر في بعض الأحيان أجدني متلهفا عليها، أتمنى أن آخذها من يدها، أعطيها لعشة لتزينها. ثم أدخل بها، ما زالت لا تريد أن تفهم عذري. كيف أدخل بها فتحمل ونحن في أرض لا كوخ لنا بها، كيف أمتلك طفلا ولا أستطيع أن أسكنه تحت سقف يحميه، كم قلت لها إنني أكثر شوقا منها. وإنني متلهف عليها أكثر كثيرا مما تظن، ولكنها كالعادة لا ترضي بغير المضاجعة تعبيرا عن حبي لها.

العم أديلانو لا يكف عن الحديث والمشاكسة رافضا القيام بأي عمل، قال لطه عندما تظاهر بالغضب

- أنا صاحب الثلاثة حمير والأرانب الثلاثة. أؤجر لك الحمير في مقابل أن تطعمني وتطعمهم، إن لم يعجبك الاتفاق سألم الحمير والأرانب وأذهب.

سأل طه مبتسما وملمحا ناحية عبد الله

ـ والحمار الرابع هل ستتركه؟

رد العم أديلانو بعد صمت

ـ هذا قرر أن يكون حمارا لله، فلا حاجة لي به.

يرفض أن ينام معي أنا وعبد الله وطه في القطية، يفضل النوم على عنقريب في الحوش، لا يفارقه الطفلان بعد انتهاء العمل، لا يكفان عن اللعب معه، يجري وراءهم بجسده الطويل النحيل وبفخذيه المنفرجين خلال الحوش، عندما يعثر على أحدهم يدغدغه حتى يتعالى صراخه مختلطا بضحكه، فيأتيه الآخر على حذر آملا أن يمسك به ويدغدغه، إلا أنه لم يستطع كتمان حبه وتعلقه بهمزة، تماما كما لم تستطع زوجة طه أن تكتم حبها وتعلقها بأبكر، كلاهما لا يفكر في شعور الطفل الآخر وغيرته، يدعان عواطفهما تتدفق بتلقائية، يخفف من وقع هذه التفرقة حب كلا الطفلين للآخر، فهما تقريبا لا يفترقان، كل منهما ظل للآخر، فكما لا تفتر ابتسامة همزة العذبة، لا تتوقف عيون أبكر الذكية عن التحاور.

هذا المكان طيب، به الكثير من كل شيء، إلا أن الجنة لو كانت مؤقتة فلن يكون لها طعم، الجنة بلا بيت آمن تملكه مجرد طريق نعبر فيه.

تصل عشة للحوش، تضع السلال عنها، تمسح العرق عن جبينها وشفتها الضخمة، تقول

ـ السعي بيت لكل ساعٍ.

هي تدرك ما يدور بعقلي، وبالتأكيد لا تمل كلتومة من الشكوى لها، لكنها للمرة الأولي تلمح لما يحدث، هي تنوي أن يكون بيننا حوار عما قريب، فقط بجملتها تمهد له، أردت أن أقطع الطريق عليها

- بعد شهور سنكون في الطريق مرة أخرى، ومن الممكن أن يكون معنا بعض النقود، لكنها بالكاد تكفي لإطعامنا حتى نعثر على عمل آخر، هذا إذا وفقنا في الحصول على عمل.

تقترب مني وتنحني لتلم بعض العشب المتناثر

- هنا.

تقول وهي تدق بيدها على الأرض وتكمل

- هنا، أسفل ذراع واحد من تلك التربة قد يكون الغد، عندها لن يفرق إن كان عندك بيت فوق الأرض أم لا.

أشيح بوجهي عن وجهها المحتقن بالدماء

- لن أدخل بها قبل أن أمتلك بيتا، ولو مت قبل هذا فلا مشكلة، يمكنها أن تتزوج بآخر.

تضع العشب مكوما على جانب وتقلب في السلال وهي تقول

- يوما ما كنا نملك بيوتا وأرضا وأبقارا، ثم ها أنت ترى ما نحن فيه، ترى لو امتلكت بيتا وأنجبت أطفالا ثم حدث ما حدث ثانية هل ستقتلهم؟، أم ستتركهم وتهيم على وجهك؟

- لن أبني بيتي إلا في مكان آمن، مكان أضمن أنني لن أقتل أو أهجر منه، ربما يكون مكة، أو المدينة، أو الخرطوم، أو حتى بجوار الأزهر في القاهرة، وحتى يحدث ذلك فلن أتزوج.

- أي عمر سيفنى قبل أن تدخل هذا البيت؟

تسأل وهي تغربل اللوبيا وتفصل القش عن البذور، أجيب

- حتى لو قضيت فيه آخر ساعة من عمري.

- إذًا سيطول انتظار المسكينة.

تقول بيأس وتحمل السلتين وتتوجه لداخل الحوش.

العـــرس

عبد الله ولد فال

الجنينة - غرب دارفور - يوليو ١٩٦٩

في فضاء رصاصي وتحت المطر المنهمر في الجزيرة السابعة نعمل أنا وعثمان منحنيين في خطين متجاورين، بيد كل منا عصا خشبية تنتهي بحربة حديدية، نضرب الأرض بالعصا فتحفر حفرة صغيرة ونمضي.

في فضاء رصاصي وتحت المطر المنهمر في الجزيرة السابعة تعمل عشة وكلتومة منحنيتين خلفنا، بيد كل منهن سلة يتناولن منها حبات الذرة، يضعن في كل حفرة حبتين أو ثلاثا وتمضيا.

في فضاء رصاصي تحت المطر المنهمر وفي الجزيرة السابعة يعمل همزة وأبكر منحنيين خلفهن، يعيدان ردم الحفر ويمضيان.

ولو أن طه وزوجته والعم معنا في الفضاء الرصاصي وتحت المطر المنهمر في الجزيرة السابعة لأمكننا الانتهاء من غرس الجزيرة ولمضينا لنستريح عند صلاة الظهر.

طه وزوجته يتضاجعان في القطية، والعم يحادث الرضيع في القطية الثانية، لا يكفان عن المضاجعة كل صباح، ولا يكف عن الحديث مع

الرضيع، وكلتومة لا تكف عن النظر للحوش كلما استقام ظهرها في نهاية كل خط، وعثمان لا يكف عن طعن الأرض بحربته في حماس حتى سبقنا جميعا، وهمزة لا يكف عن إطلاق ضحكته التي تزرع البهجة في صدورنا.

سوى ضحكة همزة فلا حوار بيننا، حتى الطفلان فتر الحوار بينهما، الحوار بين أجسادنا والأرض، بين أجسادنا المتفتقة بالعرق والسماء المتدفقة بالمطر، بين أنفاس عشة الملتهبة وساقي، فما أكاد أضع ساقي حتى تكون أنفاس عشة الملتهبة حولها وهي تضع البذرة في الحفرة التي حفرتها.

قبل عشرة أيام أخذني طه معه للجنينة، رفض طوال الطريق أن يبلغني سبب ذهابي معه، كان يركب على حماره مبتهجا، يتحدث في كل شيء، عن الزرع والمطر الذي يتوقع هطوله الليلة أو غدا، يتحدث عن السمسم وزهوره البيضاء التي تشبه الثلج في وطن كل ما فيه ينضح بالحرارة، عن حبوبه الصغيرة وطاقته الهائلة، يتحدث عن الذرة والدخن يقول إنهما تراب يجب أن يتغذى بهما تراب أجسادنا، يتحدث عن الكركديه بزهوره الحمراء التي تشبه في لونها عرف الديك، يقول إن لكل نبات لغة، فالسمسم يقول اختزلت طاقة الدنيا لأقدمها لك في حبوب ناعمة الملمس خفيفة الوزن، والكركديه بلونه الأحمر المبهج يقول فلتبتسم وتهدأ، والذرة والدخن كلاهما يقول فلتصمد ولتقوَ ولتحارب هذه الحياة، كان يتحدث مبتسما ومتجاهلا تحيات كل من نقابله في الطريق وكأنه لا يراهم.

وصلنا للمبنى الحجري لنقطة الشرطة، ربطنا الحمارين في شجرة أمامه، تجاوز البوابة وهو يلقي التحية على جنديين واقفين أمام جانبيها، صعد العتبات وولج للداخل، كان الضوء يصارع الظلام في الصالة الفسيحة مرتفعة السقف، على يمين الباب حجرة مغلقة، وفي قبالتها حجرة مفتوحة الباب يجلس في صدرها جندي على كرسي خلف حاجز خشبي، تليها حجرة مفتوحة، طرق الباب ومد رأسه ثم دخل وتبعته، الضابط الذي أعطاني التأشيرة على مكتب خشبي أمامه ثلاثة كراسي خيزران، فوق المكتب العاري عدة أوراق وكوب شاي، تعلو وجهه ابتسامة، مد يده على المكتب وصافحنا بدون أن يقوم، أخرج طه الورقة النقدية فئة العشرة جنيهات التي تأملتها طويلا خلال الطريق بلونها الرصاصي الغامق المرسوم عليها نخيل وقصر وشمس، أعطاه النقود قبل أن يتكلم، سأله الضابط

- كم بعت؟

- خمسة عشر.

قال الضابط وهو يعد النقود

- ألا تخطئ إحداهن وتلد أكثر من حمل واحد؟

- بل أخطأت أربع ولم يحملن هذه المرة.

- كباشك باتت هزيلة، فالكبش نصف القطيع.

- بل هن صرن عجائز.

- بعهن واترك حملانا مكانهن.

- أفعل إن شاء الله.

ـ كيف حال زوجتك؟

ـ بخير.

سأل الضابط وهو ينظر لي

ـ هل اقترب منها أحد؟

ـ من يعيشون معنا أناس طيبون، نرجو أن يستمروا في الإقامة معنا، فلقد أعددنا أرضا واسعة للزراعة.

ـ لا نرى منك شيئا.

ـ سترى كل خير، هل يمكنهم الإقامة معنا لفترة أطول.

ـ لا مشكلة نمد لهم التأشيرة حين تنتهي.

ـ نطمع فيما هو أكثر من ذلك.

ردد الضابط وهو يطيل النظر إلى طه

ـ ما تطلبه كثير.

ـ هؤلاء أصروا أن يهدوك ربع ما تنتج الأرض.

ـ هل زرعتم الكثير من الكركديه والسمسم؟

ـ الكثير من كل شيء فهناك ثلاثون فدانا على الأقل ستزرع.

ـ كم عددهم؟

ـ ثمانية فقط.

ـ هذا العدد كثير.

ـ بينهم طفلان ورضيع.

ـ كثير.

ـ هؤلاء يكفون بالكاد لرعاية ثلاثين فدانا .

ـ هل بينهم ذلك العجوز المشاكس؟

ـ إنه مسكين أصابه الجنون .

ـ هذا الرجل لا يمكن أن يكون مجنونا ، إنه أكثر عقلا منك .

صمت قليلا وكأنه يستحضر صورة العم وأكمل

ـ عندما أرتب الأمور سأمر عليك أو سأرسل لك .

ـ هذا عشمنا فيك .

ـ اجلس لتناول الشاي .

ـ فلنتناوله عندما تشرفني بالحضور .

بمجرد خروجنا من الغرفة قال طه

ـ اللص يريد أن يحضر ليطمئن على غنيمته .

أتقلب أرقا مقلبا عيني في سقف القطية، الليل يطمس الأغيار، تتبقى النفس تجتر آلامها وأوهامها، لكنني منذ أيام وأنا معتل الصحة، ترتفع حرارتي وتئن عضلاتي حتى عظامي ثم تسكن، الليلة أحس أن المرض قد تمكن من جسدي، تنتابني رغبة في البكاء، ويتملكني حنين للأهل، كانت مريم تصاحبني ليل نهار حتى دخلت هذا البلد ثم غادرت، حتى الحلم لم تعد تزورني فيه، آخر ما رأيتها عند خروجي من الحجر، ترى هل هي مريضة، هل ألم بها سوء، أم أن غشاوة طالت قلبي فلم يعد قادرا على رؤيتها، ليلة إثر ليلة أنحت صورتها هي والأهل في داخلي وأنا مغمض العينين حتى لا تضيع ملامحهم مني.

كان يصاحبني قدما بقدم وظلا بظل، مولاي منذ أيام لا يناديني عند صلاة الصبح على عادته، ذكره وترتيله غادرا أذني منذ أيام، يده الباردة لم تعد ترطب كتفي، أتلفت خلفي بحثا عنه فلا أراه، ورد القرآن وقيام الليل حرمت منهم، أهو الإرهاق أم الفتور، أم أن هناك ذنبا أعاقب من أجله.

لم أسرق طوال رحلتي، لم أزن، حتى امرأة طه لم أقربها، كلتومة التي يرجف قلبي كلما التقت أعيننا لم ألمسها، بل إنني طوال تلك المدة لم أحادثها، ما يحدث لا يد لي فيه، منذ رأيت عينيها وأنا دائم التفكير فيها.

أدقق النظر بحثا عن ملامح السقف التي تختفي في الظلام المصنوع بإحكام، كلما أحسست بتقلبات وأنفاس عثمان النائم بجواري أستدير خجلا، لم أعد أطيق النظر في عينيه نهارا، ومجرد النظر ناحيته حتى في الظلام يعريني، لاحظ كالجميع ما يعتريني بمجرد النظر لكلتومة، تجاهل الأمر في البداية، ربما أقنع نفسه أنه مجرد خجل مني، كان يبحث عن صديق ولم يكن مستعدا لخسارتي، إلا أنه بمرور الوقت بدأت نظراته الغاضبة تلفحني كلما تضرج وجهي بالحمرة إذا نظرت كلتومة نحوي، كم دعوت الله مرارا أن يشفيني مما بي، لكن لا مجيب.

لو كان معي مال أتبلغ به لحزمت جرابي ورحلت، الهروب يفيد كثيرا والأيام تنسي، وما أسهل أن أهش هوام الذكرى عن عقلي كلما تذكرت، قد يستحيل مر اللحظة سكرا في بوتقة الذكرى، ولكن المال تحول لبذور كما تتحول رؤيتي لكلتومة لرعدة تزلزلني وتلون وجهي.

انتهينا من الغرس منذ شهرين، تبقى أقل من خمسة شهور لأقلع من متاهة هذا الوادي، ما أشبهه بالمتاهة، أبواب وهمية تفضي لحجرات من التيه والظلمة، وجهتي القادمة للخرطوم، أستخرج جواز سفر سوداني ثم تأشيرة دخول للحجاز وأذهب فورا لسواكن[20] ومنها لجدة، هذا إذا صدق الضابط وأعطانا وثائق سودانية، أما إن لم يصدق فأمامي مهمة شاقة في الخرطوم بحثا عن وثيقة سفر موريتانية.

أتمنى أن نفترق أنا وعثمان من هنا، أريد أن أخرج وحدي للخرطوم، أتمنى ألا نلتقي مرة أخرى في هذه الحياة، بل بالتأكيد لن نلتقي، ففي طريق عودتي سأركب البحر من جدة ثم أمر عبر مصر ثم المغرب ومنها لدياري، أعود لتلك الأشياء الرتيبة التي نملكها ونفعلها بلا أدنى اكتراث حتى إذا غادرناها نكتشف سطوتها وأنها أصبحت جزءا من كياننا، ليالي الذكر مع الأحباب على ضوء القمر، الجلسة بجوار الأم وهي تعد القهوة الساخنة في نهارات الشتاء الباردة، مسامرات وهذر إخوتي، مريم وضحكتها التي تنير وجهها وتدمع عينيها، جسدها الدافئ في الشتاء والبارد في الصيف، تعثر الكلمات على شفاه أطفال إخوتي، ضحكهم الذي يبهج الدنيا حولي كلما دغدغتهم.

ينعشني تذكري لدياري، أقوم لأخرج من القطية، يقول العم بعد أن سعل

- ما زال الوقت مبكرا.

أقول بدون أن ألتفت له

- الجو خانق هنا.

يقول بصوت ضاحك

ـ تتحرق شوقا لله أم للأهل؟ ، فلاشيء هنا يؤرق ، بل لا شيء هنا سوى الموت .

أقول وأنا ألتفت بحثا عن ملامحه

ـ رفعت لك الحُجُب لتعلم ما أفكر فيه؟

يقول ويتنهد

ـ الحُجُب نحن من يصنعها .

ثم يكمل

ـ هل تعلم أني أحسدك؟

أقول بسخرية

ـ على أي شيء تحسدني؟

يقول وهو يعتدل على العنقريب فيئن

ـ لك ديار ستعود لها طالت الرحلة أم قصرت .

أقول وأنا أتوجه للباب

ـ المهم ليس العودة، ولكن بأي وجه أعود، ولمن؟ ولا تحسدني فعما قريب تنتهي الحرب وتعود لديارك، ديار لا قحط بها، ولا رمال تشوي الوجوه.

يقول بحسرة

ـ أي ديار؟ تحسب أن الأرض والبيت ديار، يا بني الديار بساكنيها، ومن تبقى من أهلي معي هنا .

أقول وأنا أفتح الباب وأتوجه للخارج

ـ يبدو أنك عزمت على البقاء.

يقول بصوت مرتفع

ـ هل تعلم ما نحن؟

أتمهل فيكمل

ـ نحن كزهرات النرد، يلقينا الله فنصطدم بقاع الحياة الخشبي عديم الصدى، نتقلب على كل وجوهنا، فنمثل حظا سعيدا لبعض اللاعبين بنا وتعيسا لآخرين، ولكن في كل الأحوال لا نمثل شيئا لأنفسنا سوى قطعة تافهة من عاج أو رخام، لا يأبه بها من صنعها أو أحد خارج اللعبة.

أخرج للحوش فتلفح وجهي نسمة حارة لزجة، العم يحاول رفع صوته بكلمات فيمسكها سعاله.

لا أريد أن أتحدث مع أحد، لا أريد مزيدا من الحُجُب والأستار، كنت تقريبا في طريقي للفناء عن السوى، وها أنا أتردى في ظلمات الحجب والنفس والشهوة، كان الله معي حيثما وليت وجهي، كنت أراه في العشب الجاف انتظارا لرحمته ليولد من جديد، في التلال والجبال والبيد والغابات، وعلى طول الطريق في وجوه البشر المعذبة كنت أراه، وهنا في عيني عشة التي تبرق بالعزم، في بكاء رضيعها انتظارا للثدي المتدفق بالحياة، كان يسكن ضحكة همزة التي تشبه الجرس وشقاوة وحيوية أبكر، حتى المسكينة زوجة طه كان يتجلى عليها في لحظات سكونها

ووقارها، كنت أسمعه ونحن نغرس يقول كن ولا أشك أنه سيكون، كان كل شيء يفضي إليه، ولكن صدق مولاي: **عندما تغشى الظلمات النفس فمن منا يستطيع أن يفرق بين الله والشيطان في داخله**، كنت أظن أن الله يتجلى في عينيها، كنت قريبا من الذوبان فيه، ولكن ها هو الله يقلع والشيطان يتجلى بأبشع صوره، صورة مقيتة لخيانة صديق وزوجة وذات.

أتجول في الأرض أعبر جزيرة الفول السوداني، أقف بجوار حافة البركة الفاصلة بينها وبين جزيرة السمسم، الماء في البركة يعكس السماء بنجومها، أجلس لأتوضأ، ينساب الماء قطرات من بين أصابعي، واهم من يحسب أنه قادر على أن يفني نفسه، فالموت نهر يصب في بحر الأبدية، نفوسنا كهذه القطرات تسقط من عند الله ثم تجري في دروب الأرض وفجاجها، وعندما يشاء يبخرها لتضحى قطرات تسقط في عالم آخر، عود على بدء، والمعذب أولا معذب آخر، **يقول مولاي: من لم يدخل جنة الله في الدنيا لن يدخلها في الآخرة. وجنة الله ذكره، أن تبقى ملتصقا به، لائذا بجواره، وإياك أن تقدم عليه بنفس يسكنها سواه، وإلا ستتلاعب بك الشياطين**، يا مولاي يحاسبنا الله على ما نملك، أما ما بي فلا أملك له دفعا إلا أن يتغمدني الله برحمته.

أنهي وضوئي بصعوبة، بدأت عظامي تئن، أتوجه لشجرة الماهوجني، تلك التي ما زلت أرى زوجة طه ملقاة أسفلها كلما مررت بجوارها، ألتف حول الجذع، أجعله بين يدي، أستجمع ذاتي، أستحضر عظمة ربي، أتوجه للقبلة، أتخيل الكعبة التي طالما حدثني عنها مولاي

حتى حفرت داخلي، أُكَبّر منتويا قيام الليل، تتراقص كلتومة أمامي، عيناها البنية تبرق وابتسامتها تشع شهوانية ورغبة، أخفض عيني للأرض، زوجة طه على الأرض عارية تداعب صدرها بيد وبيدها الأخرى تداعب فرجها مغمضة العينين تتأوه في نشوة، أستعيذ وأغلق عيني، تقفز كلتومة لداخلي، تنزع جلبابها ببطء، تضحى عارية، تقترب مني تهم بوضع يدها فوق رأسي، أشيح بوجهي أصرخ: الله. تبتعد قليلا، أحرك رأسي يمنة ويسرة مرددا: الله الله.. الله الله.. الله الله.. تبتعد أكثر، أتمسك بالذّكر، أتشبث به، تنحني فتقبض على جلبابها، تستر به صدرها، تتراجع حتى تتوارى خلف الجذع، أرى الذّكر يتضوع حولي، أطوح نصفي الأعلى يمينا ويسارا في حركة نصف دائرية، أطوف حول الجذع، كلما لحقت بها تتوارى، ينضم مولاي للحلقة عاري الرأس يتطوح بجانبي، يصفق بيديه في إيقاع رصين، تتجلى مريم، تتقدم مبتسمة في هدوء، تجلس مستندة على الجذع تطوح رأسها مرددة: الله الله.. الله الله.. ذكرُها الرقيق العميق يتضافر مع ذكْري، أحس كليهما نابعا من داخلي، تستحيل الشجرة لمقام، ألمح وأنا أَطوف عثمان ينضم للحلقة يتبعه طه بالسروال عاري الصدر، كلاهما يتطوح في وجد تنضم عشة لمريم الجالسة وكلتومة ممسكة بيد زوجة طه ينضمان لهن، يتسارع إيقاع تصفيق مولاي فتتزايد سرعة ترديد الذّكر، تند آهة من طه تلهب المشاعر، تقف النسوة ويبدأن في الرقص والطواف، يتسارع الإيقاع، أذكر متطوحا في سرعة محاولا ملاحقته، أنخلع من مكاني أمسك بستائر المقام الذي استحال للكعبة، أصرخ في وجد، يتصبب العرق من جسدي، أحس الكلمات تخرج ممتزجة بالدمع، رأسي

يثقل، أعجز عن تحريكه، بيدين مرتجفتين أمسك بالستائر، أمرغ أنفي بها وأتشممها، ألتف بداخلها، أغرق في ظلام ينضح عطرا، يبدأ كل شيء في انسحاب سريع عن ناظري، أقف وحدي على حافة العالم، أهوي للمجهول فاقدا الوعي.

الليلة أيقظني مولاي لصلاة الصبح، الجميع نيام، تحركت للخارج، الهواء الحار والصمت والبعوض يسيطرون على المكان، قطية النساء متدثرة بالظلام صامتة، حتى الإبل في الحوش لا تجتر، العالم حولي في سكون راسخ، هل كان ما حدث رؤيا عين أم رؤيا قلب؟، إن كان رؤيا قلب فما هذا العطر الذي يملأ أنفي وروحي من كسوة الكعبة؟ ما هذا الملمس الذي ما زال وقع أثره الحريري على أناملي؟ على حافة البئر وجدت الدلو مملوءا فتوضأت، شربت ونويت الصيام، إن كان ما حدث حلما فما هذا التراب الذي يملأ أطراف ردائي حتى ظهري؟ هل كانوا معي وحملوني للداخل؟ ربما أكون على وشك الجنون، ما زال رأسي ساخنا، هل أصبت بالملاريا؟ يجب أن أذهب للخرطوم وفورا، لم يعد لي مقام في هذا المكان، بل الأفضل أن أذهب لمريم لتطببني، المسافة ليست بعيدة، سآخذ بعيرا وأسوق غنيمات عوضا عن مالي، في الجنينة أبيع الغنيمات وأتزود وأذهب لجدة، مريم تنتظرني في جدة، لا يمكنني أن أقطع كل هذه المسافة على بعير عاري، أين يخبأ طه عدة الجمال؟ سآخذ حمارا أيضا، ذلك الحمار الطيب الذي حرث معي كل هذه الأرض قادر على أن يوصلني للكعبة، يمكنني الرحيل به حالا، لمَ لا يحب الله صوت الحمير؟ جرابي.. يجب أن أحضر جرابي، لم يعد في الجراب شيء،

فالجلباب الآخر ترتديه عشة، بل كانت كلتومة من ترتديه، أخذته من عثمان عنوة، تركته عاريا يواري سوءته وسط الحوش، ما هذا الصراخ الذي يملأ أذني؟ هل ماتت أمي؟ ماتت ليلة تزوجها مولاي، تحول الفرح لمأتم، قطعت كل تلك المسافة جاريا لأهرب من إخوتي المتشحين بالسواد، بل كانوا يحملون الفؤوس ليقتلوني، وحدها مريم تمنعهم من القدوم، كانت تحمل طفلا فوق كتفها، منعهم الضابط من دخول هذا البلد، حتى مريم منعها، بل أخذها كجارية، أظهر لها الضابط ذكَرَه، كانت تبكي بعين وتضحك بالأخرى، الجندي البدين يمسك بصدرها خلسة من خلف ظهر الضابط، أتقيأ فينهرني الجندي النحيل، يقذفونني بالحجارة، وقع الحجارة على جسدي يؤلمني، يدغدغ عظامي، حلقي جاف، أطلب منهم شربة ماء، يتبولون جميعا في فمي، تقوم أمي من لحدها، تلطمني، تهزني بعنف فيرتجف كل جسدي، يظهر إخوتي والفؤوس في أيديهم، كيف عرفوا مكاني؟ عثمان بالتأكيد من أبلغهم، لن يحمني منهم سوى عشة، أجري لقطية النساء، أدفع الباب في عنف، أقف وسط النساء المذعورات، أتوارى مرتجفا خلف عشة، تستر كلتومة صدرها، زوجة طه تمسك بعصا وتتجه ناحيتي، أشيح عنها، أتابع إخوتي يسلون الباب ويتقدمون ببطء، يندفع طه للغرفة ممسكا بسكينه، يتبعه عثمان، يمسك طه العصا من يد زوجته، يتقدم عثمان نحوي ليقتلني، أمسك بقلمي عشة في ذعر وأبكي، يختفي إخوتي وسط ضباب كثيف يهبط على الحجرة، يلف الضباب كلتومة وطه وزوجته، يتقدم الضباب فيلف عثمان، حتى يده الممسكة بذراعي تختفي، يختفي ذراعي، يتلاشى جسدي

قطعة وراء أخرى، تتلاشى عيناي، أبقى وحدي مع ذاتي التي ترحل بعيدا في الضباب، أحاول المناداة عليها فيحتبس صوتي ويتلاشى.

منذ أسبوع عدت لممارسة العمل معهم، بعد أن مر خمسة عشر يوم حتى استطعت أن أقف على قدمي. كنت خلال تلك المدة متأرجحا بين الوعي واللاوعي، تتخبط حرارة جسدي بين الارتفاع والانخفاض، ومعها أهذي أو يتملكني الذعر. كان يجوب بوعيي أشخاص وأماكن سقطت من ذاكرتي منذ زمن، وآخرون لم أرهم أبدا. كنت أحادثهم وأضحك معهم وأبكي. اجمين إن كان في المرض جمال أن أمي والكعبة كانتا حاضرتين بشكل شبه دائم. ولكن ها هي المحنة قد مرت، واحتجت بعدها لأسبوع آخر حتى خفت آلام البطن وانتفاخها وآلام الظهر وتقلصاته. كنت أتناول يوميا خمس وجبات من الشيح والثوم المسلوقين في لبن الإبل. تعدهم زوجة طه إلى جانب عدة أباريق من العدريب المحلى بالعسل. ولكمادات من مياه البئر الباردة واصل العم السهر عليَّ ووضعها تحت إبطَي حتى تخلصت من الملاريا، ذهب طه للجنينة فأحضر عسلا وشيحا ولم يجد حبوب الكينين، وها أنا أشم رائحة الحياة مرة أخرى. وبين الحين والآخر أنظر لجسدي وكأني عثرت عليه بعد ضياع.

نحن الضحى ومنذ الصباح يغمرنا جميعا شعور بالتفاؤل، فالزرع العفي بعد مرور شهرين على غرسه ينمو بقوة. تخللت لونه الأخضر زهور بيضاء في جزيرة السمسم وأخرى صفراء في جزيرة الفول السوداني. وكيزان على رؤوس عيدان الذرة الرفيعة بدأت أفرعها في

الانسلال تمهيدا لامتلائها بالحب، أما الدخن فشرع سنابله التي بدأت تحبل بالحبوب، وأيضا العم معنا وسط الزرع، يضفي الكثير من البهجة علينا، هو لا يفعل شيئا سوى مداعبة همزة والتحدث معه والسخرية مني ومن الآخرين، يقول

ـ إن الله كان يفكر جديا في استعادة حماره.

ـ يتوجب عليك الذهاب كل ليلة لتعبد شجرة العدريب فهي من أنقذتك من الملاريا لا شجرة الماهوجني.

ـ لو كانت أمك بهذا الجمال الذي كنت تهذي به فزوجنيها وأعدك ألا تندم.

يضحك الجميع، تعلو ضحكة همزة العذبة التي تنتهي بشهقة تفجر الضحكات من جديد، حتى السماء كانت حنونة فأحضرت رداء من الغيم تظللنا به من الشمس، وبرزت زهور الكركديه الحمراء المبهجة من حولنا وكأنها تطل علينا، بينما زهور السمسم البيضاء الثلجية تتراقص بوقار في الجزيرة المجاورة، يأتي طه على صوت الضحكات تتبعه زوجته، تحمل على رأسها صينية نحاسية يعلوها إبريق وأكواب زجاجية، على ذراعها رضيع عشة، يتطلع الرضيع نحونا، يشب برأسه مبتسما لرؤية عشة، نتحلق أسفل شجرة العدريب الظليلة، القليل من زهورها الصفراء بخطوطها الحمراء يفترش الأرض أسفل جذعها البني الخشن المشقق، يتجمع الرجال على جانب من الجذع والنساء في نهاية الظل على الجانب الآخر، يقوم أبكر فيحضر الصينية عليها أكواب الشاي الممتلئة، يتناول طه كوبا من الشاي ثم يعيده للصينية ويقف كمن تذكر، يتقدم

ويقف على رأس النساء يرفع رأسه واضعا يده على أذنه اليسرى ثم يمط رقبته فتبرز حنجرته ويصيح، ما يلبث أن يبترها ويدقق النظر للأفق ويقول

- لدينا ضيف.

يقوم الجميع ينظرون للأفق، ركب من بعيرين اجتاز الطريق بجوار التل الأحمر، يسير في سكينة وسط الوادي على أول المدق الموصل للحوش

- الضابط ومعه رفيق.

يكمل طه، يجلس وعلى ملامحه ابتسامة ماكرة، يتناول كوبا من الشاي الموضوع على الصينية، يرتشف بتلذذ وبصوت مرتفع، يقول لي العم ضاحكا وهو يدلك ركبته بيده

- عله جاء يعودك.

يصمت مبتسما في حزن، فيكمل عثمان

- بل جاء ليعطنا أوراقا ويسرق كدنا.

ينظر لي طه وهو يتلذذ بطعم الشاي متجاهلا عثمان

- ألا تريد مواصلة طريقك؟

أقول وكأنني أحدث نفسي

- أي خزي يجللني عندما ألقى الله وفي جيبي وريقات دفعت لها كد هؤلاء الأطفال والنسوة ثمنا؟

تلتفت عشة نحوي بحنو وتقول وهي تمسح رأس الرضيع الذي يرضع بنهم

ـ لا عليك إنما هو كدك ومالك .

تنظر كلتومة للزرع

ـ لولا مالك ما كان هناك زرع ، ولن تعطيه من نصيب أحد ، فلا أحد هنا يعمل من أجل الآخر ، الكل يعمل من أجل ذاته .

يرد عثمان بغضب

ـ بل كدنا جميعا ، هل كتب علينا أن نسرق في كل مكان؟

يرمقه طه

ـ يمكنني أن أصرف الرجل بالحسنى ، ولكن لا غنى لكم عما سيعطيكم إياه ، وطريقكم طويل وفي كل مكان ستجدون مثله ، بل قد يكونون أكثر طمعا منه .

يصفق العم ساخرا

ـ أينما تولوا فثم وجه الله .

يبتهل عثمان رافعا يديه للسماء

ـ الله يخلصنا منه ومن كل من على شاكلته .

يواصل العم سخريته

- إذًا ستفرغ الدنيا من كل اللاعبين والمتفرجين ، ولن يبق سواه ليصنع جيلا جديدا من أحجار النرد .

أقوم لأتجه للحوش الذي وصله الركب

- عل الله يدخر لنا قبضة من رحمة وفرج .

الضوء المنسكب من باب القطية ونافذتها كاف تماما ليعرى كل شيء ، على عنقريب العم يجلس الضابط بجبينه البارز فوق عينين كهفيتين

ضيقتين حمراوين، خداه السمينان اللامعان يحتضنان شاربه الخفيف الذي يعلو شفة متدلية تطبق على جزء يسير من شفته السفلى المتضخمة، خرتيتان نحاسيان فوق كتفيه المرتفعين، وبدلته الكاكي بأزرارها النحاسية اللامعة التي لا تحجب كرشه الضخم المنثني، ورجليه النحيلتين التي تنتهي بقدمين محشورتين في حذائه الأسود الضخم المترب، ورفيقه الذي يجلس على عنقريب طه بنظارتيه السميكتين كالحتي الإطار، وشعره الأسود الكثيف، وجبينه المعروق الضيق وخديه الخاسفين وأنفه الأفطس الذي يعلو شاربا كثيفا أسود، وبدلته الرمادية التي تتهدل على جسده النحيل، وعلى ركبتيه دفتره الأزرق المحشو بأوراق والذي ينقر فوقه بسبابته الطويلة الدقيقة، على الحصير نجلس جميعا ما عدا طه الواقف بجوار الباب بيده أوراق تأشيراتنا، الصمت يخيم على القطية، يقلب الضابط ورفيقه عيونهم فينا، ثم تعود لتستقر على همزة وأبكر، تحاول عشة أن تمسك برضيعها الذي يتلوى لتنزله ليمارس هوايته في الحبو، عينا الضابط تتابع الرضيع في ضيق، تعجز عشة عن إيقاف محاولاته فتحمله على كتفها فينشغل بمداعبة منديلها بيديه الرقيقتين، ترتد عين الضابط للعم الجالس القرفصاء ضاما رجليه بذراعيه يقلب عينيه بين الضابط ورفيقه، يهز الضابط رأسه الضخم ويقول للعم

- تريد أن تصبح سودانيا يا رجل؟

يرد العم وهو على جلسته

- قلت لك من قبل أريد أن أسجن.

يتبسم الضابط وينظر لرفيقه نظرة ذات معنى ويقول

- هل تحسب السجن ملجأ؟

يحك العم ذقنه البيضاء بذراعه

- ولم لا؟ هل يجب أن أرتكب جرما حتى أدخله؟

يغالب الضابط ضحكته

- ولماذا لم تدخله ببلدك؟

يرد العم

- لم أكن بحاجة لدخوله، وبلدي لم يكن بها سجن، فقط القتل أو التشرد.

يضحك الضابط فتبدو أسنانه الصفراء، وتئز أزراره النحاسية لحركة كرشه

- أي داهية ألقت بك علينا؟

ينظر رفيق الضابط للعم بتعجب

- هل تعرف الله يا رجل؟

يجيب العم بعد صمت لم ينزل عينه خلاله عن الرجل

- كما تعرف جسدك.

يقول الرجل بتعجب

- كيف؟

- تحيى به وأنت ناسيه، لا تتذكره إلا إذا آلمك.

يصمت الرجل مشدوها، يضحك الضابط ثانية ويقول لطه الواقف مبتسما بالباب

- ناولني الأوراق يا طه وفك أسرنا، هذا الرجل يمكنه مجادلة إبليس نفسه

يتقدم طه ويناول الضابط الأوراق ويعود حيثما كان. يناول الضابط الأوراق لرفيقه، يأخذها ويخرج بصحبة دفتره وطه متلمسا الشمس. يجلس على حصير مفروش بجوار جدار القطية. بعد قليل يعود طه وبيده صينية عليها إبريق وكوب زجاجي، بمجرد أن يدخل يقول الضابط

- فلنشرب الشاي وسط الزرع.

يقوم بجسده الضخم ويتحرك للباب فيسد الضوء ريثما يخرج يتبعه طه بالصينية.

بمجرد خروج الضابط تدخل زوجة طه. تجلس بين كلتومة وعشة. تتناول الرضيع عن كتف عشة وتنزله على الحصير. يجلس العم على العنقريب في موضع الضابط، يمد رجليه ويرفع كتفيه وينفخ بطنه محاولا تقليد جلسة الضابط، يرتد بظهره للخلف ويقلب عينيه فينا وهو ينفخ أوداجه، يقول

- أنا ربكم الأعلى، من يريد منكم أن يصبح سودانيا ؟

يضحك همزة ويشهق فيضحكنا، يواصل العم وهو يشير لي بدون أن يضحك

- أنت أيها العبد تريد أن تصبح سودانيا لتحج؟ فلتطف حولي ولك أجر حجة.

يصدمني قوله، أتلفت لعثمان المأخوذ مستنجدا، لكنْ العم يكمل وهو يشير لكلتومة

- أنت أيتها الأمة ماذا تريدين؟ تريدين زوجا كاملا غير منقوص، أليس كذلك؟

يتضرج وجه كلتومة بالحمرة، فيكمل وهو يشير لعثمان

- أهبك عبدي هذا الذي وهب حياته لبناء كوخ، على أن يأجرني ثماني حجج، فإن لم يفعل، أهبك هذا الذي وهب حياته للطواف حول كوخ وله أجر الثماني حجج.

يقول وهو يشير ناحيتي، يرتجف قلبي ويقشعر بدني. هل يدري الرجل ما بي؟ لا يدع لي فرصة لأستكمل تفكيري، إذ يقول وهو يشير لعشة

- أيتها الأمة، يا من تشبهين كثيرا تلك الأشجار التي تكدح لتوفر لعبادي الظل والدفء، ماذا تريدين؟ فقط الحياة، إذًا لاشيء.

ثم يقول لزوجة طه

- أيتها القديسة الطاهرة، يا من تحملت الرجم من المدنسين. يا من لو وزعت طهارتك على هذا العالم لغسلته من عاره. ألك حاجة؟ تريدين صبيا؟ أهبك هذا الغلام اليافع.

يقول وهو يشير لأبكر، ويكمل وهو يشير لهمزة

- أما هذا الملاك الطاهر فقد اصطفيته لنفسي. سأضع فيه رسالتي.

ثم يقف على العنقريب ويزعق

- كلكم عبيدي وأنا عبد لكم، فلتنزل لعنتي على هذا المنفوخ الذي يتجول في كدكم، أو سأقتله بيدي، هو وشياطينه.

يرتد رفيق الضابط الذي كان يطل برأسه من فوق عتبة الباب وهو يضحك بسخرية، يقف طه على العتبة وهو مصفر الوجه. يواري قلقه بابتسامة زائفة، يستدير لرفيق الضابط

- الضابط يريدك في الحقل.

ينتظر ريثما يتأكد من ابتعاد الرجل ويدخل. كان العم قد جلس متربعا على العنقريب، يجلس طه بجواره ويتحدث متصنعا الهدوء

- الضابط سيعطيكم جميعا الأوراق الآن.

أسأله بتوجس

- وماذا يريد غير ما اتفقتم عليه؟

ينظر لزوجته

- يقول إنه بحاجة لأحد الغلامين.

- يريده ليؤدي له عملا؟

يستفهم عثمان فيرد طه وهو يقلب عينيه بين الغلامين اللذين أصابهما الذعر

- بل يريده معه على الدوام.

ويكمل مردفا

- لقد طمأنني أن الغلام سيعيش حياة كريمة، وأنه سيطعمه من طعامه وسيكسوه، زوجته مريضة ولديهم طفل صغير، ويريد من يعينها على أعمال البيت وقضاء لوازمها، يقول إنه سيريحه من العمل بالشمس، وعندما يكبر سيلحقه مع أخ له كتابع في الجيش.

تهب زوجة طه واقفة، تقتلع أبكر من مكانه، تأخذه محمولا تحت إبطها فزعا وتخرج مهرولة وهي تردد

- لن يأخذك أحد، وهبك الله لي، لن يأخذك أحد.

يقول عثمان بتحد

- وإذا رفضنا؟

يقوم طه وينظر من الباب ليتأكد من عدم وجود أحد، ثم يقول وهو يجلس على العتبة

- لا أوراق ولا تأشيرات.

تسأل عشة

- ولا ربع الزرع؟

- ولا ربع الزرع، بل لا زرع، فلن يتركنا الرجل لحالنا، ولن يترككم تقيمون يوما واحدا هنا.

- وهل خلصت الدنيا؟ الكثيرون يمرون عليه، فلماذا لا يبحث عن غيره؟

أسأل فيجيب وهو يتلفت خارج الباب

- اللعين يريد غلاما مقطوعا لا يسأل عنه أحد، ولا يطالبه بأجره أحد.

يصرخ عثمان

- تقصد أنه يريد عبدا لا خادما.

ينفض يديه

- قلت لكم ما يريده، والأمر لكم.

أتلفت للعم الذي بدأت دموع تتجمع في عينيه، وهمزة المتعلق بصره به، وعثمان الذي يكز على أنيابه، وكلتومة الباكية في صمت، وعشة التي جمدت ملامحها، وأقول

- أراكم سلمتم بالأمر.

لا يرد أحد، فيسأل همزة بصوت تخنقه الدموع

- ألا يمكنه أن يأخذ كلينا يا عم؟

تشهق كلثومة. يضع العم رأسه بين فخذيه

- إنه يريد أحدكما فقط.

يسأل همزة وهو يبكي

- هل سأكون بعيدا عن هنا. أم قريب فيمكنني المجيء لرؤية أبكر ورؤيتكم؟

تدخل زوجة طه بعد أن تدفعه بقدمها عن العتبة. تجلس بجوار همزة. تحتضنه وهي تبكي. يعتذر طه

- بل سأحضر أنا أبكر لرؤيتك. يمكننا جميعا الحضور لرؤيتك.

يقول عثمان بعزم

- بل سنحضر يوما ما لنأخذك.

يقف طه

- إنهم قادمون.

يتمدد العم على العنقريب ويعطي ظهره لنا. يدخل الضابط وبيده أوراق. يتلفت ناحية العم النائم. ويردد بشفقة

- نوم الظالم عبادة.

يرد العم وهو على حاله

- وموته رحمة.

لا يجرؤ الضابط على الجلوس. يلمع وهو يرمقنا العيون تقدح كرها، يناول طه الأوراق بعد أن يحتفظ بواحدة. يقول العم بدون أن يعتدل

ـ أريد ورقة الغلام، فقد أخذت ثمنها.

يبدو صوت العم القوي وكأنه أمر، يسلم الضابط الورقة لطه الذي يتقدم ويلقي بالأوراق على الحصير، يضع يده على ظهر همزة الذي يقوم واقفا من بين يدي زوجة طه الممسكة به، ينظر تجاه ظهر العم، يتقدم خطوات وينحني على العم ويقبل كتفه، يتحرك تجاه الباب ويتجاوزه باكيا، يتلفت وهو خارج الباب ويقول لزوجة طه

ـ أريد رؤية أبكر.

تدفع الضابط الذي يسد الطريق بيدها، تخرج مهرولة، نخرج جميعا في أثرها ونترك العم راقدا، يركب الضابط على بعيره، يردف همزة خلفه، يأتي أبكر مسرعا، يقف على بعد خطوات من همزة والدموع تلمع في عينيه، ينظر همزة له من فوق البعير الرابض وهو يبكي ويمسح دموعه بيديه، لا يجرؤ أبكر الذي تنساب الدموع على خديه على الاقتراب، يتسمر في الأرض والبعيران يقومان ويتحركان، يتحرك بخطوات قصيرة خلف البعير الذي يطل همزة من فوقه، تزداد خطوات البعير اتساعا وأبكر يتبعه حتى يخرجوا من الحوش وهو خلفهم، يتبعهم عثمان وهم يسيرون على المدق وسط الوادي وأبكر كأنه مربوط بعيني همزة المستدير ناحيته، تغيب ملامحهم وسط الوادي، يخرج العم من القطية وهو يمسح الدموع عن عينيه، يقف بجوارنا ويدقق النظر ناحية الركب، يبدأ في النشيج، يتحرك ناحية الركب جاريا ثم يتوقف وهو يرتجف وينظر للسماء، يتلفت على الأرض، ينحني ملتقطا عدة أحجار وهو يبكي غير مبال بالنساء الباكيات اللائي يحاولن الإمساك به، يدفعهن

وينطلق يلقي بالأحجار تجاه السماء وهو يتمتم، يندفع يركل الحوائط ويضرب بيديه على الأرض، يتوقف ويجلس على الأرض منهارا، والنساء متحلقات حوله يبكين.

عثمان إدريس دار

الجنينة غرب دارفور- أواخر أغسطس١٩٦٩

- تبقى شهر ونحصد الذرة والدخن.

تقول عشة المنحنية تخلع العشب محدثة كلتومة التي تلم العشب بجوارها، لا ترد عليها، تحمل حزمة من العشب وتغادر لتلقيها في البركة التي عادت للامتلاء بالماء عقب يومين مطيرين، السماء لا تبخل بعطائها فهي تمطر وقت يحتاج الزرع للمطر لكن لم يعد هناك شيء مبهج في هذا المكان، غادر همزة بضحكته التي كانت تطربنا، غادر وترك الهم جاثما فوق كل شيء، وكأن ما حدث كشف حقيقة كادت تدفن في هذا الوادي المعزول، حقيقة أننا لا نملك من أمرنا شيئا، كلنا معرض لأن يفقد ذاته أو الآخرين في أي وقت، كنبتة عشب قد تدوسها قدم أو يقضمها حيوان أو تذبل في انتظار مطر لن تجود به سماء، وأيضا شعورنا بالذنب كجدر عزلت كلا منا عن الآخر، أصبح كلنا يرى الآخر وكأنه يراه من خلال ضباب كثيف، لا يحس أحد منا بالآخر ولا يأبه له، العم أديلانو الذي جمدت ملامحه على غضب مكتوم معتكف بالقطية طالما كنا خارجها، حتى إذا ولجنا للنوم بالقيلولة أو بالليل يخرج مغادرا حتى لا

يرى أحدا منا، أبكر صامت ذابل يتحرك كمن فقد ظله، تعاوده نوبات بكاء ويطيل النظر تجاه الطريق، حتى صياح طه الذي خفت وتيرته كثيرا لم يعد يضحكنا، عبد الله أضحى منعزلا لا يتحدث إلا نادرا، لا يكف لسانه عن الذكر، ولا يتوقف عن قيام أكثر من نصف الليل، إلا أن وجهه يفتقد هالة الرضا التي كانت تشع منه، لولا وجهه الذي يتضرج بالحمرة لرؤية كلتومة لقلت إنه تبدل تماما، بات الجميع يشعرون أننا في مكان نمقته، الكل يريد المغادرة، يمنعنا فقط ذلك الزرع الذي استودعناه عرقنا، تقيدنا أحلامنا في الخروج حاملين ما يعيننا على الوصول لمحطة أخرى، محطة قد تكون أكثر قبحا لكن يجملها أنها لم تطل بوجهها بعد.

- أبكر.. أبكر.

ينادي طه القادم من ناحية الحوش مرتديا جلبابه الأبيض وعمامته الضخمة، يقف أبكر وينظر تجاهه بدون أن ينطق، يصل طه لجواره والسعادة تعلو وجهه، يعطي أبكر رداء جديدا كان بيده، يقول

- اذهب للحوش حتى تستحم، سنذهب لزيارة همزة.

يجري أبكر تجاه الحوش يحمل ثوبه الجديد تحت إبطه متحاشيا اتساخه من يده، يكمل طه وهو ينظر لي أنا وعبد الله

- العم أديلانو قادم معي، من منكما سيأتي ومن سيبقى ليحرس الحوش؟

يقول عبد الله

- لتذهبوا جميعا.

تقول كلتومة المختفية وسط الزرع

ـ لا أتحمل رؤيته كالأسير، لكن لا تنسوا أن تقبلوه نيابة عني.

لماذا بقيَت في الوادي؟ هي تعلم أنه لا أحد غيره معها، هل قررَت أن تبقى لشَيء في نفسها تريد أن تفعله؟ هل تحولت نظراته الولهة المسروقة لها إلى شيء أكبر؟ هل كان مصادفة أن يقرر كلاهما البقاء وحيدين في كل هذا الوادي؟ لا يخفى ما بقلبه على أحد، حتى عشة تنظر لي نظرة لوم كلما لاحظت ما ينتابه إذا ما تحدث مع كلتومة أو حتى نظر لها، العم أديلانو لم يكن يخرف عندما قال إنه سيهبها له، الرجل أكثر قدرة على رؤية الخاطر من رؤية الواقع، تحول لولي منذ توقف عن الذكر والصلاة، هل بالغت في إهمالي لها والقسوة عليها؟ لكنها تحبني نظراتها لي، حدبها عليّ، تعلقها بي، وعبد الله لا يستطيع الخيانة، الخيانة لها أناسها، جبناء ونزعت من قلوبهم الرحمة، والرجل يبكي ليلا بين يدي الله، لا.. لا يمكن أن يحدث ما بفكري، إنها مجرد وساوس، كيف استطعت أن أغادرهم وحدهم؟ هل جننت؟ لابد أن أعود فورا، أتوقف عن المسير، أستدير للخلف، يقول العم أديلانو

- لا يوجد بالوادي ذئاب.

أتلفت لهم وكأنني فوجئت بوجودهم

- أخشى عليها.

أقول، فيشدني طه للأمام، ويقول

- سنعود قبل حلول الظلام.

تقول عشة وهي تضحك

- يبدو أنه سيكون لدينا عرس عما قريب.

كنا على أطراف الجنينة، قطاطي المدينة ترقد في حضن الخور الذي يلفها في نصف دائرة والذي تحول لنهر مصطخب بالمياه الحمراء المندفعة في قوة تجاه الجنوب، حيثما تنظر لا تقع عيناك إلا على سهول خضراء لا نهائية، القريب منها من المدينة مقسم ومزروع بمحاصيل شتى، والذي يليه يفترشه العشب الأخضر بزهوره الرائعة، وفي كل تنتشر أشجار خضراء وأبقار وإبل وماعز، والكثير من البشر نساء ورجال وأطفال يجيئون ويذهبون وسط الحقول، يشير طه لعدة بيوت حجرية تقع على الطرف الغربي للمدينة في نهاية قوس الخور، ويقول

- هنا يسكن الضابط.

لم يكن يلزمنا سوى دقائق لنصل للبيت عبر جسر النهر، إلا أن زوجة طه أصرت أن تشتري حلوى لهمزة، أمشي معهم على مضض، نقطع الطريق الرئيس الذي يخترق المدينة وينتهي عند البيوت الحجرية، على جانبي الطريق أحواش متلاصقة بداخلها قطاطي طينية متناثرة بلا نظام، الطريق وكأنه سوق، تفترش الكثير من نساء الفلاتة عاريات الصدور جانبي الطريق الواسع وأمامهن بضائع تنادين عليها، تختلط مع أصواتهن المرتفعة أصوات رجال ونساء يساومون ويقلبون في البضائع، توقف طه أمام محلين متقابلين أحدهما ضيق فارغ عدا أورمة خشبية عليها سكين وساطور، وحبل سميك يتدلى من السقف ينتهي بخطاف معلق به نصف خروف يبدو أنه مذبوح للتو، والآخر حجرة أمامية في منزل طيني، بابه الخشبي الضخم مفتوح ضلفتاه على جانبي الجدار الطيني،

على المصطبة خارج المحل يجلس ثلاثة رجال يرتدون العمائم والأردية البيضاء، يقوم رجل عجوز طويل من بينهم بمجرد رؤيتنا، يتقدم حتى واجهة المحل ويصافح طه بحرارة، يضرب على كتف طه بيده ويجره تجاه المحل، يعدل عمامته البيضاء يشمر ساعده وينزل العتبات، يقف وراء البنك الخشبي الذي تحلقنا جميعا أمامه يتقدمنا طه، المحل يكاد يكون خاويا، على رفوفه الخشبية بعض قطع الصابون وصندوق من الشاي وعلى رف يعلو الأرض بقليل يوجد عدة أثواب من القماش الأبيض والملون، فوق رف صغير توجد مجموعة من الطواقي والمناديل، وفي ركن المحل أسفل شباكه الداخلي يوجد أجولة من الخيش وحبال.

يقول البقال وعينه اليمنى ترتعش بحركة لا إرادية دائمة

- هل علمت بما حدث؟

يرد طه بسخرية

- ماذا حدث يا خلف الله؟ هل احترقت الخرطوم؟

يبدو على ملامحه الغضب لسخرية طه

- بل مات الأزهري.

يسأل طه بفزع

- في سجنه؟

قبل أن يجيب يندفع رجل من الجالسين على المصطبة، يقف قبالة طه، يقول بغضب

- نعم في سجنه، قتله النميري.

يعتدل الثالث البدين ويقول دون أن يتحرك عن مكانه

- لعنة الله على الظالمين . .

يقول خلف الله

- البنادق في أيديهم كالخمر تسكر رؤوسهم . لا يرون غيرها .

يصفق الجالس

- يريدون أن يسوقونا كالبقر .

يضع الواقف يده على كتف طه . ينظر بعينين إحداهما حول ناحيتنا ، يقول

- المصيبة ليست في العسكر وحدهم ، بل تحالفوا مع الشيوعيين الملاحدة .

يهمس خلف الله لطه

- الإمام في الجزيرة أبا قبل الانقلاب بيومين . أمر الأنصار بالاستعداد . فكن على أهبتك ، فلا ندري على من سيكون الدور ليذبح

يرد طه

- ليفعل الله ما يشاء .

يقول الواقف قبالة طه وهو يبتسم

- ألا تريد لحما؟ لدي نصف خروف ، سمعنا أن لديك الكثير من الخير .

يلتفت له طه مبتسما

- لدي الكثير منه!

يغادر الرجل للمصطبة ، يقول خلف الله لطه

- مر عليّ ثانية لأعطيك أجولة للمحصول ، ومعها عربون الثمن .

يهز طه رأسه بالموافقة، تتقدم زوجة طه، تطلب حلوى طحينية بقرشين تناولها لخلف الله الذي ينظر لها طويلا، يقول وهو يتناول سكينا ليقطع من قالب الحلوى

ـ منذ زمن لم نرك؟

تضع ذراعها على كتف أبكر وتضمه لجسدها ولا ترد، ينظر لها ثانية وهو يناولها ورقة غلف بها الحلوى ويكمل

ـ حمدا لله أنك بخير.

تتناول الورقة وتفتحها، تأخذ نصف ما فيها وتضعه في يد أبكر، تضع الفتات العالق في يدها بفمه ونغادر المحل، نمر بمحل آخر عليه علم أبيض مربوط بسارية، تفوح منه رائحة كحول، يبدو أنه يبيع الخمور، يمسك طه بيد العم أديلانو ويقول وهو يضحك ويومئ للمحل

ـ من هنا.

يتبسم العم أديلانو ويدقق النظر في داخل المحل المعتم

بعد دقائق كنا أمام البيوت الحجرية الخمسة المتجاورة، أمام البيت الثاني نتوقف، يدخل طه من باب الحوش، يقف بجوار قطية صغيرة على المدخل وينادي

ـ السلام عليكم.

ثم يتقدم ويصعد العتبات الحجرية ويقرع اليد الحديدية المعلقة على الباب الخشبي البني المزخرف، يفتح الباب فتحة صغيرة ينسل منها همزة وهو يضيق عينيه تجنبا للشمس، يحتضنه طه وينزل به تجاهنا، يبدو عليه القلق

والحزن إلا أنه بصحة جيدة، عينا أبكر متعلقة بهمزة، يندفع أبكر تجاه همزة الذي يبدو أنه لم يكن يراه ويعانقه، يتنبه همزة فيحضن أبكر بقوة ويبكي، ندخل للحوش ونعانقه جميعا، نجلس بجوار قطية الصغيرة، يقول طه لهمزة المرتبك والذي لا يكاد ينظر لنا من فرط تعلق عينيه بالباب الخشبي

- لا تقلق، الضابط يعلم أننا سنزورك.

- لونك شاحب، هل تقوم بالكثير من العمل؟

تسأل زوجة طه وهي تضع الحلوى في حجره وتتحسس كتفيه

- لا، لا أفعل أكثر من تنظيف البيت، وتحميم الصغير، وشراء الأغراض، وغسل الآنية، وإعداد إفطار سيدي وتلميع حذائه وأزرار بدلته.

يقول العم أديلانو وهو يضرب فخذه بيده

- لم يتبق إلا أن تضاجع له زوجته.

يسأله أبكر

- هل يضربك أحد؟

- لا، لكن الكثير من الصراخ.

تقول عشة

- هل تأكل جيدا؟

- هنا الكثير من الطعام.

تفتح زوجة طه ورقة الحلوى في حجر همزة، تتناول قطعة وتضعها في فمه وتسأله

ـ أين تنام؟

يقول وهو يلوك الحلوى ويشير للقطية الصغيرة

ـ هنا.

تسأل وهي تضع قطعة أخرى في فمه

ـ ألديك عنقريب وغطاء؟

ـ نعم، هل حقا لن أعود للحوش ثانية؟

يلتفت ويسأل العم أديلانو الذي تحجرت الدموع في عينيه منذ احتضن همزة، فأرد نيابة عنه

ـ تحَمَّل، وأعدك أنك لن تستمر هنا طويلا.

يسأل وهو ينظر لي

ـ كيف حال العمة كلتومة والعم عبد الله؟

وخزني سؤاله، أقترب منه وأقبله وأقول

- كلاهما بخير ويرسلان لك هذه القبلات.

يلتفت لأبكر الجالس بجواره ويده على كتفه ويقول

- رفض الضابط أن تحضر لتعيش معي.

ثم يكمل وقد بدأت دموع تتجمع في عينيه مجددا

- قلت له إنه يمكنك أن تزرع هذا الحوش وتقاسمني النوم بالقطية ولكنه رفض.

يصمت قليلا ريثما يبتلع الحلوى ثم يكمل

- هل كبرت الأرانب البرية؟

يرد أبكر وهو يمسح دموعا على خديه

- لم أذهب للجحور منذ غادرت.

يقول همزة

- إذا ما ذهبت للجحور ثانية فلا تمسك بها، فربما عاقبني الله لأنني فعلت ذلك.

يفتح باب المنزل وينادي الضابط

- حمزة.

يقوم همزة منتفضا، تتطاير الحلوى من الورقة، يمسك أبكر بردائه، ينظر له وينزع نفسه، يجري حتى يدخل البيت، يخرج الضابط مبتسما، ينزل العتبات حتى يصبح أمامنا تماما، يتقدم طه فيصافحه، يقول وهو ينظر ناحيتنا

- لديكم الكثير من العمل.

ثم يكمل لطه وهو ينظر في عينيه

- قل للأنصار إن الأزهري مات بالمستشفى، وأن النميري لم يقتل أحدا.

- قتله يوم سجنه في شيبته.

يقول الضابط بغضب

- مالكم و الأزهري؟! بَلِّغ الأنصار أن الإمام لم يقترب منه أحد.

- وهل يستطيع أحد أن يفكر في الاقتراب منه؟

- لا أحد فوق القانون، وخصوصا عندما يحكم عسكري.

- ليفعل الله ما يشاء.

يقول طه ويعطيه ظهره، يتقدم ليلحق بنا خارج الحوش بينما عينا الضابط تتابعانه، رغم غضب الجميع من قصر الزيارة وسوء المعاملة إلا أنني انشرح صدري للمغادرة

نصل للوادي بعدما غربت الشمس تاركة الشفق المحتضر لمصيره المحتوم، القليل من الضوء مازال يستحلب الأشياء قبل تلاشيه، يذهب طه وأبكر ليحضرا الإبل والضأن التي ترعى بالوادي، افترشته منذ شهر خضرة زاهية، ندخل للحوش الصامت، أندفع ناحية قطية النساء، أدفع الباب فإذا كلتومة عارية تستحم، تفزع لرؤيتي، تجلس لتواري جسدها، تمد يدها بحذر وتسحب ثوبها، تقول وهي تستر جسدها بالثوب بينما تنظر لي بغضب

- أجننت؟

أغلق الباب وقد انطبع جسدها العاري في عقلي، ثدياها المكتنزان المرتفعان في شموخ، جسدها الأسمر المشدود اللامع وكأنه جذع غسلته الأمطار للتو، هل حقا أمتلك هذا الجسد؟ هل يمكنني أن أدفع الباب ثانية وأبقى في الداخل معه؟ أمسح عنه الماء والليل المتدثر بهما، تدفعني عشة عن الباب، بمجرد أن تفتح الباب تنظر لي وفي عينيها مكر

- يمكنني أن ألم العشب لبناء الكوخ، أما الأحجار فعليك بها.

تدخل زوجة الراعي، تغلق الباب عليهن، يقدم طه بالقطعان هو وأبكر، يترك أبكر ليدخلهم ويجيء ناحيتي، يقول وهو يبتسم

- هل شاتك بخير؟

أومئ برأسي، يرفع صوته للنساء بالداخل

- ألن نتعشى؟
- العشاء معد.

ترد كلتومة من الداخل، تخرج وقد ارتدت ملابسها ووجهها يقطر ألقا، تعدل المنديل على رأسها وتنظر لي بعينيها البنيتين وتكمل
- لم يكن ليأكلني أحد، أو حتى يقترب مني.

أذهب للبحث عن عبد الله، لا أعثر عليه في الحوش، تتابعني من تحت العريش قلقة، أخرج للزرع، أذهب لكل الأشجار فلا أجده أسفل أيا منها، أعود للحوش متلفتا، كانت قد غادرت العريش، أدخل القطية فيقول طه الجالس يتناول العشاء بجوار العم أديلانو وأبكر
- لدينا رجل مفقود وحمار أيضًا.

أين يمكن أن يذهب؟ جرابه معلق ومصحفه فوق الحَجَرعلى جانب، هل يمكن أن يكون قد هرب؟ وقفت أتلفت للجراب والمصحف، يقول طه وهو يمد يده أسفل العنقريب
- والأوراق أيضا مفقودة.

يزفر العم أديلانو ويقوم عن العشاء، يتمدد على العنقريب غير آبه، في حضنه يتمدد أبكر، يقوم طه ويخرج فأتبعه، عند البئر يتوقف، يتناول الدلو ويشرب، أسأله
- أين يمكن أن يذهب؟

يرد بغضب وهو يتجه للقطعان

- عندما يعود يمكنك سؤاله، أو قتله لو أردت.

تدوي كلمة القتل في عقلي كالصاعقة، أجلس مستندا على جدار البئر، هل يمكنني قتله حتى لو تأكدت أنه اقترب منها؟ نعم يمكنني قتله، بل بالتأكيد سأقتله، لم أكن لأنتظر كل هذا الوقت حتى أجعل نفسي جديرا بها، ثم يضاجعها هو كغانية، لن أبرح الحوش حتى يعود، هذا إن عاد، يجب أن يعود وعندها سأعلم من عينيه إن كان قد اقترب منها أم لا، هو لا يستطيع المراوغة، فقط نظرة في عينيه سأعلم ما بداخله، يبدو أنني على وشك الجنون، إن لم أكن قد جننت فعلا، لماذا لا أذهب وأضاجعها الآن وعندها سأتأكد، النظرة الغاضبة في عينيها لا تجعلني أجرؤ على الاقتراب منها، ثم إن الكوخ لم يبن بعد، لعنة الله على الكوخ وعلى أوجوكوو وعلى الدنيا كلها

- لماذا ذهبت إليه؟

يقول طه صارخا على باب الحوش، أندفع للخارج، عبد الله على الحمار واجما مطأطئ الرأس، وطه يعنفه بغضب

- أضعت كل شيء، هل جننتم جميعا، كيف ستحج أيها الشقي؟

أصل لهما، أتقدم ناحية طه، يرفع عبد الله رأسه، ينظر لي والدموع متحجرة في عينيه، ويقول

- لم أستطع إحضار همزة؟

يضرب طه كفا بكف، ينظر لي ويغادر والغضب يتملكه، يدخل العم أديلانو والنسوة اللائي أفزعهن صراخ طه، يترك عبد الله الحمار

ويتوجه للقطية، أقف وحدي لا أدري ما أفعل، الرجل لم يقربها، بل أجزم أنه لم يفكر في الاقتراب منها، ربما فعل ما فعل تدفعه رغبة في مغادرة الوادي لكي لا يكون معها وحده، أدخل القطية التي سبقني طه لها، عبد الله جالس مغمض العينين مرتكنا على الجدار، يقول طه الواقف للعم الممدد على العنقريب ينظر في فضاء القطية

- ألن تذهب معي؟

يدير العم أديلانو ظهره، تتملكني رغبة جارفة في مغادرة الوادي، أقول لطه

- يمكنني المجيء معك.

يقول العم أديلانو بدون أن يعتدل

- لم لا تصطحبون الولي معكم؟ فقد أبلى بلاء حسنا اليوم ويستحق المكافأة.

يرد طه

- لقد أضاع جهدنا، وإن يكن حرس نفسه، فليكافئها كما يحلو له.

لم يفتح عبد الله عينيه، ظل يتمتم بالذكر وكأنه لا يسمعنا

يحمل طه معه دلوا مملوءا يطفو على وجهه نصف قرعة مجوفة، يرشف بصوت مرتفع بين الحين والآخر، يكاد الطريق ينتصف دون أن نتبادل كلمة واحدة، يغرق كلانا في ذاته، عند منتصف الطريق للجنينة وسط ظلام تعجز النجوم عن تجليته يقفز عبد الله لخاطري، ذلك الذي يتجلى للكل في مسوح الرهبان، تجلى باحمرار وجهه كلما نظرت له، خزيه إذا لمحه أحد ينظر لها، ارتجافه وتهدج صوته إذا تحادثنا، أسأل طه والغضب يتملكني

- هل يحسب العم أديلانو عبد الله وليا؟

يرد وهو يزفر دخان سيجارته وكأنني رميته بحجر

ـ وهل في ذلك شك؟

أقول بصوت مرتفع

ـ وأنت أيضا؟!

يرد دون أن يلتفت لي

ـ وكل من بالوادي.

أقول وأنا أحني جذعي نحوه حتى كادت رأسي تلامسه

ـ حتى لو رأيتموه كلكم وليًا.

يسوق حماره لمدق وسط الأحراش على أطراف الجنينة فأتبعه، يقول بعد لحظات صمت

ـ اسمع يا رجل، ما بعبد الله ليس بيده، تلك واحدة، والثانية الأكثر سطوعا أن هذا الرجل هو الوحيد في ذلك الوادي الذي يغذ السير في الطريق إلى الله.

أكاد أنفجر غضبا

- كلكم أولياء!

أقول بتهكم وأكمل

- وأنت والعم أديلانو لأين تغذون السير؟

يوقف حماره وينظر لي، تلمع عيناه الضيقة غضبا، يقول وهو يفرد الكلمات

- لا شأن لك بنا.

قبل أن أنطق، يكمل وهو يحث الحمار للمضي ويتلفت للأفق المعتم أمامنا

- منذ شهور، اقتسم رجل أعرفه -ربما يتضور أهله جوعا- كل ماله مع أناس كل ما يربطه بهم أنه التقاهم بالطريق عرضا وقضى معهم أقل من يوم. في زمن كهذا الذي نحيا فيه، لو لم يفعل أكثر من ذلك لكان وليا.

الفضاء المعتم حولي انسكب داخلي. لم أجد ردا ولا مبررا لما كنت أهذي به، بصيص من ضوء يسيل من نافذة عشة وحيدة وسط العشب. يسوق طه حماره متجها لها، عندما نقترب منها يفض الظلام صوت أجش يسأل بتهديد

- من؟

- أنا المقتول.

يجيب طه، فيرد الصوت بنغمة هادئة وهو يقترب

- جئت مبكرا فلم يحضر أحد بعد.

- نسيت الساعة في الديوان.

يقول طه بسخرية، فيضحك الرجل الذي ظهر فجأة بجسده الضخم ممسكا عصا بجوار حماري، يقول وهو ينظر في وجهي بوجهه الضخم قاسي الملامح، مفتول الشارب، ضخم الشفتين. ذي العينين الجاحظتين

- حسبت العم معك.

يقول طه وهو ينزل عن حماره

- أهلا "عجبنا"، إنه ولده.

يقول عجبنا، وهو يتقدم ليرفع بابًا من الخيش لندخل

- عله يؤنسنا فلا نفتقد العم.

يتناول الدلو من طه. يضعه على طرف الحصير المفروش بجانب من العشة، يغرف قرعة ويعبها. يلقي بالقرعة فارغة فتسقط طافية تدور بالدلو، يقول وهو يمسح شاربه ويغادر

- مريستك[٢١] قوية يلزمها لحم ضأن. علك خمرتها أسبوعا أو أكثر.

نظرت في الدلو فعافت نفسي ذلك السائل الذي يشبه لون الطمي وفقاعاته الداكنة التي تعلوه. جلست أقلب عيني في العشة. الراتينة الصدئة المعلقة بحبل تلقي بضوئها الأبيض على الأرضية التي بها بقايا عشب، يبدو أن العشة منصوبة حديثا. حوائطها من الحصير المزدوج وسقفها من الخيش، خاوية إلا من بعض الأغراض مكومة على جانب، ماذا عساه العم أديلانو كان يفعل هنا؟ ربما هذه هي نهاية الطريق! يذوق طه القليل من المريسة ثم يلقي بالقرعة فتطفو تدور فوق الدلو. أسأله

- ماذا يعمل هؤلاء؟

- همباتة.

بدا أنني لم أفهم فيوضح

- قطاع طرق.

يأتي صوت جلبة من الخارج وثغاء خروف، يعتدل طه وينظر للباب

- العم هنا؟

يسأل رجل ويرفع الخيش، ينظر ناحيتي بتوجس، ثم ينظر لطه الذي يقف ويقول

- وعليكم السلام يا معلم يعقوب، العم مُتْعب، جئتك بابنه.

يدخل الرجل الذي يعلو وجهه الصغير الإحباط، ينزع عمامته فيظهر شعره الأكرد المتلبد، يمسح العرق عن جبينه الضيق، عيناه واسعتان عميقتان، شفتاه صغيرتان، يجلس على الحصير بجسده الطويل، يمد رجليه ويأمر طه

- لديك عمل بالخارج.

ينزع طه سكينه من جرابه ويخرج، يعتدل الرجل ويمد قدميه، يضع عصاه المكسوة بالجلد بجواره، يمد يده لكيس معه ويخرج عدة زجاجات خمر صغيرة يرصها بعناية بجانب بعضها، يخرج علبة سجائر من جيبه، يمد لي سيجارة فأرفض، يشعل سيجارته وينفس دخانها، يهرش شعره وينفض عشبا عالقا بردائه الأبيض، ينظر لي ثم ينشغل بإحضار أكواب زجاجية من جانب العشة، يرصها بجوار زجاجات الخمر، يجلس وهو يزفر ضجرا، تظهر أضواء نيران تشتعل بالخارج، يقوم فيرفع الحصر عن جانب العشة فيصبح جانبها مفتوحا تماما على النيران التي تنبعث من جذع شجرة بجوارها رجل رقيق الجسد بوجه طفولي، طه يكاد ينتهي من سلخ الخروف على جانب يعاونه رجل ضخم الجسد، عظيم الرأس، العمامة على رأسه كقبة، يخرج المعلم يعقوب وبيده برطمان ويقف بجوار النار التي يعبق دخانها العشة، أسعل وأنا جالس وسط الدخان الكثيف، يضحك الرجل ويقول لي

- لتخدم نفسك يا رجل.

أقف بجوار طه الذي بدأ يفتح بطن الخروف، يستخرج الكبد والطحال ويضعها على جلد الخروف المفرود بجواره، يقطعهما لقطع

صغيرة بضربات ماهرة متتالية ويقلبهما، يضع المعلم يعقوب عليهما مسحوقا من البرطمان، يتحلق الرجال ويبدأون الأكل بنهم، أمدد يدي وأتناول قطعة، بحذر أضعها في فمي وألوكها، طعم الفلفل الحريف لا يطغى على مذاقها العذب الذي يذوب في فمي.

ينتهي طه من تقطيع الخروف لقطع صغيرة، عندما تحول الجذع لكومة من الجمرات، يفرد جلد الخروف وسط الحصير الذي يقترب من كومة الجمر التي يعلوها اللحم، نتحلق حول الشواء، نبدأ في تناول اللحم والمريسة التي شجعني شربهم لها بنهم على الشراب، تنتهي وليمة اللحم والتجشؤ التي يتبعها كل منهم بقوله

- ارقد يا عيش أنا جرابك.

يسدل الحصير فنمسي معزولين عن الخارج، يصب المعلم يعقوب كأسا ويمدها لي فأعتذر، يتجرعها دفعة واحدة ويقول لطه

- سمعنا أنكم تعدون العدة، هل ينوي الإمام العصيان؟

يرد طه وهو يضع كأسه فارغا

- الرجل كالمسعور لا يريد أحدا معه.

يقول عجبنا وكأنه يتلو خبرا من الماضي

- ولن يدع أحدا معه.

يقول طه مندفعا

- سيكون هذا على جثتنا.

يقول المعلم يعقوب ساخرا

- فلتحضر كفنك.

ثم يكمل وقد بدأت الخمر تلعب برأسه

- يا طه، ماذا قال العم بعد أن سكر؟

يضحك طه وهو يشعل سيجارة وقد احمر وجهه

- قال: حرم الله العرقي لأنه كالصلاة الحقة، كلاهما يخرجك من هذا العالم.

يضحك ذو الوجه الطفولي ويتجشأ ويضرط فيضحك الجميع، يدفعه عظيم الجسد في كتفه ويقول

- استر نفسك يا ماحي لدينا ضيف.

ثم يكمل

- بل قال الخمر كالنساء كلاهما يلعب بالرأس.

يقول المعلم يعقوب

- بل قال النساء كالأرض تفتح فخذيها لكل من يضع فأسه فيها.

يقول طه

- أظنه قال: النساء كالسحب ننتظرها لتظللنا وتسقينا وإن غابت متنا جوعا.

يسألني عظيم الجسد

- ما اسم الرجل؟

أرد

- عثمان.

يسألني وهو يتفحص وجهي مترقبا

- ما المرأة يا عثمان؟

أرد وأنا أنظر لطه

- المرأة كالدنيا نعرف ما يريحنا منها ولا نعرف ما يريحنا معها.

يصفق المعلم يعقوب ويصفر ويقول

- هذا الشبل من ذاك الأسد، وبلا خمر! سيقول دوبيتا٣٣ لو شرب كأسا، قل لي ما الدنيا؟

أرد

- سوق يجمعنا بعضا من نهار ثم ينفض ربح فيه من ربح وخسر من خسر.

يهز رأسه ويصمت، أسأله وأنا أتابع الدخان الذي يتصاعد من فمه

- ما القتل؟

يرد وهو مطأطئ الرأس

- في أوله علقم، وبعد ذلك غية.

- ليس بعد.

أرد على كلتومة، تنتظرني تحت ظل شجرة العدريب على حافة الجزيرة، تنتظر فراغي من لم العشب لنسير صامتين حتى الحوش كعادتنا في الأيام الأخيرة، نادرا ما ألمح الثوب عليها، دوما أراها عارية، **هل يراها هو الآخر عارية؟** جمعت عشة الكثير من العشب والأغصان لبناء الكوخ، لم ألم حجرا واحدا، عرض طه أن يحضر الأحجار بنفسه

فرفضت، حتى هي لم تلم عشبا ولم تحضر حجرا، الأمر لم يعد كوخا، هناك شيء ما رحل عنا، لكن جسدها يؤرقني، انتظرت حتى غادر الجميع، تركوا فقط كلتومة والشمس التي تتوسط سماء يرعى على أطرافها القليل من السحب، جبهة الأرض المغطاة بالزرع تستحم تحت شلالات الضوء المتدفق من الشمس، تلم أوراق الدخن المشرعة أطرافها الحادة تجنبا للحرارة التي تنز من السماء والأرض، أرفع قامتي وأمشي حتى أتجاوزها للبركة، ألقي ما معي من عشب وأعود لأجدها قد استدارت ناحيتي نصف مبتسمة ونصف وجلة تمزق بيديها عودا ذابلا من الدخن، أقف قبالتها وأسمر عيني في عينيها البنيتين اللتين تشعان قلقا، أخلع جلبابي فأتعرى تماما، ترتد للجذع في فزع، أمسح العرق عن وجهي بالجلباب قبل أن أفرشه على الأرض التي يكمدها ظل العدريب، أقول لها وأنا أفرد ذراعي

- إن كنت تريدين هذا الجسد فها هو والآن.

تشهق وتنهار جالسة واضعة رأسها بين ركبتيها منخرطة في النحيب، أجلس بجوارها عاريا على الثوب المبسوط، أمد يدي فأنزع منديلها، أجذبها إلى الثوب، أشم رائحتها التي تشبه رائحة الطحين الطازج، أمددها بجواري فتغطي وجهها بيديها التي ينساب الدمع من بين أصابعها الرقيقة، أشق الثوب عن صدرها فيبرز نهداها متكورين لامعين، أواصل شق الثوب فيضحى وسادة تحتها ويتجلى جسدها البرونزي اللامع، أوسع بين فخذيها فتضمهما، أمسك فخذيها بكلتا يدي وأجرها نحوي حتى يلامس ذكري المنتصب فرجها المغطى بشعر كثيف، أتمدد فوقها،

أضغط جسدها المرتجف للأرض فتتأوه، أنزع يديها عن وجهها في عنف، وجهها قطعة من اللهب، عيناها الغارقتان في الدموع تشعان كرها، أرتد من فوقها فزعا، تلملم جلبابها على جسدها العاري، تعتدل في بطء، تقوم وتتحرك ناحية المنديل، تنحني لتلتقطه بيد والأخرى ممسكة بالثوب الممزق، تتحرك ناحية الحوش، عند حافة البركة لا تتوقف، تنزل وقدماها تدوسان العشب الميت فوق المياه الضحلة فيئن، بعد أن تعبر البركة تستدير ناحيتي، تقول وهي تلم شعرها وتنظر في عيني بحقد

- لم يعشق أحد في هذه الدنيا جسدا مثلما عشقت هذا الجسد، ولكن عندما كان جسدا يسكنه قلب، أما الآن فعندما يعود لك قلب، وتبني لي كوخا يمكنني أن أمنحك هذا الجسد.

تقول وتفتح ثوبها المشقوق عن جسدها العاري وتنظر في عيني طويلا ثم تستدير ناحية الحوش وتمضي.

صباح جديد، يوم آخر من العمل الذي لا ينتهي، العشب لا يكف عن محاولة الحياة تحت سيقان الزرع، ولا نكف عن مطاردته لنحيا نحن، بين الزرع والحصاد يضيع عمرا لنجني ما يعيننا على قضاء عمر آخر، فقط لتستمر الحياة، نبذل عمرنا لنعلن أننا موجودون هنا، لنثبت أننا خلقنا وعشنا، رغم أنه خارجنا لا أحد يشعر بنا، لو أننا لم نولد ما تغير شيء ولو أننا عمرنا بحالنا هذا آلاف الأعوام ما تغير شيء، مثلنا مثل ملايين الأشياء وكأنه لا عقل لنا ولا روح، ننتمي لبني آدم اسما وشكلا، ولكننا نتحطم كالحجارة، ونذوي ونذبل كالأشجار، ولا يذكرنا أحد،

لو خرقت هذه التربة وتعمقت بها حتى وصلت للطرف الآخر من الأرض لوجدت شخصا يشبهني لا يعرفه أحد ولم يسمع عنه أحد، نحن مجرد لعبة قرر الله فجأة أن يبدأها وسيقرر فجأة أن ينهيها، لو أن دأب عشة وروح طه وعقل العم أديلانو وإيمان عبد الله وبهاء كلتومة وبراءة أبكر وضحكة همزة وصبر امرأة طه تجمعوا في شخص واحد ما عبأ به أحد، هي أقدار لا أكثر، نقدم فنتلقاها بغضب أو بصبر ثم نرحل. ليس لنا إلا الصبر ذلك السم الذي نتجرعه بتسليم فيميتنا قطعة قطعة حتى آخر هدبة في أرواحنا.

ها هو الوقت قد مضى، وتبقى أسبوعان ويبدأ الحصاد، سنحصد الذرة والدخن. وبعدها بشهرين نحصد الفول والسمسم والكركديه، كيزان الذرة والدخن ممتلئة بالحب، يلزمها فقط بعض الوقت لتنضج، أو بعضا من عمرنا للنضج. عبد الله يقول إنه سيغادر بعد أن نحصد الذرة والدخن، قال إنه يريد فقط ما يوصله للخرطوم. هناك سيتدبر أمره، قال إنه يهب نصيبه من الباقي لي. لكي أتجهز به لزواجي، حتى لو بنيت كوخا وجهزته، كيف يمكنني استعادة قلبها بعدما حدث، أي شيطان تملكني منذ خرجنا من قريتنا، هو التشرد لا يبقي عقلا أو قيمة، يأتي كالريح الهوجاء تترك كل شيء بعدها محطما. تترك الإنسان بلاشيء سوى جوهره، كيانه المجرد بلا مال ولا أهل، فقط بعض الذكريات والحنين للفائت، والكثير من القلق على الآتي، تظهر ما فينا بسوءاته ومحاسنه، تتركنا للرعب من الريح القادمة والشك في كل ما حولنا، هو هذا، نعم.. هذا ما حدث لي، خوفي من ضياع كلتومة، جعلني أعذبها وأعذب ذاتي، أحرمها عليّ حتى أتأكد من عدم ضياعها،

وهي لا تعبأ بالريح، هي تحبني كما ينبغي. تراني أو كانت تراني كل الدنيا، لا تخشى ريحا أو حتى موتا طالما هي معي. حتى عبد الله وسط كل ما يراه يعشق الحياة، يستطيع قلبه أن يحب، يستطيع أن يعبد الله ويحبه ويبكي بين يديه، وعشة مثلهم حتى الطفلين يستطيعان أن يعيشا وسط كل هذا الضياع، لكنني فقط أؤجل كل متعة حتى أضمن ألا تضيع. ها هم يعملون وسط هذا القيظ غير عابئين به. وكأن ما سيحصدونه سيجعلهم ملوك على هذه الدنيا أو سيكتب لهم الخلود. حتى طه وزوجته أصبحا يعملان مثلنا منذ الشروق وحتى المساء. زوجة طه يبدو أنها شفيت. منذ أسقطت حملها الأخير وهي لا تغادر الوادي. شفاها العم أديلانو عندما وهب لها أبكر. كعادتها كلما اشتد الحر. تأخذ أبكر من ذراعه. تجلسه تحت العدريب وتسقيه الماء. ولا تسمح له بمغادرة الظل. تضحك وتقول وهي عائدة

- فليعمل كل على قدر ما يأكل.

يضحك طه ويقول

- إذا يتوجب على العم ألا يغادر الزرع ليلا أو نهارا.

يبتسم عبد الله ويواصل العمل والذكر. تقول كلتومة

- نحيا ببركة هذا العجوز.

يقف طه ويؤذن. يضحك الجميع. تقول له زوجته

- فلتدخر جهدك لليل فالديوك لا تؤذن نهارا.

تضحك عشة وقد فهمت مرادها، يقول طه وقد نفض يديه من العشب

- لدي ما أعمله في الحوش.

ثم ينظر لزوجته ويقول

- كاد الذرة أن يزرع في الماء، ألن تطحنيه؟

يغادر هو وزوجته، تطمئن على أبكر الغارق في نومه تحت الشجرة، تهش الذباب عن وجهه، تخلع منديلها وتغطيه، تغادر بضفائرها السوداء الفاحمة اللامعة تحت الشمس لتلحق طه الواقف ينتظرها بلهفة، أشيعهم بنظري، التفت لكلتومة المنهمكة في العمل، تنظر لي عشة بأسى، يذهب عبد الله ليتوضأ كي يصلي الضحى، تتابعه كلتومة بعينيها حتى يغيب، تنسحب عشة لتجلس بجوار أبكر، تقول وهي تتركنا وتذهب

- يبدو أن الديوك هنا تؤذن في أي وقت.

أتقدم من كلتومة وأهمس

- أما زلت غاضبة؟

تقول وهي تعمل بدون أن تلتفت لي

- لقد تجاوزنا جميعا ترف الغضب.

ترفع رأسها وتنظر لي وتكمل

- أتذكر هذا القول؟

- كنا لا نملك من أمرنا شيئا، جميعنا كنا منكسرين ومشردين.

- وهل انتهى تشردنا؟ هل أصبح لأحد منا من أمره شيئا؟

- ذبلت جروحنا.

- لكن القيح مازال بداخلها.

ـ ولكنك زوجتي .
ـ الآن تذكرت أني زوجتك .
ـ تعلمين أنني لم أنس يوما أنك زوجتي .
ـ إن كنت تريد جسدي فهيا للحوش ، أو فلنتوغل قليلا داخل الوادي ، ولا يهم إن كان سيسمعنا أحد ، أو حتى يرانا ، ولكن لتعلم أنني لا أرغب في هذا .
ـ ماذا حدث لكل هذا؟
ـ عندما تعود عدوا لتضبطني مع صديقك كما توهمت ، فأنت لم تعد أنت ، لم تعد عثمان الذي كان النظر له مجرد النظر يشبعني ، ومازلت تسأل ماذا حدث!

هممت بالتحدث عندما شقت الفضاء صرخة أبكر ، تتبعها صرخات عشة المدوية ، أجري تجاه الشجرة ، ثعبان أصفر اللون ينسل مذعورا تجاه البركة تتبعه عشة بالأحجار تلقيها عليه وتصرخ ، تصرخ كلتومة وهي تنظر لأبكر الممسك بقدميه وأثر نابي الثعبان في سمانته ، يقدم عبد الله جاريا ، العم أديلانو يجري من الحوش متخبطا يقوم ويقع ، زوجة طه تجري في إثره مذعورة ، أبكر ينظر لجرحه المحمر المتورم ويبكي في ذعر ، يرفع عبد الله المنديل عن الأرض ويربطه فوق ركبة أبكر ، يصل طه فينزع عبد الله السكين من يده ، تضرب امرأة طه صدرها بيدها ، تصرخ وتدور وتلطم خديها ، تبرك بجوار أبكر ، تتحسس جسده المرتجف ، تهيل التراب على رأسها ، يتقيأ أبكر ثم يتنفض جسده ويتشنج ، يرفع عبد الله ساقه ويمسك طه بقدمه ، يشق عبد الله الجرح فيصرخ أبكر ، يشقه ثانية وثالثة ، الدم المتفجر من

السمانة يلطخ يدي عبد الله والسكين، يمسح الدم بجلبابه فيتدفق، يرتجف جسد أبكر ويكز على أنيابه ويهمد مفتوح العينين والفم، تصرخ عشة وتلطم كلتومة خديها، تتوقف زوجة طه عن الصراخ مذهولة، تندفع فتدفع عبد الله وتحتضن جثة أبكر الهامدة، تقوم عنه وتحمله، أنزعه وأنا أبكي من يديها وأسجيه، تجري وهي تصرخ ناحية الحوش، تقع وتقوم وسط البركة، تخرج وتندفع للحوش، تنساب الدموع من عيني العم أديلانو المغمضتين بينما يده على رأس أبكر وشفتاه تتمتمان بكلمات غير مفهومة، يضع عبد الله فمه في الجرح ويشفط الدماء ويبصقها، تضع عشة فمها في فمه وتتنفس بقوة، يضغط عبد الله على صدره بكلتا يديه، يئن أبكر، يقول عبد الله

- أنت بخير. . بخير.

يتركنا طه ويندفع ناحية الحوش، يكاد يدرك الباب عندما تخرج زوجته والنيران مشتعلة بكل جسدها، تجري وتتخبط في جدران القطية، تقع على الأرض ثم تقوم متجهة نحو القطية المحترقة، قبل أن يصلها طه كنت قد وصلت للحوش، أمسك به من الخلف، ترتمي عشة على قدميه وتحتضنهما، زوجته داخل القطية المحترقة تصرخ، الدخان يتصاعد من السقف المحترق، لحظات أحسبها مرت أعوام تجمع العم أديلانو وعبد الله يحمل أبكر بين يديه وكلتومة خلالها بجوارنا، دقائق ويهمد الصوت ويهمد جسد طه بين يدي

الحصاد

عبد الله ولد فال

الجنينة غرب دارفور أكتوبر ١٩٦٩

رحلت ولم نعرف لها اسما. فقط زوجة طه.

تميل الشمس للرحيل. تتمهل فوق التل وكأنها تنتظر فراغنا. ها هو عثمان قد انتهى من حفر القبر ولم الحصى. يمضي معي فنقف على باب قطية النساء انتظارا للجسد. تفتح كلتومة الباب وتخرج. انتهت عشة من تغسيلها وتكفينها. تسجيها على العنقريب العاري ملفوفة في ملاءة بيضاء مربوطة فوق رأسها وأسفل قدميها. أحمل أنا وعثمان العنقريب. نتحرك بسكينة يتبعنا طه والجميع. نتوجه غربا حيث التل. على سفحه نضع الجسد إلى جانب القبر. نصلي عليها صلاة الجنازة. حتى العم يصلي خلفي. ينزل عثمان للقبر. أناوله أنا وعشة الجسد. يسجيها في اللحد. يهم أن يسده بالحجارة. يستوقفه طه الجالس على حافة القبر مادا جذعه ورأسه وسط فتحته. يأمره أن يكشف عن وجهها. يتردد عثمان متلفتا لنا. ثم ينحني ويعدل الجسد لظهره ويكشف عن الوجه الذي فارقته تقلصات الألم. يبدو منبسطا ومنشرحا كجسد عروس نائمة. يرفع طه رأسه عن القبر تند منه آهة ينخرط بعدها في بكاء

حبسه منذ مصرعها. يسد عثمان اللحد، يخرج ويبدأ في إهالة التراب برفق. يسوي القبر ثم يفرش فوقه الحصى، يقوم طه ويمشي بخطوات متثاقلة في الغروب تجاه الوادي. تتعلق عشة بذراعه

- إلى أين؟

يجيب وهو يبكي كالأطفال

- لم يعد لي شيء هنا.

تمسك بطرف ردائه وتبكي

- بل لك. لك تلك الأرض التي وطأوها.

ينزع الرداء من يدها. يقول وهو يمضي مترجلا عاري الرأس حافي القدمين

- وهل سيقتلني إلا وطء أرض وطأوها؟

لم يستطع أحد منا الاقتراب منه سواها. تتبعه لخارج الحوش ثم تعود بعد قليل باكية. تنضم للحشد بجوار القبر. القبر الذي يجاور قبورا ثلاثة هي بالتأكيد قبور أبنائها. على بعد خطوات منه ثلاثة قبور أخرى، ألقنها ما ترد به على الملكين. أتلو ياسين والرحمن، يقوم العم أديلانو ويجلس على رأس القبر وهو يبكي. ذلك الرجل الذي لم يسكب دمعة واحدة على حفيده. جمع كل دموعه وآلامه لكي يسكبها فوق قبرها، يقول وسط دموعه وهو يتحسس التراب والحصى على القبر

- بنيتي. أيتها القديسة. عندما تصل روحك الطاهرة التي تقطر نورا وعطرا للفردوس. وحين ترفع لك الحجب، وتذوبين في نور الرب، قولي له إن أديلانو تعب. أديلانو أثخنته الجراح، أديلانو ينزف ألما ولا طبيب،

أديلانو ضجر حتى من جسده ونفسه والهواء الذي يزفره، أديلانو يطلب هدنة أو لقاء عاجلا معك، يطلب هدنة أو لقاء عاجلا معك.

يقول ويبكي وينشج، فيبكي الجميع، ينهي حديثه معها، يسحب جسده المرتجف ويقوم واقفا، يمضي تكنس قدماه الأرض، يمشي مهتزا يمسح دموعه في كم سرواله، تلحق به كلتومة لتسنده، يمسك يدها عن ذراعه، يبعدها برفق، يلتفت للقبر ولنا، يذهب وهي تتبعه باكية.

أبدأ في قراءة الكهف، عندما انسحبت عشة وتركتني وعثمان وحدنا، يقرأ بصوت خفيض عذب آيات من سورة يونس، ينهي تلاوته ويقوم فأقوم معه، بعد خطوات نتلفت ناحية القبر، ثم ينظر كل منا للآخر، فيعانقني كالطفل ويبكى.

في الحوش ما زالت رائحة احتراق جسدها عالقة، وبجانب العريش وعلى ضوء النار المشتعلة أسفل القدر، تنحني عشة على المحراكة تطحن الذرة، الذرة الذي بلته من ماتت قبل أن تطعمه أو حتى تطحنه، تمسك بالحجر وتطحن في عنف، يتساقط الدقيق المبلل في الحفرة أسفل الحجر الثابت.

يغادر عثمان لإحضار القطعان من الوادي، أدخل القطية فأجد العم ممددا شاخصا للسقف، كلتومة جالسة مرتكنة على العنقريب الآخر الممدد فوقه أبكر، ضوء الرتينة الشاحب يلقي ظلالا واهنة كئيبة على الجميع، أتحسس جبين أبكر فأجده باردا، أهم بالخروج فتقول كلتومة

- العشاء يعد.

أرد وأنا أخرج

- لن أتعشى.

أقف بجوار القدر. الدخان يتلوى متصاعدا ليذوب في مجهول الظلام المطبق على المكان. الماء في القدر يغلي فيتصاعد منه البخار. كلاهما يذهب للمجهول. روح وجسد يتلاشى كل منهما. أجلس على حجر بجوار العريش. تمد عشة الصحين في طبق وتتقدم للقدر. تنثر الطحين وتقلب. ثم تنظر لي وهي تضع الطبق الفارغ وتقلب العصيدة وتقول

- هل ستترك صديقك هكذا على وجهه؟

أرد وأنا أزيح عيني عنها

- الله والوحدة خير له من كل البشر.

تقول بصوت به الكثير من الرجاء

- لم أر صديقا يحب صديقا مثلما يحبك هذا الرجل. الحق به. فربما يجد عندك بعض العزاء.

أرد وأنا أنظر ليديها التي مازالت تعمل

- لو خرجت من هذا الوادي لن أعود. لكنه حتما سيعود ليزور القبر.

كنت أعبر عن إحساس يتملكني، فلو خرجت لن أعود، سأهيم على وجهي متيمما شطر البيت فأحج أو أموت، لم يعد لي حاجة في هذه الدنيا سوى رؤية البيت والطواف حوله، حتى مريم ومولاي وأهلي جميعا لم أعد أعبأ برؤيتهم، أريد أن أحج وأرحل من هذا العالم، ربما ألزم إحدى الخلاوي فأقضي بقية عمري، بل ربما ألزم البيت الحرام فلا أغادره إلا لقبري.

يعود عثمان بالقطعان. يدخلها الحوش ولا يعود. يخرج العم من القطية، يقف أمام الباب ويمد رأسه شاما الهواء. خطات تلذذ خلالها بالرائحة ويقول

- أين طه؟ أين ديكي الطيب؟ لماذا لم يؤذن للصلاة؟

يتجول في الحوش، يشم نفسا عميقا ويكمل

- أي رائحة زكية تعبق في الحوش! أين طه ليشم ريح الجنة؟ بنيتي رحلت لتحضر لنا ريح الجنة. فلتشموا وتطهروا قلوبكم. ولتداووا جراحكم، يا ولي . . يا ولي . . أين أنت؟ أتشم الرائحة؟

لم أتحرك، فقط أرمقه وأشم تلك الرائحة التي عبقت المكان وأبكي، تشم عشة الهواء وتقترب مني وتقول

- أي ريح طيبة؟!

يقدم عثمان، يمسك بذراع العم برفق. ويحاول سحبه للقطية، يقول العم وهو ينزع يده

- لم أجن بعد، لماذا لا تشم الرائحة؟

يقول عثمان وهو يعيد وضع يده فوق كتف العم

- لا رائحة يا عم سوى رائحة الشواء.

أقترب من العم، ينظر لي مستغيثا، أقول

- بل ريح من الجنة، تعال يا عم.

أتأبط ذراعه ونخرج من الحوش، وهو يردد

- نعم ريح من الجنة، بل قد تكون ريحا من الفردوس، بالتأكيد هي رائحة الفردوس، أليس كذلك؟ لماذا لم يشمها سوانا؟ لو كان همزة وطه هنا لشماها، بل ربما شماها حيث هما.

العم لا يتوقف عن الذهاب للبحث عن طه كل ليلة، يعود مخمورا يوصله الحمار للحوش، خمسة عشر يوما على هذا الحال، حتى إنني لم أعد أعلم هل يذهب للبحث عنه أم يذهب للسكر؟

ذهبت عشة لمنزل الضابط لتسأل عنه، بعد أن حاورها وناورها وعلم منها ما حدث بالتفصيل، قال إنه لم يره، حمّلها وحمّلنا مسئولية سلامة خرافه والزرع.

لعنة الله على هذا الرجل، لا يهمه سوى السرقة، عندما دخلت مكتبه وبيدي الأوراق قلب عينيه فيّ وقال بغضب

- ماذا جاء بك؟

قلت له وأنا أضع الأوراق فوق المكتب

- أرد لك ورقك وترد لنا همزة ونلغي الاتفاق بينك وبين طه.

تلون وجهه وصرخ

- يعقوب.

دخل جنديان يجريان، فأشار لي وقال بثورة عارمة

- خذا هذا الكلب وضعاه بالحراسة.

جرني الجنديان، رميا بي في غرفة معتمة، وأغلقا الباب، بعد ساعتين جرني الجنديان للمكتب ثانية وأغلقاه، قال الضابط الذي يضع ساقيه فوق المكتب

ـ ماذا تعلم عن اتفاقي مع طه؟

قلت وأنا أتحاشى النظر له

ـ الله أعلم.

قال بصوت به رضا

ـ حسنا، هل تعرف أحدا اسمه همزة؟

قلت وأنا أنظر عبر النافذة المفتوحة على فضاء معشوشب

ـ وهل سيتذكر الإنسان كل من يلقاه؟

قال بصوت زادت فيه نغمة الرضا

ـ وماذا تعلم عن خرافي؟

قلت بثقة من اطمئن

ـ علمها عند الله.

قال وهو ينزل ساقيه ويعتدل واضعا يديه على المكتب

- لو رأيتك هنا ثانية، لن تغادر الحراسة قبل سنوات.

- والأوراق؟

صرخ في وجهي

- اذهب يا بن الزانية، ولا تريني وجهك القبيح ثانية.

لا أحسب أن طه في محنته يلجأ لرجل كهذا، ربما يكون عند أحد الأنصار، أو سافر للجزيرة أبا، هو دوما يقول إنه يتمنى أن يعيش ويموت بجوار غار المهدي، حتى إنه أوصاني أن أدفنه هناك، فلما ضحكت

وقلت له: بعد شهور ربما لا نرى هذه [illegible]
رأسه في أسى: تكفي عدة شهور [illegible]

لم أكن أحس أو يحس أحد [illegible]
جميعا كالعبيد بلا روح منذ فرقت [illegible]
بلا أدنى بهجة. فها نحن [illegible]
بالصباح الرطب ولا [illegible]
وكأنها في يوم عرس. [illegible]
أرواح كانت تنتظر ذلك [illegible]
ولا ندري من سيكتب له أن [illegible]

تسبقنا عشة ونصل [illegible]
أمسكت بجندول دخن ناضج. [illegible]

- لا يجوز أن نحصد [illegible]
وجعكم وتبتسموا [illegible]
أسر سيفك أسره. [illegible]
نريد أن نبقيها على هذه الحياة. [illegible]
بعضا من السعادة.

أرسم ابتسامة على وجهي لأرضيه. [illegible]
مكفهرا ويمسك بجندول، يقتلعه ثم يضعه تحت رجليه، يدوسه ويقول

- هذا نصيب الضابط.

ثم يقتطع آخر ويرميه

- وهذا عشر الإمام.

ثم يقطع ثالثا ويلقي به

- وهذا نصيب طه الذي سنتركه له.

ثم يقطع رابعا ويطوحه نحوي ويسخر

- هذا للحاج.

ثم يقطع خامسا ويمده لعشة ويسألها

- هل يكفيك هذا ورضيعك؟ كيف نبتسم ومعظم ما سنحصده سيذهب لغيرنا؟ يبقى فقط ما يعيننا على الحياة لنزرع غيره، لسنا في الدنيا بل نحن في جهنم. بل نحن في قعر جهنم، ما نحصده لا يسمن ولا يغني من جوع. أما أنا فلن أحصد ولن أزرع، سأعيش كالقطط تأكل من خشاش الأرض.

يقول ويتركنا ماضيا. يغادر لشجرة العدريب وينام تحتها، يفاجئني الغضب العارم في عيني كلتومة بعد أن تصرف نظرها عن عثمان، تنزل وسط الزرع وتبدأ الحصاد بهمة. لحظات وتقول

- دعوه. فهذا قرر ألا يحصد خيرا في حياته.

سوى صوت انقطاع أعواد الجنادل تحت ضغط المناجل، وخشاش أجسادنا المحتكة بأوراق الزرع لم يكن يوجد إلا الصمت، انعزل كل منا في عالمه عن الآخرين. ثلاثة عوالم لا يفرق بينهم سوى خطوات لكن لا يحس أي منهم بالآخر.

كلتومة تخلع منديلها وتمسح وجهها وأعلى صدرها البارز من تحت الثوب المفتوح وكأنها وحدها في هذا العالم، تبرطم بالهوسوية محدثة

نفسها، آثروا جميعا ألا يتحدثوا بالهوسوية منذ التقينا، حتى حديثهم الجانبي كان بالعربية، كان عثمان ينظر لأبكر وهمزة شذرا إذا نطق أي منهم كلمة هوسوية، خلال الشهر الأول كان كل منهما يتكلم العربية، وها هي اللغة الأم تظهر على لسان كلتومة، الغضب الذي يعصرها والهوة التي تتسع بينها وبين عثمان جعلا قلبها ينضح بأقرب اللغات إليه، أو ربما لا تريد أن أفهم ما تقول، رغم أنها تعلم أن كلا منا أصبح كالكتاب المفتوح للآخرين، الغربة بقسوتها تظهر الإنسان على طبعه، تريه هو ذاته ما لم يكن يتخيل أنه موجود بداخله، هي أحبت عثمان الذي عرفته في قريتها، أحبت ذلك الرجل الذي يحفظ القرآن ويحلم بأبناء يغادرون القرية ويدخلون المدارس الإنجليزية، أحبت الرجل القوي الذي يحميها ويحدب عليها، لكنها الآن ترى رجلا آخر، رجلا مهزوما عازفا عن الحياة، يفقد ثقته وقدرته على الحياة يوما بعد آخر، رجلا لا يحب سوى ذاته، لا يرى الآخرين ولا يحس بهم، عجيب أمر المرأة يمكنها أن تجعل الرجل نصف إله أو تحيله لعبد لا يملك من أمره شيئا، الفارق فقط في زاوية رؤيتها له، أما عثمان ذلك الفتى الذي تجاوز العشرين بقليل ولا خبرة له في تلك الحياة، وجد نفسه كرها وفجأة يتخلى عن كل ما يملك أو حتى يحلم به، وجد نفسه مجبرا على تحمل عبء عجوز وأطفال ونساء، مكبلا بآلامهم ووجعهم وغدهم، مضطرا أن يضحي بذاته من أجل ذواتهم، ليضمن لهم ألا يتكرر معهم ما حدث ثانية، أكثرنا هما وتذكرا لهمزة ليس العم ولكنه عثمان، لا يمر يوم إلا ويقول يجب أن يعود همزة، يذكر نفسه قبل أن يذكرنا، كان أكثرنا كدا في الأرض ودأبا عليها، كان يرفض أن نمنح الضابط ربع كدنا لنكون سودانيين، كل ما كان يشغله أن

يوفر لهم مكانا آمنا وطعاما يسد أودهم فلا يتسولون أحدا ولا يتحكم بهم أحد، أجّل كل متعة يمكن أن يتمتع بها حتى حدوث ذلك، وعندما وجد أن كدهم يضيع وأمله يتسرب من بين يديه تحول لإنسان آخر، إنسان غير عابئ بأي أحد إلا ذاته، حاولت أن أطمئنه، قلت له إنني سأترك لهم نصيبي، سآخذ فقط ما يوصلني للخرطوم، ولكن عندما قلت ذلك كنت وقتها قد تحولت لغريم له، لم يكن ليقبل أن أعطيه شيئا، كم من الأحمال على ظهر وقلب هذا الفتى، ولا يحس به أحد، كل من في هذا المكان تثقل كاهله الأحمال، حتى إنني أتخيل أن رضيع عشة لم يمش إلى الآن من كثرة أحماله، أين سادة هذا العالم؟ أين ذلك النميري الذي يسجن ويقتل من آلام من يحكمهم، أين حكام موريتانيا من الجفاف الذي ألجأني لهنا، وقد يلجئني لما هو أبعد وأقسى؟

خمسة أيام من الحصاد والصيام عن الحديث، غادر في أولها عثمان الوادي ولم يعد هو الآخر، نظرات خرساء كانت تدور بين عشة وكلتومة بين الحين والآخر، نظرات يأس وغضب، حتى العم وأبكر وكأنهما قررا الصيام معنا، فالعم لا يحادث أحدا، وأبكر مشغول بجرحه وذعره وتلفته خوفا من الثعابين، حصدنا خلال هذه الأيام الخمسة كل الذرة والدخن، جعلناهما في أكوام صغيرة أسفل الزرع ليجفا، بدا الزرع كأجساد أطيح برؤوسها، أوراقه آخذة في الذبول حزنا أو استراحة بعد نهاية المشوار، بدأنا اليوم في نقل المحصول لجرن صغير أعددناه خلف حوش الإبل، المئات من القفاف الضخمة تنقلها عشة وكلتومة على رؤوسهن بعد أن أقوم بتعبئتها، تبقى يوم آخر وننتهي من نقل المحصول،

وبعده نبدأ في الدرس، ومازال طه وعثمان غائبين. والعم على حال السكر ليلا والألم نهارا، والصمت يطبق على الوادي. ورغم ذلك فالشمس تعاود الظهور كل صباح، وتغادر تاركة الوادي للنجوم والقمر الأخرس في الليل.

أترقب الطريق منتظرا عودة طه لأغادر هذا الوادي. مر أكثر من شهر ولم يعد، المحصول في الأجولة لا قيمة له بالنسبة لي. فكرت أن أحمل عشرة أجولة على بعيرين ثم أذهب للجنينة لبيعهم، لكن لا أحد يعرفني هناك، ربما يحسبوني لصا ويمسكون بي. حتى الجاز نفد منذ الأمس، والسكر والشاي والصابون نفدا منذ أيام. ونحن معزولون هنا لا يعرفنا أحد ولا نعرف أحدا سوى الضابط. لو ذهبت إليه فسيحمل المحصول كله ولن يعطينا شيئا، يجب أن أذهب للجنينة فلابد أن أجد هناك أحدا يعرفه، فرمضان على الأبواب ولو صمته هنا لن يتبق سوى شهرين على الحج وبالتأكيد لن ألحق هذا الموسم أيضا. ليفوتني الموسم الثاني وأنا في هذا البلد، هل سيستمر العم على سكره في رمضان؟ ماذا دهاني؟ فيمَ أفكر؟ فلأسال العم هل يعرف أحدا من معارف طه، بالتأكيد هو يعرف، أندفع للقطية، تلحظني عشة الجالسة تحت العريش تعد الغذاء في شرود، أدخل فأجد العم جالسا يتحدث مع أبكر، أسأله بغلظة وكأنه مسؤول عما حل بنا

- هل تعرف أحدا يدلني على طه؟

- فلتحمل نصيبك على ظهرك وترحل.

- يبدو أنك لم تفق من سُكْرك بعد، كيف أحمل كل هذا؟

ـ كما أتتك القدرة لتزرعه .

ـ يا عم الموسم على الأبواب .

ـ ألا يفكر أحد ممن في هذا الوادي بالآخرين؟

ـ كلكم معا هنا لا أحد وراءكم، أما أنا فلي أهل ينتظرون عودتي .

هل تحسب أنني تركت أحدا يمكن أن يدلني عليه ولم أسأله؟

ـ والحل؟

ـ الحل أن تنزل علينا صاعقة من السماء فتريحنا جميعا

أغادر القطية، أحضر حمارا وأذهب خارج الحوش، تستوقفني عشة

ـ تذكرت من يمكن أن يدلنا عليه .

تندفع فتحضر الحمار الآخر، تتركه بجواري وتنطلق نحو جرن المحصول، تعود بعد قليل وهي تجر جوالا، تترك الجوال أسفل قدمَي الحمار، تدخل للقطية وتعود وهي تحمل صرة والرضيع .

في الجنينة نتوجه لمحل بقال بجوار السوق، يقوم الرجل عن المصطبة ويترك السيجة لرفيقه الأحول الذي يتطلع نحونا بفضول، أنزل الجوال وأضعه على باب المحل، أقول للرجل أمام البنك

- تلك عينة من محصول طه الذي اتفقت معه على شرائه .

يخرج الرجل ويفتح الجوال ويقلب فيه، يقول وهو ينظر لعشة

- حسنا، رأيتها معه من قبل، كم غلت الأرض؟

- مائة وخمسون جوالا .

- حسناً. قد يبرد حزنه على زوجته.

- أين الرجل؟

يجيب وهو يدخل المحل ثانية

- وماذا تريد منه؟ سآتي غدا لأحمل المحصول.

تقول عشة وهي تمد رأسها فتتوسط البنك في مواجهة الرجل

- يا حاج خلف الله إن كانت إحدى زوجتيه ماتت، فلا يحق له أن يهجر الثانية.

يرتد خلف الله للخلف ويسأل بتعجب

- وأين تلك الثانية؟

- ها أنا أمامك.

تجيب في ثقة. يقول وهو ينظر لها وللطفل فوق كتفها

- لم يبلغني أنه تزوج بثانية.

- وهل من في مثل حالته يمكنه أن يبلغك؟

- صدقني فهو لم يتحدث منذ قِدم.

- أريد زوجي. يجب أن أحدثه.

يخرج خلف الله من المحل، ينفض يديه ويعدل رداءه، ويقول

- اتبعاني.

يتجاوز بوابة الحوش، يدخل للمنزل، عند غرفة أمامية بابها مفتوح للحوش يتوقف، يدق على الباب ويدخل، طه نائما على عنقريب في نهاية الغرفة معطيا ظهره للباب، رائحة دخان عطنة تملأ الغرفة، عدة

كنبات خشبية مفروشة بحصر تحتل معظم جدرانها. على الأرض كليم مزخرف مفروش وسط الكنب. القليل من الضوء ينفذ من الباب خلف ظهورنا ومن ثقوب النافذة خلف طه. أنظر لعشة فأرى عينيها على طه. يهز خلف الله طه فيعتدل برأسه وينظر له. يقول خلف الله

- زوجتك تريدك.

يهب واقفا، ينظر لنا ويتجمد. لحيته كثة. شعره الهائش يحتل معظم ظهره الذي بدا منحنيا وكأنه هرم. يأرجح عينيه بيني وبين عشة، تطفر دموع من عينيه، يتقدم بخطوات سريعة ويحتضنني ويبكى. أضمه لصدري حتى أحس بضربات قلبه المتلاحقة. أتحسس ظهره بيدي، يهدأ نشيجه فيتركني ويتوجه باندفاع ناحية عشة الواقفة مبتسمة، يحتضنها والطفل بينهما، ترخي عشة يدها فتنزل الطفل للأرض بين أقدامهما فيحبو متسلقا قدم طه. يتركها طه ويحمل الطفل ويجلس على كنبة ويبكى، يقول خلف الله وهو يغادر

- سأحضر لكم شايا.

أجلس بجواره، تاركا عشة المصدومة واقفة وفي عينيها دموع متحجرة، أربت على كتفه وأقول

- هل هانت عليك العشرة؟

يمسح رأس الرضيع، ينظر نحوي ويقول

- بل هي لوعة الفراق، يأتي كسكين بحدين يذبح المفارِق والمفارَق.

أعدل طوق جلبابه المفتوح عن قليل ملتوٍ على ذاته وأقول

ـ كلنا مذبوح لفراقها، لكنه قدر الله سيمضي شئنا أم أبينا.

يتحرك خطوة ويناول الرضيع لعشة، يجلس ويقول

ـ صدقت، يمضي والسكين يجتز قلوبنا.

تنزل عشة الرضيع للأرض، تجلس على كنبة قبالتنا، تقول وهي تمد يدها نحو طه

ـ مالك يا رجل؟ هل ستقتل نفسك؟

تلم يدها الممدودة، ينظر طه نحوها، تبرق عيناها وتبتسم بعذوبة وتكمل

ـ الديوك لا تقتل نفسها حزنا على فراخها المذبوحة.

يبتسم وينظر نحوي ويقول .

ـ لم تكن مجرد امرأة، بل كانت كل حياتي منذ نعومة أظافري.

تقول وهي تكمل بغيظ

ـ استرجع، عل الله يبدلك خيرا منها.

يقول وهو ينظر نحوها بأسىً

ـ ماتت ميتة قاسية.

تفتح عينيها محاولة تثبيت عينيه عليها، تقول

ـ قال أديلانو بعدما رحلت: إنها كانت شجاعة وحرة اختارت ميتتها ووقت رحيلها، أما غيرها فينتظر مذعورا لا يعلم من أين تأتيه الضربة ومتى.

ينظر لي برجاء ويسأل

- هل سيغفر الله لها؟

أقول وأنا أضع يدي على فخذه الناحل

- يحاسبنا الله على ما نملك، أما ما لا نملك فلا حساب عليه.

يسأل متشجعا

- أتراها في الجنة؟

أقول والعم يطوف بخيالي

- من كان مثلها وقاسى ما قاسته لا يسكنه الله إلا الفردوس و إلا أين العدن؟

تقوم عشة وتحمل الرضيع وتقول

- هيا لنرحل من هذا القبر.

يدخل خلف الله وعلى يديه صينية الشاي ويقول

- سامحك الله يا زوجة أخي، أبيتي كالقبر؟

تقوم لتتناول الصينية فأرد عنها

- بل جعله طه كقبر ونعيده لك كبيت.

يضحك ويقول

- صديقك بليغ يا طه.

يرد طه وهو ينظر له بخجل

- بل أكرمْتني وآويْتني.

يقول خلف الله وهو يتقدم ويضع يده فوق كتف طه

- إنه بيتك ومفتوح لك وقتما تشاء، ولكن فقط في المسرات.

نعود للوادي قبيل العشاء، يسبقنا طه ويتوجه للقبر وعلى يديه الرضيع، نصل الحوش وكلتومة تخبز على الصاج. تقف عندما تراني ندخل الحوش، تنظر في عيني عشة، تبتسم لها عشة ابتسامة ظفر. تجري وتحتضنها، أنزل ما أحضرنا من الأغراض تحت العريش. أطلق الحمار. يخرج العم من القطية ويقول بغضب

- تأخرتما عليّ، أين الحمار؟

يجيب طه وهو على باب الحوش

- أي الحمير تريد؟

يجرى العم ناحيته، يعانقه ويسأله

- هل شممت الرائحة؟

يجيب طه

- شممتها، شممتها وما زلت.

- غدا الأربعاء، في الصباح سأذهب معك للجنينة، أحضر لك ورقة من الضابط، وأعطيك هدية لزوجتك، ستلحق باللوري المتجه قبل الظهيرة للفاشر[٢٢]، من هناك تركب لوري آخر للأبيض[٢٣]، ومن الأبيض تأخذ القطار لسنار[٢٤]، ومن سنار تبدل القطار وتستقل القطار المتجه للخرطوم، ستصل للخرطوم صبيحة الجمعة، انزل في محطة الشمال، استقل سيارة لأم درمان، ستمر السيارة على مقام المهدي، هناك صلِّ الجمعة في مسجد الخليفة، ثم اذهب لمقام الإمام، اقرأ الفاتحة لنا جميعا ولزوجتي، وتوجه لخادم المقام، تعرفه من بدانته، ستراه جالسا على كرسي يتهدل لحمه حوله، قل له إنك من طرفي

وسلمه تلك الرسالة، سيقوم بما يلزم، لا تدفع له أكثر من عشرة جنيهات، سيصطحبك لينهي لك كل الإجراءات، عندما تتسلم الجواز والتأشيرة، اقرأ الفاتحة مرة أخرى في المقام، واستقل حافلة لسواكن، ستصلها في الصباح التالي، وهناك ستتدبر أمرك على أي سفينة ذاهبة لجدة، ولا تمر علي في طريق عودتك.

يقول طه ويبتسم بحزن رقيق، يناولني الرسالة ويمد يده في جيبه ويخرج رزمة من النقود الورقية، يعد منها ورقا ويناوله لي ويقول

- هذه واحد وعشرون جنيها، عندما تذهب لأم درمان وفي اليوم التالي لوصولك اذهب لدائرة الإمام وضع هذه في صندوق العشور وخذ من الموظف ورقة بها.

ثم يعد ورقات أخرى يناولها لي

- هذه خمسة وثلاثون جنيها نصيبك من الحصاد، بعد خصم ربع الضابط ونصف حقك لعثمان وأهله، تكفيك للوصول لجدة.

يصمت وينظر نحوي، ثم ينفض رداءه ويقول

- لم يعد لدي شيء لك، تبقى أن تأخذ جلبابي لو أردت.

ينهي كلماته ويضحك ضحكة بترها تذكره لزوجته، يكتفي بالنظر نحوي بحنو وسعادة، تسأل كلتومة وهي تنظر لي بملء عينيها فيلتهب وجهي

- هل ستغادر؟ هل ستغادر دون أن تودع همزة؟

أرد وأنا أنظر للعم

- سأمر على همزة وأودعه.

يسأل طه كلتومة

- أين الرجل؟

تصمت وتقوم خارجة وكأن الأمر لا يعنيها، ترد عشة

- رحل منذ أسابيع ولا نعلم عنه شيئا.

يطيل طه النظر للعم الذي وجم وصمت قليلا، ثم قال لطه بحزن

- لا يمكنك أن تفرق بينه وبين أحد منهم، إلا أنه لا يشرب الخمر.

ثم يكمل هو ينظر نحوي مبتسما كمن تذكر

- فلنحتفل الآن بأن حمار الله خرج سالما من هذا الوادي وسيذهب لمالكه.

يغمرني فرح رقيق

- لابد من عشاء خاص للاحتفال.

تقول عشة وتقوم خارجه، تعود كلتومة بالرتينة الثانية، تعلقها فوق سرير العم، ضوء الرتينتين جعلا القطية كالنهار، تجلس على العنقريب الآخر في مواجهتي وعيناها عليّ لا تنزلهما، أقوم وأتشاغل بإنزال جرابي، أضع المصحف وردائي الآخر

يقول طه المستند على الجدار أسفل النافذة

- دع جنيهين فقط في جيبك أجرة للطريق، ودس الباقي بالجراب.

أعلق الجراب ثانية وأجلس بجواره وأقول مبتسما

ـ فعلت هذا من قبل فسرق رجل صالح ما به .

يقول وهو يستدير نحوي مبتسما

ـ لو لم يسرقك الرجل الصالح ما حججت .

أقلب عيني فيهم وفي القطية وأقول

ـ أخشى أن تكون رؤيتكم أفضل ما سيحدث لي في هذه الرحلة .

ينظر العم نحوي ويقول بحزن

ـ ربما رحلت من ديارك لتلتقينا لا أكثر .

يسأل أبكر بعفوية

ـ ألن نراك ثانية يا عم؟

ينزل العم عن العنقريب ، يجلس على الحصير بجوار أبكر ويجيبه

ـ قلت لك من قبل على قدر ما تشتاق لمن تفارقه يبقى حيا بداخلك .

يكمل طه

ـ ما زلت صغيرا يا أبكر ، سيمر عليك الكثيرون ، سيبقى داخلك منهم من تشاء وسيرحل من تشاء .

تنادي كلتومة أبكر وهي تتحسس موضعا بجوارها ، يقوم فيجلس فتحتضنه وتقبله ، تقول وعيناها بين طه والعم

ـ دعوا الصبي يبوح بما في قلبه ، فأسوأ ما نعلمه للصغار أن يكتموا ما يحسون به .

تدخل عشة وفي يدها محراكا ، تجلس في المساحة الفارغة بجوار أبكر ، أسألها ضاحكا

- لماذا لا تجلسين بجوار زوجك؟

تبسم خجلا. يضحك طه وينظر للعم الذي يقول

- نعم الاختيار يا عشة.

تضحك كلتومة. أرفع عيني نحوها. تلتقي أعيننا. لم أر عيونا تشع حزنا مثلما تشع عيناها. تقول عشة محمرة الوجه

- ما كان ليدلنا عليه لو لم أدع ذلك.

ثم تخرج مسرعة وهي تقول بصوت خفيض

- الطعام سيحترق.

تعود عشة ومعها الطعام. دجاجتان وملاحا وعصيدة باللبن. نتناول الطعام بشهية غابت عنا منذ زمن. ينتهي طه من طعامه سريعا. يقول للعم وهو يلعق أصابعه ويقوم

- سأذهب لإحضار الفحل الشارد.

ترفع عشة الآنية. تعود فتتهامس مع كلتومة وتخرجان، لحظات وتعودان وعلى وجهيهما ابتسامة. يسأل العم

- ما وراءكما؟

- يجب أن يكتمل الحفل.

تقول كلتومة، وتمد يدها فتوقف العم وتجلسه على العنقريب، يقوم أبكر فيجلس بجواره، تمد يدها نحوي، أنظر في عينيها وأتجمد مكاني، تنحني وتمسك بيدي، تسري رعدة في جسدي، تجذبني فأقوم مقتربا

منها، تكاد أنفاسها تعطر وجهي وعيناها في عيني، تبتسم وتفسح الطريق، تدفعني برقة نحو العنقريب الفارغ، عشة وبيدها إناء نحاسي تجلس بجواري، تقف كلتومة وحيدة وسط القطية، يغمرها الضوء فيزيدها بهاء، رغم الحزن في عينيها إلا أن وجهها ينضح جمالا، تدق عشة دقات متباعدة خافتة على الإناء، يقهقه العم ويقول

ـ ما أجمل هذا الجنون.

ترفع كلتومة صدرها وتشد جسدها وتتمايل ببطء مع الإيقاع، يصفق العم مع الإيقاع فيتناغما، يتسارع الإيقاع فتطوح رأسها لليمين وتتحرك خطوات في نصف دائرة وجسدها يهتز، تتراجع خطوات راقصة ورأسها لليسار وهي تضرب بقدمها وتميل بجذعها للخلف، محافظة على حركتها بينما اهتزاز جسدها يتزايد، تنزع منديلها فتتهدل ضفائر شعرها الكثيفة السوداء الفاحمة على كتفيها، تطوح رأسها يمينا ويسارا فتتلاطم الضفائر مخفية وجهها، يتعالى الإيقاع وتتسارع وتيرته فتتقدم مسرعة وتمد يدها مفرودة نحوي وهي تهتز، تلكزني عشة فأمد يدي حتى كدت ألامس يديها، تنسحب مسرعة للخلف، تدفعني عشة ثانية فأقف، تدفعني حتى توقفني وسط الغرفة، تدور كلتومة متراقصة في دائرة حولي وعيناها لا تنزل عن عيني، أدور معها مطلقا العنان لعيني لترتشف من تورد خديها، تمد يديها فأمد يدي فتتباعد وتدور من جديد، تعطيني ظهرها وتدور متراقصة تلامس يد العم وأبكر الواقفين خارج الدائرة، تلامس الأيدي بأناملها وتتطوح، يصل الإيقاع لمنتهاه فتستدير نحوي وينجرف جسدها المتراقص في سرعة تنهب بها الخطوات الدائرة، تمد

يديها فتدفعني فأتراجع للخلف، تقف وتهز جسدها في سرعة جنونية. تتوقف فجأة وتجلس ووجهها بين كفيها، آثار اهتزاز تتصاعد من جسدها، وصوت بكاء يعلو من بين يديها التي تحتضن وجهها.

يبقى الجميع معي، حتى كلتومة لم تفارق القطية حتى انتصف الليل، قام العم فرقد على عنقريبه، ثم قامت هي وعشة لقطيتهم واصطحبوا الرتينة، نام أبكر وهو جالس، مددته على العنقريب الآخر. نظرت للعم الذي سرعان ما غط في نومه مفتوح الفم. أطفأت الرتينة وغادرت للخارج، لم يكن العم ينام ليلا منذ وقت طويل. الليلة ينام سعيدا بلا أدنى قلق. سأفتقد هذا الوادي. أتمنى أن أذرعه كله مشيا قبل أن أغادره، أتلفت في كل اتجاه مودعا الأشياء. تقع عيناي على قطية النساء، أتذكر كلتومة، هل ستبقى هي وأهلها هنا، يمكنهم البقاء. فهذا الوادي به الكثير من الخير. أردد سؤال أبكر. ألن أراها ثانية؟ لو تحسنت الأحوال يمكنني المجيء لزيارتهم. فمعي ما يثبت أنني سوداني، لن يوقفني أحد، ولكن متى تنتهي الرحلة وأعود لأهلي وتتحسن الأحوال؟ سنوات ستمر قبل أن يحدث هذا. عندها قد تكون رحلت عن هنا، أو دخل بها عثمان وأصبح لديهم أولادا. سأكون بالنسبة لهم مجرد ذكرى، ستلتقي عندها أكفنا ووجوهنا وقد دهنتها الأيام بلون من الجفوة، الأفضل أن نظل ذكرى. فقط رجل عبر في حياتهم كان يربطهم به مصير وجود، وغادر له ما له وعليه ما عليه. كان الجميع متسامحا معي الليلة، يدرون ما بي. لم تكن عيونهم تتلصص على نظراتي لكلتومة، حتى هي أعطتني وجهها وعينيها لنصف ليلة بلا أدنى خوف أو شعور بالذنب تجاه

عثمان، كانت تتحدث معي وتنظر لي وعينيها في عيني، كانت تتلقى نظراتي على وجهها بتسامح وود وعطاء، عندما قامت هي وعشة لتدخلا القطية حملت الرتينة ثم نظرت في عيني طويلا وغادرت، نظرت نظرة عاشقة، تشبه نظرتها كثيرا تلك النظرة التي كانت في عيني مريم عند وداعنا إلا أنها بدلا من الدمع كانت تنضح بشيء ما بل بمزيج من الأشياء، نعم كانت تنضح بالحب، ربما التقينا في المكان الخطأ أو الزمان الخطأ، لكنني الآن متأكد تماما أنها تكن لي حبا، كم من الأشياء الرائعة نغادرها ونمضي على مر حياتنا حتى قبل الموت، الموت يتكرر معنا كل لحظة في فراقنا لتلك الأشياء، أيا كان ما أمثله لها أو تمثله لي، هي فقط ذكرى ستنبت في داخلي عند الصباح، وستكبر أو ستذبل، يجب أن لا تتعدى أكثر من ذلك.

لدي الكثير مما يمكنه أن يشغلني حتى عن نفسي، ها هو الطريق قد بات أمامي ككف يدي، عيناي معلقتان بسواكن والخرطوم والأبيض وأم درمان والفاشر وكوستي وسنار، وكأنها قناديل علقت على أشجار نبتت في صحراء قاحلة مظلمة، على قدر ما أقترب من أي منها على قدر ما يقصر الطريق، نعم الرجل طه، حقا لو لم ألقه كيف كان سيتأتى لي أن أحج، كيف يمكن لإنسان يقاسي ما قاساه طه أن يساعد كل من حوله بهذه الهمة؟ من أي معدن خلق الله هذا الرجل؟

تأخذني قدماي للبئر، أتوضأ وأشرب، تنق دجاجة ترقد فوق كومة عشب بجانب السياج، يفزع الديك بجوارها ويؤذن، لست غريما لك، لا تقلق، ومن الغد لن أعود غريما لأحد، أتحرك خارج الحوش تجاه

التل حيث ترقد على بعد أمتار من سفحه القبور السبعة، أقرأ الفاتحة أجلس على شفا القبر الأكبر: هناك ما يجب أن تعلميه وتوافقي عليه، الرجل لا يصح أن يبقى هكذا وحيدا، وعشة ترغب في الزواج منه، هي لا ترغبه لذاته بل كرجل، فقط الرجل الوحيد المتاح أمامها، ربما ترى فيه رجلا حدبا وعطوفا ومرحا، لكنها لا تتعلق بكل هذا، هي تتعلق برغبتها في أن يكون لها رجل تنمو كعشب متسلق رقيق أسفل جذعه، تريد أن تغرس جذورها الهشة تحت ظله، وتستريح فروعها الناعمة على فروعه الصلبة، تريد أن تزهر وتتداخل نواراتها الملونة الصغيرة مع أوراقه الظليلة، فلتأذني له، فالرجل يحبك كما لم أر أحدا يحب، كاد يترك الدنيا في أثرك.

أغادر القبور متوجها للزرع، كاد الفجر أن يطلع، الديك يؤذن بلا غريم، يحاول جر الصباح القادم لتسد الدجاجات جوعه، أو ليرد على صيحات غرمائه المترددة في المدينة البعيدة، يقدم الكلبان من الوادي مسرعين ينبحان وهما وسط الزرع، ثم يتوقف نباحهما لرؤيتي، يهزان ذيليهما ويحاولان التمحك بي، ألم ردائي وأهشهما، يتحاكان في بعضهما ويسيران مترافقين خلفي، تحت شجرة العدريب أقف، يتساقط على كتفي أشياء، أمسك بأحدها وأنظر للشجرة، الفروع كلها مغطاة بالجراد، أسعى تجاه الماهوجني، الجراد كغطاء كثيف يغطي فروعها، أركض لكل الأشجار وسط الزرع، جميعها محملة بآلاف الجرادات، أهرول لجزر الذرة، العيدان محملة بالجراد الذي يتداخل في حركات متناغمة وكأنه يستعد للشروق، أعدو تجاه الوادي، ما أصله من أشجار

وشجيرات ترزح تحت حمل ثقيل من الجراد، أهرع تجاه الحوش، يتبين في الأفق الشرقي الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، أدق على باب قطية العم بعنف، أجري لقطية النساء وأدق الباب بطرقات عنيفة متلاحقة، أهرول لعريش المحصول، أحضر ما بقي من أجولة فارغة، يقابلني العم والنساء يجرون نحوي مذعورين، أصرخ وأنا أحمل الأجولة وأتجه ركضا للزرع

ـ الجراد.

يجرون خلفي، يحمل كل منهم جوال ويتجه لشجرة، يضرب أغصانها بأعواد دخن فيتساقط الجراد، نضعه في الأجولة، ونعيد الضرب والجمع، تصرخ كلتومة، طه وعثمان يندفعان نحونا من الوادي جريا، يحمل كل منهم جوالا ويتجه لشجرة، الأجولة تمتلأ بالجراد لنصفها، النهار يبدأ في البزوغ، أسراب الجراد قادمة من بعيد تجاه الوادي كالغيم، يغادر الجراد الأشجار ويهبط للزرع، ينتشر فوق الأعواد، يبدأ اللون الأخضر على الأشجار ووسط الوادي وفي جزر الدخن والذرة في الانسحاب، يجري طه تجاه جزر الفول والكركديه والسمسم، نجري خلفه، يمسك كل منا بحزمة من أعواد الدخن، نلتف حول حدود الجزر، تهبط غيمة من الجراد وسط السمسم، نجري جميعا تجاهها، نضرب الجراد بالأعواد لإبعاده عبثا، تهبط غيمة ثانية فثالثة فرابعة ويتوالي هبوط الغيمات.

الشمس تشرق، وغيمات الجراد تحلق بعيدا عن الوادي، في تتابع كثيف لا نهائي، يكاد يسد ضوء الشمس، الكلاب تجري خلف أسراب

الجراد تشيعها بنباح مسعور، أتلفت حولي. الكل جلوس قانطون وسط الأرض المجهضة النازفة بأوراق الكركديه الحمراء القانية المفتتة على الأرض، وزهور الفول السوداني الصفراء المدهوسة وسط التراب. وزهور السمسم البيضاء الثلجية الذابلة وحيدة بجوار جذور النباتات العارية من أي أوراق، أي انسحاب للحياة حدث في تلك الدقائق. أهذه الأرض التي كانت منذ قليل زرع ينبض بالحياة والخير والاخضرار. لم يبق منها سوى جذوع جافة فلتت من المجزرة تتلفت علينا ونتلفت عليها.

عثمان إدريس دار

الجنينة غرب دارفور- أكتوبر ١٩٦٩

- جراد لم نر مثله منذ زمن، أتى على كل شيء، يقولون في المذياع إن خسائره فادحة.

يقول خلف الله الواقف مستظلا بجوار عريش المحصول لطه الواقف تحت الشمس، صبيانه يحملون ما تبقى من المحصول على عشرة جمال باركة، ثم يكمل بعد أن ربطوا الأحمال وقامت الجمال

- هل أترك لك شيئا من المحصول؟ فربما تحتاجه

- لا، فغدا سنرحل جميعا.

يعد نقودا ويمدها لطه، يدس النقود بجيبه ويقول

- فلتنتظر حتى أحضر لك قطيعك.

يرفع الرجل صوته وهو يشير لأتباعه ليصبروا انتظارا للقطيع

- عندما تتحسن الأحوال سأرسل من يبلغك.

يحضر طه قطيع الإبل يسوقه خلفه ممسكا بخطام جمل، يسلم الخطام للرجل ويقول وهو يشير للفحل

- ها هو قطيعك، لا تفرط في هذا الفحل حتى لو أطعمته طعام أولادك.

ينظر الرجل سعيدا للجمل، يلف حوله وينحني لينظر لبطنه ثم يسوق القطيع والمحصول ويغادر.

يقول طه وهو يغسل وجهه وتصب عليه عشة

- سيكثر قطاع الطرق واللصوص، ثم سيبدأ شجار لا ينتهي على المراعي المتبقية، سيقتل أناس، وستدفع دياتهم دواب، ما تلبث أن تموت أو تباع بأبخس الأثمان، سينبت الصراع حيثما مر الجراد وكأنه يضع بيضه فيفقس دما.

ثم يكمل وهو يجفف وجهه بطرف ردائه

- سوف آخذ بقية القطعان لأصحابها، سأعود قبل العصر، عليكم لم ما ينفعنا في الطريق أو حيث نحل، لا تتركوا شيئا ذا قيمة، فلا ندري من سيحل إذا رحلنا.

يسوق طه القطعان فتتبعه الكلاب، يخلو الحوش إلا منا ومن الدجاج الذي تجري وراءه عشة وكلتومة ليذبحاه هو الآخر، العم وعبد الله وأبكر في القطية، يهلل العم قائلا بمجرد دخولي

- أهلا بالفحل الشارد.

ثم ينظر في عيني بعينين يملأهما الحنو

- حسبت أنني فقدتك للأبد.

أجلس على الأرض مرتكنا إلى الحائط قبالته

- كلانا قدر الآخر، حتى في خروجي لم نفترق كثيرا.

يدلك قدمه

ـ هناك لم تكن عثمان الذي أعرفه.

يصمت كلانا. تبقى نظرته معلقة بي. ما يلبث أن يصرفها عني وينظر لعبد الله الذي يتوقف عن قراءة القرآن ويغلق مصحفه. يقوم عبد الله ويتمدد على العنقريب بجوار أبكر. يغمض النعم عينيه ويرتكز على يديه ملقيا جسده للخلف ويردد

ـ كلانا قدر الآخر. كلانا قدر الآخر.

أغادر القطية، الشمس مازالت تتسلط على الوادي المحطم العاري بعد أن نزع الجراد الملاءة الخضراء التي كان يتدثر بها. غصون الأشجار الجرداء تغزل أشعة الشمس في ملاءات وهمية لا تدثر الأرض. الآن لا ظل أو حماية من صنع الله. فقط بشر في مواجهة القدر. على باب الحوش أقف، الوادي منبسط أمامي كحصير بال ممزق. كانت عودتي مع طه في الوقت المناسب، وقت التشرد الذي يبدو أنني تأقلمت على الحياة معه، وقت الحصاد والاحتفال لا مكان لي فيه، لا يدعني الله لحضوره، ولو حضرته يتحول مأتما، الحياة مع الهمباتة أقل مرارة من تلك الحياة، نعم هم معرضون في كل وقت للخطر، القتل أو السجن، لكنهم مرتاحون لأنهم لا يفكرون في الغد، فقط اليوم ولا غد في أفقهم، يفاجئهم الغد بلا قتل أو سجن فيفرحون به، أما هنا فالغد كلما جاء يفاجئني بتحطيمه لأحلامي، لو أن أيا منهم يمتلك القدرة على أن يحلم ويتمسك بحلمه ما كان قد تحول لقاطع طريق، عشت بينهم أسابيع عرفتهم بحق، بداخلهم

رحمة وشفقة يخفونها خلف قسوتهم مع البشر، وفي الليل يسكتون ضمائرهم وخوفهم وآلامهم بالخمر والطعام، كان لكل منهم حياته، ثم طرد منها لذنب ليس في الغالب ذنبه، كبيرهم يعقوب فرَّ على وجهه من قسوة أب لم يعلمه مهنة ولا حرفة ولا حتى قرآنا، فوجد نفسه متخبطا بين بخل الناس وطمعهم وخيانتهم حتى مقتهم جميعا، ولكنه عندما تحول لقاطع طريق، وبدأ يرفع عصاه أو سلاحه أو سكينه في وجوههم، ظهر له كم هم ضعفاء، بات يشفق عليهم، ولكنه في النهاية إما أن يقطع طريق الناس وإما أن يُلقى به في السجن أو حبل المشنقة، والماحي صاحب الجسد الرقيق والوجه الطفولي قتل جاره خطأً في فورة غضب ومعركة لم يكن يبْيت النية لها أو يتخيل حدوثها، ثم ها هو يدفع حياته ثمنا للحفاظ على رغبته في الحياة، وعجبنا قاسي الملامح خفيف الظل قتل راعيين منذ سنوات في صراع على المرعى، والهادي المجنون عظيم الجسد الذي قتل أسرة بأكملها كان يحاول سرقتهم في الشمالية.

لا أعلم كيف سمحت لطه أن يصفعني، والغريب أنني انصعت وعدت معه، ليست تلك الكلمات التي قالها

- لست مخلوقا لهذه الحياة.
- تنتظرك زوجة وأهل.
- هؤلاء طردوا من الحياة قبل أن يتحولوا لخناجر في خصرها.
- تحفظ القرآن ولديك يد غير مكبلة بقيد جرم ارتكبته.

لا ليس هذا، لم أرد له الصفعة لأنني أبجل هذا الرجل وأحبه، له من الأفضال الكثير ولا يمكنني أن أمد يدي نحوه إلا بالخير، الرجل صفعني

وعيناه يملأهما الحب والشفقة والخوف عليّ، أما عودتي معه فكانت رغبتي التي لم أكن لأحققها لولا مجيئه، فلم أكن لأعود وحدي ذليلا لهم، تمنعت عن العودة أول الأمر حتى لا يلحظ رغبتي، فيجب أن أنهي هذه العلاقة التي تكبلني ولا تجعلني قادرا على الحياة، طوال الأيام التي قضيتها مع الهمباتة لم يكن يجول بخاطري إلا هي، جسدها يلهبني وإعراضها عني يصيبني بالجنون، لو لم تكن زوجتي ما أصابني أي ألم، موطن دائي أنها زوجتي، لو تخلصت من هذا القيد فسأستريح، ولكن ها هو الجراد يأبى إلا أن يرحل بحلمي الأخير، أن أتحرر منها، لا يمكنني الآن أن آخذها من يدها وأقول لها أنت حرة، فكم سأكون وضيعا لو فعلتها الآن

- لا تقلق، حصدنا ما يقيم أودنا لشهور.

تقول عشة وهي تقف بجانبي وبيدها دجاجة تزعق وبالأخرى سكين برونزية تلمع، لا أرد فتجلس بجواري، تبسمل وتكبر وتذبح الدجاجة، ينبثق الدم القاني، يخضب الأرض ويتكور، تلقي بالدجاجة تتلوى وتنازع الروح، تقف وهي تنظر لي وبيدها السكين الملطخ، تقول

- حمدا لله على سلامتك.

تتقدم كلتومة وبيدها الديك الصامت رافعا رأسه في شموخ، تنظر لي وهي قادمة، أتحاشى النظر لها، تعطي الديك الصامت لعشة وتقف أمامي، تذبح عشة الديك وتلقيه بجوار الدجاجة، تتجه بالسكين نحو القطاطي، بعد خطوات تقول دون أن تستدير

- لا تتركا أيا منهما للكلاب.

تقول كلتومة متهدجة الصوت وهي تدوس على الكلمات وعيناها تطاردان عيني المتلفتتين

- حتى الكلاب لا تترك إناثها وتذهب لا تلوي على شيء.

- لسنا كلابا. نحن أوضع من ذلك بكثير.

- يضعك الناس حيث تضع نفسك، هكذا علمني أديلانو، وأنا لا أقبل الارتباط بأقل من إنسان. لماذا عدت إذن؟

- عدت لأنني عثمان وأنتم أهلي، شئنا أم أبينا.

- مجنون من يتخيل أنه يمكن أن يضيع فقط إذا فارق أهله.

- وهل ما نحن فيه سوى جنون؟

- لست الرجل الذي عرفته وأحببته.

- لست سوى ذاتي. فقط الاختلاف في عينيك.

- أنت عميت حتى عن رؤية نفسك. ألا ترى حالك؟

- أنت التي عميت عن رؤية ما بقلبك.

- لم تعد سوى بقايا رجل عرفته.

- وهل أنت كلتومة التي أحببتها؟ من زرع بداخلك كل هذه القسوة؟

- تحصد ما زرعته داخلي.

- فقط كنت أبذل كل ذاتي من أجل حوش آمن وقوت يكفينا جميعا.

- من أجل ذلك تركت الحصاد ومضيت لتعمل كقاطع طريق؟

- بل تركت أملا محطما وحلما منكسرا.

- وتركتني وسط ركام أحلامك.

ـ كنت أحاول الفكاك من قيود أرسف بها.

ـ منذ متى وأنت تعتبرنا قيدا؟ منذ غادرنا القرية أليس كذلك؟

أصمت، فتكمل

ـ إن كان هناك قيد فهو أنت ذلك القيد الذي يلتف حول رقبتي.

ـ عندما أطمئن عليك، سوف يتحرر كلانا من ذلك القيد.

ـ أما قيدك فاعلم أنني منذ هذه اللحظة قد نزعته عن رقبتي.

تنحني فتأخذ الدجاجة المذبوحة وتدلف للداخل، أجلس مستندا على سياج الحوش، تتملكني رغبة عارمة في أن أبكي، تتداعى لعقلي القرية ببيوتها وطرقاتها وزرعها وأهلها، أبي وإخوتي المقتولون وسط الساحة، رائحة شواء الذبيحة والدخان الطيب المتصاعد منها، صوت طلقات الرصاص المدوي، يوسف وأنا أسجيه في القبر، همزة خلف الضابط ودموعه التي كان يصبها في قلبي، زوجة طه وأنا أكشف عن وجهها الميت، كوخي المربع المزين بالرسوم المزركشة، القبلة التي أخذتها عنوة من كلتومة المتمنعة على شاطئ النهر، لبن الأبقار ورائحة العشب المتصاعدة منه، رحيل أمي وبكاء أبي الوقور على قبرها، آيات القرآن على اللوح، العم أديلانو الجالس وبيده العصا انتظارا لأقل خطأ، كلتومة الطفلة التي تخطر وسطنا بردائها الملون وعينيها البنيتين الساحرتين، نظراتها لي من بين كل الصبيان، كلتومة برداء الزفاف وحنائه تمشي بجواري تكاد لا تدوس الأرض، رؤيتنا للكوخ أسفل الغابة، وتلك النظرة الحالمة التي سكبها كلانا في قلب الآخر، أضع رأسي على ركبتي وأنخرط في البكاء.

تضع عشة يدها فوق كتفي، أنظر لها بعينين استحلبهما الدمع فباتتا حمراوين مشققتين، تجلس بجواري، تسأل بيأس

ـ أما من نهاية لما أنتما فيه؟

ـ النهاية قريبة.

ـ هل تعلم ما قاله أديلانو عنا بعدما رحلت؟

أنظر للوادي، فتكمل

ـ قال: نحن كقطيع من الجاموس البري، مجبول على الرحيل خلف الماء والعشب، على شواطئ الأنهار تنتظره الأسود لتخطف بعضا منه، وفي المراعي تنتظره النمور والذئاب لتخطف بعضا آخر، وهو بينهم لا يملك إلا التكاثر والمضي في رحلته بين الماء وبين المرعى.

تقوم وتلمس كتفي بحنو، تحمل الديك المذبوح وتغادر، وبدون أن تتلفت بحثا عن الدجاجة المذبوحة تسأل

- أين الدجاجة؟

- في الداخل

عند الأصيل يعود طه على أحد الحمارين تتبعه الكلاب، بمجرد حضوره يتناولون الغداء وأنا جالس مرتكنا إلى جدار القطية لا ألتفت إليهم، يقول العم أديلانو

ـ فلتدعوا الديك لعثمان علّه يجوع.

ثم ينظر لطه ويسأل

ـ متى الرحيل غدا؟

يجيب طه بتقتضب

- بعد الفجر.

تنبح الكلاب. يصغي طه لها. يعلو نباحها ويقترب. يقوم وينظر من الباب ثم يعود لتناول الطعام. بعد قليل ينادي صوت أجش وسط نبح الكلاب. يتوقف الجميع عن الأكل سوى طه الذي يكمل طعامه بهدوء. ينادي الصوت ثانية. فيتجاهله ويأكل. يقف الضابط على حصانه أمام الباب. يلامس ظله ظل القطية. عندئذ يقوم طه ويتوجه نحوه ويقف على العتبة. يسأل الضابط الذي يبعد الكلاب عن أقدام حصانه بالسوط

- ألم تسمعني؟

يزجر طه الكلاب فتبتعد. يقول ببرود

- تفضل لتناول الغداء.

يدخل طه ويجلس ليكمل طعامه قائلا

- فلتكملوا غداءكم.

يدخل الضابط تاركا حصانه في الحوش، يجلس على العنقريب، يطوي السوط ويضعه بجانبه. يخلع طاقيته ويفتح الزر أعلى بزته ويزفر، ينظر له طه ويقول

- لدينا ديك فلتنزل لتأكل.

يقول العم وهو ينظر للضابط المشمئز

- الديك لعثمان فلدينا سفر ويجب أن يتغذى.

يسأل الضابط وهو ينظر لطه

ـ أنويت الرحيل معهم؟

يجيب طه بعدما يبتلع

ـ غدا، تركت لك الخراف عند الشيخ خلف الله.

يسأل الضابط بغضب مكتوم

ـ أين النقود؟

يقوم طه عن الطعام، يخرج للحوش، ينظر الضابط لعبد الله ويسأله

ـ كيف حالك؟

ـ بخير.

ينظر للعم ويسأل

ـ ستريحنا منك إذن؟

ـ كلانا سيرتاح من الآخر.

يجيب العم بوجه عابث، يدخل طه ويده تقطر ماء، يمسح يديه في ردائه، يسأل الضابط

ـ هل أحضرت الأوراق؟

ـ نعم.

يجيب الضابط، فيخرج طه نقودا ويعدها ويقدمها للضابط، الذي يسأل بدون أن يعد النقود

ـ كم؟

ـ نصيبك.

يرد طه، فيعاود الضابط السؤال وهو يقلب الأوراق وكأنه استقلها

ـ قلت لك كم؟

ـ خمسة وأربعون جنيها.

يسأل الضابط بغضب

ـ ألم تغل الأرض مائتين وعشرة جنيهات؟

ـ خصمت العشر للزكاة.

ـ لا علاقة لي بزكاتك.

يقول الضابط بصوت مرتفع، يخرج طه ورقة من جيبه ويمدها له ويقول

ـ هذه جنيهات خمس.

يأخذ الضابط الورقة ويسأل

- كم كانت ستغل بقية الجزر التي لم تحصد؟

- مائة جنيه.

يجيب طه بحذر، فيقول الضابط بحزم

- نصيبي منها خمسة وعشرون جنيها.

يصرخ عبد الله بفزع

- ولكن الجراد أكلها.

ينظر الضابط لعبد الله شزرا ويقول

- الجراد أكل الزرع ولم يأكل الاتفاق، لا ورق بدون الخمسة والعشرين جنيها.

يقول عبد الله بيأس

- رد النقود ولا نريد ورقا.

- إذن موعدنا في الخراسة بعد ساعة لا أكثر.

أغادرهم. أترك القطية خلفي وأذهب لأسفل تعريش. آخذ عصا والسكين الملوثة بدماء الدجاج. أخرج من الحوش. أجري حتى فوهة الوادي. أنتظر أسفل الصخرة الناتئة من التل وعيناي على الوادي. سأقتل هذا الرجل، هو وأمثاله من يشيعون الخراب في هذه الدنيا. سأخلص العالم من أحدهم. ليس مؤمنا لأدخل فيه جهنم. ولو حمل رأسه والدم يشدخ من جرحه وحاجني أمام الله. سأطلب أن يفتش وسيخرج من جيوبه بقرا وإبلا وحبوبا وكذا سرقهم من خلق الله، بل إنه سيأتي أمام الله وهو يحمل جبلا من المسروقات على ظهره، عقاب المفسدين في الأرض أن يقتلوا. وطالما غاب من يرد الحقوق فسأقتله قصاصا على أفعاله، مثله هو من حرق قريتي. بل ربما أقرباء له، نفس القسوة التي تشع من وجوههم مختلطة بالكبر والصلف. ها هو يشق الطريق وسط الوادي مسرعا. تتبعه الكلاب تنبح وتحاول الإمساك بأقدام حصانه. يسبقها فرحا بما سلبه يكاد يطير من فوق حصانه. يسير وسط الوادي الذي خلفه الجراد حطاما. وخلف هو ساكنيه مساكين سيتكففون الناس عما قريب. يترك وسط الوادي ويتمهل بحصانه مقتربا من الفوهة، شمس نهايات الأصيل الغاربة تعظم ظله حتى يفترش جزءا كبيرا من الوادي. بدت ملامحه القاسية أكثر ارتياحا وهو يتمهل أكثر ويخرج النقود من جيب سترته ليعدها مبتسما. يتجاوزني متمهلا وهو يدس النقود في

جيبه ويضحك، أحمل العصى بيميني والسكين بيساري وأسير خلفه على أطراف أصابعي، أصبحت خلف الحصان مباشرة، أسمع زفير الحصان المرتفع من أثر الجري، أضع السكين في فمي، أمسك العصا بكلتا يديّ، أضربه على رقبته الغليظة بالعصا فيترنح ويسقط عن حصانه الذي يصهل بفزع ويرفع قدميه الأماميتين ويتوقف للحظة ثم يفر جاريا، أقترب منه، ينظر لي بعينين مذعورتين، يمد يده محاولا إخراج مسدسه من جرابه، أضرب يده بالعصا فيلمها، أجلس على صدره والسكين بيدي، أنزع مسدسه من جرابه المفتوح وألقي به بعيدا، أنظر في عينيه المذعورتين، وجهه متقلص ينضح بالعرق، يبتلع ريقه ويهم أن ينطق، أضع السكين على رقبته، يدفعني ويقوم جاريا تجاه مسدسه، أمسكه من الخلف واضعا ذراعي الأيمن على رقبته رافعا رأسه، يحاول التملص، أمرر السكين بعمق أسفل ذراعي من اليمين لليسار، ينفجر الدم ويخور كالبقرة فأتركه، يمسك برقبته الذبيحة ويجري، خطوات ويسقط على ظهره واضعا يديه على جرحه، ينتفض كانتفاضات الدجاجة الذبيحة، ترتخي يداه عن رقبته، تسقط بجواره مدرجة في الدماء، يشكل الدم بركة تتوسطها رأسه العارية، دقائق ويهمد جسده، أجلس على الأرض بجواره، أمسح السكين في ردائه، أمعن في تنظيف السكين بسترته.

يضوي مسدسه البرونزي على التراب، يقدم طه لاهثا، يقلب في الضابط بدون أن ينظر لي، يمسح دما على يده، ثم ينحني عليه ثانية كمن تذكر، يخرج النقود من جيب سترته، يلتقط المسدس عن الأرض، يقول لي بغضب

- لماذا قتلته؟ أجننت؟

ثم ينظر لي ويقلب ردائي وذراعي الملوثة بالدماء فأقول له

- يجب أن أحضر همزة.

فيرد

- لقد أضعت الفتى للأبد، لو أحضرناه لعلم الجميع أننا القتلة. سأتأكد من ذهاب الحصان بعيدا عن الوادي. عليك جره خلف التل. ادفنه ولا تبقي له أثرا، سأحضر لك ثوبا جديدا من الجنينة. إياك أن تبلغ أحدا بما حدث.

أجر جسده خلف التل، الشمس الغاربة لم تجر ذيول ضوئها المتخلفة بعد، أعود للحوش، بجوار القبور مازال الجاروف مركونا على جانب، أتناوله وأذهب للبئر، أشرب من الدلو. أغسل وجهي ورأسي وذراعي الملوثة بدمه، تلمحني عشة، تأتي نحوي. آخذ الجاروف وأهرول، تنادي فلا أرد، تسأل بصوت مرتفع

- ألديك ما تدفنه؟

أركض حتى أصل للجسد، أجلس لأستريح بجواره، فمه مفتوح وعيناه شاخصة للسماء، الدم متجلط على جرحه وأسفل رأسه، عروق رقبته المتقطعة هاربة داخل الجرح الدموي المفتوح، تضاءل جسده داخل بزته، أتحسس وجهه البارد أعبث بشاربه، تجرفني رغبة في تعريته من ملابسه، أريد أن أرى ذكره، أفتح أزرار سرواله وأنزله حتى ركبتيه، أعري لباسه، يبدو ذكره الضئيل ملتصقا بجلده، أتفل عليه، أعيد لباسه

وسرواله، أضع الجاروف على صدره، أمسك بذراعيه وأجره، الجسد ثقيل، ربما من كثرة ذنوبه

- يمكنني المساعدة.

أرتد فزعا فتسقط اليدان، تظهر عشة بجوار الجسد، تتقدم وعلى وجهها حزن، تمسك بقدميه وتترك لي اليدين، نحمله حتى نبتعد تماما عن الوادي، تتلفت وتتحرك تجاه التل، تدق بقدميها في عدة مواقع على سفح التل، تقول

- هنا.

أبدأ الحفر وأتركها تقلب في جسده، تخلع ساعة من يده وحافظة من جيبه الخلفي، تفتحها ثم تدسها والساعة في صدرها، تعاود البحث في جيوبه، تهم بنزع ملابسه، أسألها

- عما تبحثين؟

تسأل وهي تفك أزرار بزته

- هل أخذت النقود؟

أرد وأنا أعود للحفر

- أخذها طه.

تنظر في الأفق المعتم، أواصل الحفر، تَقْدُم نحوي وتنظر في الحفرة التي ظهرت بين صخرتين من صخور التل، ثم ترتد نحو الضابط كمن تذكرت، تعريه من كل ملابسه حتى حذائه وجواربه، تكوم الملابس بجواره وتأتي وتنظر في الحفرة ثانية، تنزل للحفرة بجواري، تتناول

الجاروف من يدي، تعمق الحفرة كثيرا، تلقي بالجاروف فيسقط فوق الجسد، نخرج ونحمل الجسد العاري، نلقيه في الحفرة، أردم القبر وأسويه، تدوس على القبر بقدميها ثم تتناول الجاروف وتضع المزيد من التراب عليه، تحضر حجارة وتلقيها مبعثرة بعشوائية فوق القبر، تناولني الجاروف، تنفض التراب عن نفسها، تحمل ملابسه ونسير لحيث قتلته، تعفو على آثار الجر بقدميها وهي سائرة، تهش الكلاب التي تلعق في الدم المتجلط على الأرض، تنزع التراب المعجون بآثار الدم من على الأرض، تكومه في حجرها، تحمله والملابس وتتوجه للوادي، تلاحظ تخلفي عنها، تستدير وتقول

- انتهى كل شيء.

أرد وأنا أنظر للطريق المظلم

- أنتظر طه.

تقول وهي تتجه للوادي مسرعة

- لا يجب أن يراني طه هنا.

بعد خطوات تستدير وتكمل بحزن

- أخشى ألا يعود عثمان الذي نعرفه بعد اليوم.

يتأخر طه حتى كاد ينتصف الليل، لولا أثر الدماء الذي لم يمحه الماء لعدت للحوش، فالجوع ينهشني، لم أكن يوما جائعا مثلما أنا الآن، هل يفتح القتل الشهية للحياة؟ أم أنني عدت عثمان كما كنت؟ نعم أحس أنني تخلصت من عجزي، لن أبكي بعد اليوم، الآن يمكنني أن أعمل ولو اقترب أحد من حصادي وكدي أو من أي شيء أملكه

فمصيره كالضابط، فالحياة لا تعشق الضعفاء، تعشق وتغازل القوي وتحتقر من لا يملك القوة لمضاجعتها عنوة، هي تماما كالمرأة اللعوب، تستحلب ما في جيوب الضعفاء وتنثره تحت أقدام القوي الذي يعجبها.

ترى فيما كان يفكر الضابط عندما نظر لي بعينين مذعورتين؟ هل فكر في ذنوبه؟ أم فكر في ماله؟ أم تراءت له زوجته وطفله؟ أم أنه لم يفكر إلا في التخلص مني؟ لو منحته الفرصة ليتكلم، هل كان سيركع أمامي ويستجديني؟ لو كنت مكانه فيم كنت سأفكر؟ تلك اللحظة التي نرى فيها نهاية الحياة فيم نفكر وقتها؟ أم أن التفكير يتوقف، ويسيطر الشعور بالذعر على كل شيء فينا؟ لماذا لم أسأله؟.

هل حقا أصبحت قاتلا؟ لم يكن الأمر صعبا كما تخيلته طيلة حياتي، الآن لا أتعجب من برود الجنود وهم يطلقون الرصاص على أهلي، تلك الملامح الجامدة وهي تزهق أرواحهم تفهمتها الآن، مجرد عمل أو مهمة مثلها مثل الزرع أو الحصد أو القطع أو مضاجعة امرأة، نعم هي أشبه كثيرا بالمضاجعة، نندفع لها وبداخلنا رغبة عارمة ورهبة ثم ما نلبث أن نتلذذ بأثرها أو نحبط لفشلها، لكنني لم أحبط، قتلته وأنا أستمتع بانزلاق السكين داخل لحمه. يقترب صوت جلبة، أختفي خلف الصخرة، ينادي طه فأخرج حاملا العصا، طه ومعه المعلم يعقوب والهادي على حصانين، يردفني الهادي خلفه ونسير نحو الحوش.

جمعوا كل شيء ذي قيمة، حتى صاج الخبيز وحجر المحراكة الصغير لم تتركهما عشة، كوموا الأغراض في الساحة بين القطاطي بعضها ملفوف في ملاءات وبعضها في حصر وبعضها في أجولته

وجراكله، يبدو الحوش خاويا، نجلس على مصطبة القطية المحترقة، على الناحية الأخرى أبكر وحيدا يجلس بجوار الحائط، تجدد الفقد بداخله بعدما علم برحيلنا، سألني عن همزة فأخبرته أننا سنعود يوما لنأخذه.

تشتعل النيران أسفل إبريق الشاي الواقفة بجواره عشة وكلتومة

- عما قليل سيصبح الحوش مهجورا مثله مثل الوادي.

يقول طه، فيسأله العم الجالس وسط المعلم يعقوب والهادي

- هل سنرحل الآن؟

ينكت طه بعود في الأرض ويقول

- إلى الفاشر.

يقول عبد الله وكأنه يحدث نفسه

- خمسة عشر يوما ويحل رمضان.

يقول العم وكأنه كان ينتظر الجملة

- شهادة عدول، ولكن هل على المسافر صوم؟

يضحك المعلم يعقوب والهادي الذي يسأله

- لو لم ترحلوا أكنت تصوم؟

يقول العم

- أوثمة صيام أكثر مما نحن فيه؟

يعاود الهمباتة المنتظرون رده الضحك، فيقول العم وهو ينظر للمعلم يعقوب

- هل أنزلت راية الإندايا ٢٥ وجئت لي خاويا؟

يرد وهو يضحك

- وهل يخلو جيب السبع؟

يقول طه وهو ينظر للعم بجد

- منذ الليلة لا شرب، نحن ذاهبون للجزيرة أبا، وهناك حتى التدخين ممنوع.

فيقول العم

- ما زلنا في الحوش.

يضحك المعلم يعقوب ويخرج زجاجة خمر من كيس معه ويقول للعم

- خذ هذه، هدية أخيرة مني.

- لماذا الأخيرة؟ هل ستذهب للجزيرة أبا؟

يقول العم وهو يتابع كلتومة التي تتقدم نحوه بسرعة، تنزع الزجاجة من يد العم أديلانو المتعجب والمستسلم لفعلها، تتجه لحجر المحراكة، تكسرها فوقه، تعود وتقف أمامنا، تقول ليعقوب

- للبيوت حرمة.

يصمت الرجل، فتكمل وهي تنظر للعم

- فم أديلانو الذي طالما انساب القرآن لقلوبنا منه، لا يجوز أن يلوثه شيء كهذا أمامنا.

تذهب لجوار عشة، يسأل يعقوب وهو يلعق شفتيه

- من المرأة؟

يرد طه الذي تزايدت سرعة ضربه للأرض بالعود

ـ زوجة عثمان.

تقول كلتومة بصوت مرتفع

ـ هي ابنة أديلانو.

تغرس الجملة بداخلي، ينظر يعقوب تجاهها مسمرا عينيه عليها

في خلاء لا تجرح هيبته إلا النجوم التي ترسل ضوءها المتعب من طول السفر. فيلقي بعضا من الوجود المنظور يسري الركب، ثلاثة جمال محملة بالأغراض علي أحدها عشة وكلتومة. وعلى الثاني العم أديلانو وبكري. وعلى الثالث طه مع عبد الله الذي فضلت ركوب الحمار على الركوب معه. وحصانان عليهما المعلم يعقوب والهادي، اتفق طه معهما على أن يوصلانا للغاشر ثم يأخذا الجمال الثلاثة والحمار ثمنا لذلك، عندما قلت له إنه لا يستطيع أحد الاقتراب منا، قال هم أو غيرهم قادرون على الفتك بنا ومعنا نساء.

لا نمر على الجنينة. نغادر الوادي من الخلف، نتجه شمالا عبر مدق وسط الصحراء شبه الصخرية. ساعة أو أقل ونصل لطريق الجنينة الغاشر. نسير على جانب الطريق الترابي شرقا، لا نلقى أحدا، فقط طوال الطريق تنبح الكلاب التي ترافقنا من الوادي، فترد على نباحها كلاب نمر عليها في وديان أخرى. إذن في العبور تأخذه كلابنا لنمر.

الأشجار في الوديان على جانبي الطريق مر عليها الجراد، تشرع أفرعها الجرداء تستجدي بعضا من حياة، لا أثر لعشب، فقط حصى

تدوسه الجمال بخفافها اللينة الثقيلة فيئن، أو ترتطم به حدوات الخيل الحديدية فيصرخ.

الحوار موصول على الجمل الثاني حيث عشة وكلتومة، وعلى الجمل الأول حيث العم أديلانو وأبكر الباكي لفقدانه حتى القدرة على رؤية شقيقه، بينما الحوار مقطوع على جمل طه وعلى الحصانين اللذين يتقدمنا أحدهما ويتذيلنا الآخر، وأنا على الجانب الآخر محاذيا للركب تشغلني تلك المرأة، **قتلت من أجلها ولا تحس بي، فقط ابنة أديلانو، نعم ابنة أديلانو لكن ليس فقط، أنت زوجتي شاء من شاء وأبى من أبى، في الجزيرة أبا سأدخل بك، عنوة أو رضا سأدخل بك، مع طه من سلب الضابط ما يكفي لشراء بيت وليس بناء كوخ فقط، هناك وفي هذا المكان الذي يؤمه الآلاف كل عام سيكون لي بيتا، بالتأكيد سيرحل عبد الله للحج، وطه سيتزوج عشة، بل عشة ستتزوج طه، فالمرأة ستعود للوادي حتى لو عادت وحدها، العم أديلانو وكلتومة والفتيان أسرة صغيرة يمكن إطعامها، يمكن أيضا أن يعمل الفتيان، كنت واهما عندما تخيلت أنه يمكنني إلحاقهم بمدرسة، ربما يلحقون هم أبناءهم بها.**

يتوقف الركب، ينزل عن الطريق ويوغل في الصحراء، أهوي نحوهم، سيستريحون ما بقي من الليل حتى يمكنهم مواصلة الرحلة بالنهار، هكذا يقرر المعلم يعقوب، ننيخ الجمال، نبني خيمة من عصي وحصر وملاءات، تدخل فيها كلتومة وعشة والطفلان والعم أديلانو، ينام عبد الله أسفل شجرة قريبة منفردا، أجلس مع الباقين قرب الطريق، يجمع طه حطبا ويوقد نارا، يخرج المعلم يعقوب زجاجات خمر من كيسه،

يعطى إحداها للهادي، يفتحها ويجرع منها جرعات متتالية، يمد واحدة لطه فيرفضها، يفتحها المعلم ويبدأ يجرع منها ويبرم في شاربه ويتنهد، يقول بخفة

- الخمر بلا مزة كالدنيا بلا نساء.

لا يرد عليه أحد، طه عيناه على الطريق، وأنا عيناي على الخيمة، يتلفت لنا ويخرج سيجارة ويشعلها، مازال الهادي يجرع حتى أنهي الزجاجة، يضع يده تحت رأسه ويتمدد، لحظات ويغيب في نوم عميق، أقول لطه

- الهادي يحتاج من يحرسه.

يقول المعلم يعقوب بأمر

- فلتناموا جميعا سأحرسكم أنا.

يقوم طه ويذهب لجوار عبد الله ويتمدد، ينظر لي المعلم ويقول

- وأنت ألن تنام؟

أقوم على مهل، أتحرك صوب الخيمة، أضطجع بجوارها وعيناي علي يعقوب، تمر ساعة والمعلم يجرع من زجاجاته ودخانه، تكاد جمرات النار تذوي، يخرج أحد ما من الناحية الأخرى للخيمة، صوت خطواته يبتعد، ينبح الكلبان ثم يصمتان، المعلم عيناه تتابع السائر، لحظات ويقوم المعلم، يتحرك نحوي بخطوات مترنحة، أغمض عيني، ينظر في وجهي حتى أحس أنفاسه، ثم يقتفي أثر الخطو حتى يختفى دبيبه، أخرج السكين من جيبي، أمشي خلفه على أطراف أصابعي، يدوى صوت

صراخ. أجري نحو الصوت، كلتومة تحاول دفع المعلم بعيدا عنها وتجري فيجري وراءها. يلحقني عبد الله وطه، تجري كلتومة تجاه عبد الله وتقف خلفه. يمسك طه وعبد الله بالمعلم المترنح، أتحرك نحوه، تمسك بي عشة من خلفي. أدفعها وأقف أمامه شاهرا سكيني، يضحك بجنون ويستخلص ذراعه من يد طه ويلطمني، أعتدل وأتقدم خطوة نحوه، يهم برفع يده فأغرس السكين في قلبه. تجحظ عيناه، أنزع السكين وأغرسها مرات. يتفجر الدم على ثوبه، ينثال حتى أسفله، تفوح رائحة خمر، يترك عبد الله ذراعه فيقع على الأرض يخور، أبرك فوقه وأظل أطعنه، ينزعني طه وعشة من فوقه، أقوم والسكين في يدي، أجري تجاه الهادي، أصله وهو يبحث مترنحا عن عصاه. أبرك عليه، أرفع ذقنه وأذبحه.

الرحيل

عبد الله ولد فال

الجنينة - الفاشر نوفمبر ١٩٦٩

لماذا لم أترك يعقوب وأمسك بعثمان؟ هو من كان بيده السكين، لكنني أمسكت بيعقوب ليقتل، شاركت في قتل نفس، بل وتركت جسدين في العراء، قد تأكلهم الذئاب أو الكلاب، لماذا رضخت لما قاله طه؟ لماذا لم أذهب للحراسة وأبلغ الشرطة؟ لماذا حتى لم أدفنهما؟ فقط ساعدتهم في لم الخيمة والرحيل عن المكان، سيفتح باب جديد للندم، باب ستدخل منه نيران الإحساس بالذنب فأصطلي بها ما تبقى من عمري.

منذ غادرنا المكان وكلتومة لم تكف عن البكاء، والآن تستدير ناحية عثمان على الجانب الآخر وتصرخ فيه

- كانوا قد أمسكوا به، لكنك أردت قتله، لو كنت تريد أن تحترف القتل، لماذا رحلنا إذن؟ لماذا لم نبق بوطننا ونحارب كالشرفاء؟ يا أبتي ألم نرحل من أجل ألا نقتل أو نقتل؟ ها هو ابنك يحترف القتل، ولكنه قتل لأرواح لا تستحقه.

يرد عثمان منفعلا

ـ كلهم يستحقون القتل، الضابط كان مفسدا في الأرض، وهذان كانا قاتلين وقاطعي طريق ولصي أعراض.

تصرخ كلتومة وتلطم خديها

ـ وقتلت الضابط أيضا، قتلت الضابط؟!

يقول طه من خلفي

ـ لو سمعك أحد فسنضيع جميعا.

تلتفت له كلتومة

ـ وأنت أيضا تعلم؟

ينظر نحوها

ـ وصلت متأخرا بعدما كان قد قتله.

يكمل عثمان

ـ وسرقت نقوده، وسرقت عشة ما تبقى من متاعه.

تقول عشة بذهول

ـ بل استعدنا ما سرقه منا.

ـ ودفنته معي، ولمت دمه في ثوبك ونثرته بالوادي.

تتحسر كلتومة

ـ حتى عشة الطيبة، كنت أحسبكم جميعا أولياء، ولكن كلكم قتلة.

يتخلف عثمان عنا بحماره، دقائق وأتلفت فلا أراه، ساعة وتنام كلتومة تسندها عشة، يصمت العم عن حواره مع أبكر، يستند طه علي وينام، أي ركب لعين أمضي وسطه لله، الظلام في الخارج أقل حلكة من

أقلام داخل هذه النفوس. زنديق وقاتل ولصوص، وكلنا متسترون، تلك الأرواح في رقابنا جميعا. سيتعلقون بعنقي أمام الله برقابهم المذبوحة وأجسادهم المكلومة ويطلبون القصاص. أين أنت يا مولاي؟ أين أنت يا مريم المسكينة؟ أين بلدي وأهلي الطيبون؟ عند الفاشر لن أبقى مع هؤلاء القوم، لن أستقل معهم لوريا ولا قطارا. سأذهب لفوري للخرطوم، هناك يتدبر الله أمري. لن آخذ ورقا. هذا الورق بدلا من أن يكون ملوثا بكلنا أصبح ملوثا بدماء بريئة. على أي نار تنام زوجة الضابط، أي جمر تفترش. ما ذنب طفله المسكين ليتيتم في بلد كهذا؟ لن أحج، كيف أقف أمام بيت الله؟ بأي أنف أشم رائحة الرسل؟ بأي قدم أطأ أرضا طالما وطأها القديسون والأبرار؟ ربي رحمتك وسعت كل شيء، ربي سأعود للباري فلترحمني وتغفر لي. ولترحمني مريم وليغفر لي مولاي، بأي عين أنظر في بسمات أطفال البادية البريئة؟ بأي جسد ألامس جسد مريم الطاهر؟ بأي يد أصافح مولاي وهي ملوثة بدماء ثلاث أرواح؟ بأي جبين أسجد لله؟ وبأي لسان عاجز متستر أذكره؟

لكن ماذا سأقول لهم وأنا عائد خاوي الوفاض؟ لا دعوة دعوت ولا مالا أحضرت، ها هو الفجر يشرق علينا وعلى الدنيا، يشرق وثلاث أرواح أعرفها ليست على هذه الأرض، عند الفاشر سأبلغ أول جندي أقابله بما حدث، يجب أن أغسل ردائي وروحي من هذا الذنب، نعم عند الفاشر أتطهر أمام الله ونفسي والناس، حتى لو قتلت، سأكون قتيلا في الطريق إلى الله، سألقى الله وعلى وجهي غبار السفر له، لن يضيع الله أهلي، لن تضيع مريم الطيبة ولا أطفال البادية، فلهم رب

رحيم، وكان لهم أب مات بريئا طاهرا غسل ذنوبه بالمضي قدما على قدميه لآلاف الكيلومترات حتى يلقى الله بلا ذنب.

يمر عثمان محاذيا للركب رافعا رأسه، وكأنه فقط تناول طعامه منذ ساعات ولم يقتل رجلين، استبدل حماره بأحد الحصانين. يقطع الطريق ويتقدم الركب شامخا.

بضوء واهن أطلت الشمس من خلف الأفق على الطريق الترابي الذي يشق صحراء كلسية ضاربة لمحمرة. تتخللها أشجار عارية والقليل من العشب الجاف. وكأن اللون الأخضر قد محي من ثوب الوجود.

وما زال الركب يقطع الطريق المغاشر. مرت عدة سيارات لوري، محملة بالأغراض فوقها بشر وكأنهم على قمة تل. سيارتان أخريان تحملان خرافا. وعلى جانبي الطريق ظهر البشر الذين حبسهم الليل. أسراب من الرجال والنساء والأطفال الذين شردهم الجراد. بملابس مترية ووجوه عليها آثار الإجهاد من نوم قلق في العراء. يحمل كل منهم أغراضا على ظهره. معظمهم من الفلاتة. فالنساء عاريات الصدور، والرجال مكحلون. ومعظم الأطفال ناحلين وطوال القامة. كلما مر الركب بسرب يتوقفون وينظرون لنا. يغادرهم الركب فيمشون في أثره محاولين الاحتماء به. حين لا يستطيعون اللحاق بنا يتمهلون في مشيهم، استجدى الكثيرون منهم أن نلقي لهم شيئا. ولكن عثمان كان ينهرهم، ملوحا ببندقية، بالتأكيد هي بندقية المعلم يعقوب. قال طه: عاش معهم أسابيع عاملوه خلالها خير معاملة، لم يجبروه على السرقة معهم، كان

يطعم من طعامهم ويشرب من شرابهم، أي إنسان هو؟ ليس بعيدا أن يكون بعقله أن يقتلني أنا الآخر.

يستيقظ الجميع، لكنهم فقط عيون مفتحة تتلفت، لا روح ولا كلمات، حتى طه الذي لا يتوقف عن التدخين خلفي لم ينطق بكلمة، فقط ينزع جسده عن جسدي ويسعل ويبصق ثم يشعل السيجارة تلو الأخرى، تتعلق العيون بالسرب المحاذي لنا ثم نسبقه فتتعلق بسرب يقترب.

- متى نصل الفاشر؟

أسأل بضجر فيرد طه

- بعد عشرة أيام.

أسأله بغضب

- هل سنبقى في هذا الجحيم عشرة أيام؟

- إذا مر بنا لوري فارغ يمكننا أن نستقله وندفع له الثمن.

- لم أر لوريا فارغا منذ الفجر، كلها محملة فوق طاقتها.

لا يرد، فأصرخ فيه

- أنت من وضعنا في هذا الجحيم، قتل الضابط فخشيت أن نذهب للجنينة لركوب اللوري، وفي أول الطريق قتل رجلين ولا يعلم إلا الله من سيقتل قبل انتهائه.

يرد بصوت مبحوح

- لا تخشى على نفسك، فإذا اقترب منك سأقتله أنا.

يمد مسدسا أمام صدري، عرفته منذ رأيته على مكتب الضابط فأنهره بصوت مرتفع

- نحِّ هذا الشيء عني، فمصيبتي فيك عظيمة.

يرد بأسىً

- ماذا كنت تريد أن أفعل، أمسك به وأبلغ البوليس أنه قتل زعيمهم، أنت طيب النية، لو فعلت ذلك لم يكن البوليس ليترك أحدا منا حيا، حتى الطفلين كان سيقتلهم، هل تحسب عثمان قتل راعيا، إنه قتل ضابطا يرأس قوة البوليس في أكبر مدن غرب دارفور.

يسكت ريثما يشعل سيجارة ويكمل

- والرجلان أنت بنفسك رأيت ما حدث، حتى كلتومة التي تندب لم تفعل أكثر من أن تتوارى خلفك، رأيته مثلي كان كالكلب المسعور، لم نستطع اللحاق به.

- كان هو من بيده السكين لماذا لم نمسك به هو وندع الرجل؟

- كان يعقوب والهادي سيقتلاننا جميعا، ما حدث في المرتين لا ذنب لأحد منا فيه، هو قرر أن يقتل، ونحن لا نملك حتى الإبلاغ عنه.

- أنا سأبلغ عنه أول جندي ألقاه.

- لتفعل ما تشاء، ولكن لتعلم أن ذنبنا جميعا من العم إلى رضيع عشة سيكون برقبتك، أما من قتلوا فلا ذنبك عليك.

- لن أتستر على مجرم حتى لو قتلت.

- لتفعل ما تشاء لقد حذرتك.

ينزل عثمان عن حصانه، يأخذ خطام بعير العم وينحدر عن الطريق فيتبعه الركب، يتوجه لواد محطم، يوغل طويلا داخله ثم ينيخ البعير، فيسأل العم وهو ثابت فوق بعيره

- ماذا هنالك يا عثمان؟

يرد بوجه جامد الملامح

- سنستريح ونطعم.

يتركنا ويذهب متجها لوسط الوادي، ، ننيخ الجمال وننزل، ينطلق الكلبان في أثر عثمان، نتلفت لوجوه بعضنا، خليط من الذهول والقسوة والغضب، تنزل عشة الحصر والعصي والكانون والآنية، نعيد نصب الخيمة، نجلس تحت ظلها، تتسرب نسمات لها رائحة الزعتر للخيمة، كلتومة كالمريضة، عيناها ذابلتان، وجهها مجهد شاحب، تنظر نحوي بأسىً، تتمدد وسطنا وتتوسد فخذ العم، يضطجع أبكر بجوارها، تضع عشة الرضيع النائم في حضن كلتومة، أخرج إلى طرف الظل معطيا ظهري لها، تخرج عشة وتتجه للعير على بعد خطوات، يقوم طه ليساعدها، يقول لها وهو ينزل قربة ماء من على جمل

- لم أظن أن تفعلي ما فعلت.

ترد بكلمات سريعة وكأنَها جهزتها من قبل

- رأيته يحمل جاروفا ويجري فتبعته، ما دار بعقلك هو ما دار بعقلي، إن كان لي ذنب فهاتين، لم أرد أن أحرقهما مع الملابس.

تخرج من صدرها ساعة ومحفظة وتضعهما في يده، تنظر لعينيه فتلمع عيناها، وتكمل

ـ خفت أن يمسنا جميعا سوء.

يضع يده على كتفها في رفق ويقول

ـ لا عليك، من منا بلا ذنب.

يعدل وجهها ناحيته ويكمل

ـ هؤلاء القوم ينقصهم شيء من فرح، علنا نخفف بعضا من آلامنا وآلامهم، أتتزوجينني؟

تفتح عينيها على اتساعهما للحظات، دموع تنساب بين الشرطات على وجنتيها

ـ الآن؟! وهنا؟!

يهز كتفها بيده

ـ نعم، الآن وهنا. الموت يحيط بنا من كل جانب ومازال لدينا ما يكفي من الرجال والشهود.

ثم ينظر نحوي ويبتسم ويكمل

ـ قبل أن ينقصوا.

أبتسم له، تجري عشة باكية نحو الخيمة، تقف ثم تستدير للعير ثانية، تنزل المزيد من العصي والحصر، تحملها وتجري بعيدا عن الخيمة، تبدأ في الحفر لنصب خيمة جديدة تبعد عشرات الأمتار عن خيمتنا، يسعى طه نحوها وقربة الماء ما زالت في يده، تتركه ليكمل العمل وتحمل قربة الماء وتتوجه خلف الخيمة الذي نجلس فيها، دقائق وتصبح خيمتهما جاهزة، يدخل طه لخيمتنا، يهمس بكلمات للعم، يضحك العم طويلا ويقول

- نعم . . نعم لا بد أن تمضي الحياة، لو لم تجدك عشة لتزوجت جملا من هذه الجمال.

يعود عثمان فيلقى حطبا وينظر نحونا، يقول له العم متهللا

- فلتأتِ لتشهد على زواج عشة.

يتقدم بملامحه الجامدة، ينظر نحو كلتومة التي قامت أكثر إجهادا، نجلس في انتظار العروس، تقدم بعد قليل وقد غسلت وجهها ويديها وقدميها، يضحك العم لرؤيتها ويصفق، تنظر لها كلتومة بعينين حزينتين، يبتسم طه وهو ينظر لها، تجلس بجواري على الناحية المقابلة لطه، أسأله

- بم تستحل فرجها؟

يرد وهو يتطلع نحوي بهيبة كمن لا يعرفني

- ماذا تعني؟

يرد العم ضاحكا

- أين المهر؟

تقول عشة مندفعة

- لا أريد مهرا.

يقول طه وهو يقوم

- بل تستحقين أغلى المهور.

يتحرك تجاه جملنا بهمة، يدس يديه في وسط الأغراض، يخرج جرابا صغيرا يفتحه وينظر بداخله، يعود حاملا قرطا وعقدا ذهبيين، يقدمهما لعشة وهو ينحني عليها قائلا

- ها هو مهرك.

تقلب عشة القرط والعقد في يدها، تطفر دمعات من عينيها، تصمت ووجهها مستنير بالسعادة والفخر والحياء، أضع يدها في يده، تكاد كف طه الرقيقة تختفي وسط كفها ذي الأصابع الطويلة والراحة الواسعة، أعقد قرانهما وأنا مذهول من قدرة هؤلاء البشر على التشبث بالحياة حتى في أقسى حالات عبوسها، يرفع طه الرضيع النائم، يمسك بيد عشة ويذهبا لخيمتهما، يقول وهو على باب الخيمة

- عليكم إعداد الطعام، عندما تنتهون لا تنسوا دعوتنا، وأطعموا الكلبين فهم مجروحان مثلنا.

بمجرد أن دخلا يخرج عثمان يائسا ويتجه ناحية الطريق، تبكي كلتومة وهي تنظر للعم، يحتضنها ويبكى، دموع تلمع في عيني أبكر، دقائق ويعود عثمان في عينيه أثر لدموع، بمجرد أن دخل كان صوت صياح طه مؤذنا يقدم من العريش الثاني، تنظر له كلتومة بعينين ملتهبتين وتقول

- ما جاء بك ثانية؟ لا أريد أن أرى وجهك.

ينهار جالسا ويرد

- فلتسمعوا جميعا، أعلم ما يدور بخلد كل منكم، حتى طه الذي يضاجع في تلك الخيمة، ستر تاحون جميعا مني، فقط أؤدي مهمة قطعتها على نفسي، أوصلكم للجزيرة أبا، وهناك أحررك ولن يراني أحد منكم ثانية.
أنظر له بحدة وأقول

- هناك ما يجب عليك عمله لتحررنا جميعا من وزر جرائمك.
- وماذا تريد أنت الآخر؟
- يجب أن تعترف للبوليس بجرائمك حتى لا نتحمل وزر التستر عليك.
- أهيم على وجهي، أو أموت شنقا، لا فرق.

تقول كلتومة بتحد

- وتحررني الآن؟

يقول ببرود وهو ينظر في عينيها

- كما تشائين، أنت طالق.

عشرة أيام نمشي فيها من الفجر إلى الغروب، تخب الجمال الطريق خبا، ثم نضرب الخيمتين ليلا، فيدخل طه وعشة خيمتهما ثم ما يلبث صياح طه أن يعلو، ملأنا القرب عدة مرات من آبار مررنا عليها، كلتومة صامتة لا تتحدث، فقط عندما يحين موعد الصلاة نوقف الركب فنتوضأ ونصلي جميعا عدا العم.

يترك عثمان الحصان يهيم على وجهه ونحن على مشارف الفاشر، ندخل المدينة مع الضحى، يوصلنا طه لموقف السيارات، ثم ينزل الأغراض ويأخذ الجمال ويذهب لبيعهم، أستوقفه

- لن أنتظر عودتك، سأغادر على أول لوري متجه للأبيض.

يقول برجاء

- ولأين ستتجه من الأبيض؟

أرد وأنا أتحاشى عيون كلتومة المتعلقة بي

ـ إلى أهلي .

يقول وهو يمسك بيدي

ـ والحج؟ وأهلك الجياع في انتظارك؟

ـ لن أحج، أما أهلي فلي ولهم الله .

تبرق دموع في عيني كلتومة، يقول العم الجالس بجوارها

ـ الحمار يخرج عن طاعة مالكه .

يقول طه برجاء

ـ فلتأت معي للجزيرة أبا، نصوم رمضان هناك، وسيجد الله لك مخرجا، فتحج وتعود لأهلك ببعض المال .

أعيد النظر لكلتومة

ـ لن آخذ هذا الورق .

تبرق السعادة في وجهها، يقول وهو يتركني

ـ لن أحملك مالا ترغب، لكن في الجزيرة أبا، قد تغير رأيك .

وسط موقف السيارات المزدحم بالبشر والأغراض والأصوات نقف، ساحة ترابية واسعة يتفرع منها طريقان رئيسان وعدة شوارع فرعية، البيوت الحجرية تحيط بها من جهات ثلاثة، يفرق بينها عدة شوارع جانبية، ثلاث عربات لوري إحداهن يتجمع حولها الكثيرون يحملون أغراضهم التي ما لبثوا أن حملوها على ظهر اللوري ثم صعدوا جميعا فوقها، تسير السيارة كالتل حتى تختفي عن ناظري، يتجمع الكثيرون حول السيارة التالية بجلبة، على جانب سيدة وراء نصبة شاي أسفل شجرة سرو مورقة ظليلة ضل الجراد عنها وعن

عدة شجيرات أخرى بالساحة. يبدو أن الجراد لا يمر على المدن، يخشى البشر، ولا ننتبه للأشجار المتناثرة وسطها. على الجانب المقابل للساحة حيث البيوت الحجرية يوجد عدة محلات صغيرة. محل خياطة يعلق جلابيب أنصارية ومعرقات، ومطعم أمامه قدر فول يقف أمامه بعض الزبائن، وفرن تتراص على طاولة عريضة أمامه أرغفة مستديرة تفوح رائحتها. أذهب وأشتري عشرة أرغفة. أعطي جنيها للفران الذي يرتدي عرقه فقط. أعد الخمسة وتسعون قرشا التي أعادها لي وأعود حاملا الأرغفة. أطلب من سيدة الشاي شايا للجميع. أتجه نحوهم فتجذبني كلتومة. تتناول الأرغفة من يدي وتهمس

- لا شأن لك بما حدث. لا تحمل نفسك ما لا تطيق.

أتحول للناحية الأخرى من ظل الشجرة. أسقط رغيف طه في حجر نسمة. ألقي برغيفين للكلبين اللذين قدما نحوي لاهثين

أجلس لأتناول الطعام شاردا. هل وافقت حقا على الذهاب للجزيرة أملا في الحج والعودة ببعض المال فقط؟ أم لأنني أرغب في البقاء بجوارها؟ ذنب النستر خاله عثمان الذي قرر الاعتراف للبوليس بذنبه، هل كنت سببا في قرار كلتومة بالانفصال عنه؟ هل سأسافر وألحق بالموسم أم أنتظر، هل سأعود لمريم بالمال وامرأة تشاركني فيها؟ قطعت على نفسي عهدا هل أخونه؟ يتجمع بجواري ثلاثة رجال أحدهم يرتدي ملابس إفرنجية. والآخران يرتدي كل منهما جلبابا أنصاريا وشارة من ثلاثة ألوان أزرق وأصفر وأحمر، ويعلقان سكاكينهما في أجربة على ذراعيهما. القلق باد على وجوههم، يتلفتون للشوارع الفرعية يبدو أنهم ينتظرون أحدا. يقول أحدهم بغضب

- نقلوا الصادق المهدي إلى حامية شندي خشية أن يقتحم الأنصار سجن بورتسودان ويطلقون سراحه.

- حذره الإمام فلم يستمع.

- كان يظن أنه سيتفاوض معهم ويعود.

- وهل للعسكر الانقلابيين عهد؟

- فقط كانوا يريدونه ليبعدوه عن الإمام.

- من نعم الله علينا أن الإمام قد قدم للجزيرة أبا في طائرته الخاصة قبل الانقلاب بيومين.

- وهل كانوا يجرؤون على اعتقاله؟

- لا تستبعد شيئا.

- عما قريب تنقشع هذه الغمة، فالجزيرة تعج بعشرات الآلاف من الأنصار بسلاحهم وعتادهم.

- كان قرار الإمام بإغلاق الجزيرة في وجه غير الأنصاريين صائبا، فربما دسوا آلافا وسطنا.

- أتظنون أنه سيكون هناك معركة؟

- لا أظن، فالنميري يخشى الأنصار خشيته الموت.

- بل ستكون معركة، فهذا الرجل يدعمه ناصر والقذافي والسوفييت.

- ولكن الله مع الإمام.

- بالتأكيد.

- ومعه أيضا كل الشعب.

- الشعب ما عدا الأنصار لا يهمهم من يسكن قصر الحاكم العام، لكن يهمهم من يوفر لهم الخبز والأمن.
- هل يتركون الإمام والأنصار يجاهدون هؤلاء الكفرة وحدهم؟
- هاهم قد قدموا.

يظهر رهط من الرجال يرتدون الشارات فوق جلابيبهم البيض ويعلقون سكاكينهم على أذرعهم وسيوفهم في أجربتها على خصورهم، ويحمل رجلان منهم لفافة يبرز منها رؤوس حراب برونزية مشحوذة، يخرجون من شارع فرعي ويتقدمون تجاههم، يقدم طه خلفهم، يتهلل وجه عشة لرؤيته، تناوله الرغيف، فينظر لي وهو يقضم منه ويسأل
- ألم تتفق مع سيارة؟

أرد وعيناي على الأنصار
- أنتظرك.

يمد لفافة ملابس بيضاء وعمائم وشارات لعشة، يتركنا ويذهب للسيارة الفارغة، يتحدث مع السائق ثم يجادله، بعد طول مناهدة يخرج نقودا ويعطيها له، ينادي علينا فنحمل الأغراض إلى السيارة، يطلب من عثمان الذي يقدم من حيث لا أدري والعم أن يركبا بجوار السائق، نركب فوق تل الأغراض التي حزمها السائق بالحبال، يركب معنا الأنصاريون، تتحرك السيارة للأبيض مخلفة وراءها الكثير من الغبار، الكلبان يجريان وسط الغبار في محاولة يائسة للحاق بالعربة، طه ينظر للكلبين والحزن يملأ وجهه، يصر الكلب حديث السن ذي الرأس المرقطة بسواد لامع على

اللحاق بالعربة، يتابعه طه بعينين بين الحزن والامتنان، ينبح بقسوة ويتوقف وعيناه على العربة، يشيح طه بوجهه نحو الأنصار، أتلفت ناحية كلتومة فأجدها ترمقني، يصرخ أحد الأنصار رافعا سيفه قائلا

- إلى الأمام يا شباب الإمام.

يردد طه مع الباقين

- الله أكبر ولله الحمد.

ثم يردد الجميع في كورال متناغم

- إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام

هذا الإمـــام قد سمـا زخم النجوم في السما
وإن يقل خوضوا الدمـا نفعل ونحـــــن إنما
جنوده وقت الصدام
إلى الأمام إلى الأمام.

ثم يتوقفون ويرددون وعيونهم للسماء

- الله أكبر ولله الحمد.

نظرات عشة لطه كلها حبور ووجد وإعجاب، ترى منه ما لم تكن تتخيل أنه بداخله، الرجل الذي يصيح كالديك وهو يجامعها، يردد الآن أناشيد الحرب بشجاعة وحبور وإخلاص لم ترهم عليه من قبل، أما أبكر فما لبث أن دخل ضمن الكورال، خجلا في أول الأمر، ثم ملتهبا بالحماس بعدما تناغم صوته مع الكورال الكبير، كلتومة التي أصبحت تحمل رضيع عشة معظم الوقت، لا تكف عن النظر لي، ثم تزحف على تل الأحمال وتقترب مني وتهمس

- هل نحن ذاهبون لحرب؟

أقول لها وأنا أنظر في عينيها ووجهانا مقتربان حتى إنني شعرت بأنفاسها

- ماضون لمصيرنا.

تسير العربة تقطع الطريق يزفها الغبار، وهتافات وأناشيد من فوقها، حتى إذا مضت ساعة تخف الهتافات وتنعدم الأناشيد ويخلد معظم الراكبين للنوم، عدا أصحاب الشارات الذين عادوا لحوارهم يشاركهم هذه المرة طه، إذ بمجرد أن قال صاحب الملابس الإفرنجية

- يقولون إن النميري ينوي تأميم كل أملاك المهديين.

يزحف طه نحوه ويسأله

- ما اسم الأخ؟

يرد الشاب النحيل الطويل ذو الشارب الصغير والعين الجاحظة

- أخوك كمال عجبنا، أعمل مدرسا للتاريخ في مدرسة الفاشر الإعدادية

يقترب طه منه حتى تلتصق ركبتيه بفخذه النحيل بالغ الطول ويسأل

- وما معنى تأميم؟

يرد كمال وهو يعبث بندبة أسفل عينه اليسرى

- نزع ملكيتها من الدائرة وتصبح ضمن الممتلكات الحكومية.

يقول طه وهو يلتفت نحوي

- يعني سرقتها.

يقطب كمال حاجبيه فتبرز الغضون على جبينه ويقول

- سرقتها لتجفيف منابع تمويل الإمام والأنصار.

يزحف طه نحوي. يتوسط المسافة بيني وبين كلتومة ويقول بهمس

- وعثمان غضب من الضابط أن سرق بعض جنيهات. فلينظر للسرقة الحقيقية.

تقول كلتومة بغضب

- هذا تلميذ ذاك.

يقول كمال متحدثاً لزملائه

- يبدو أنها ستكون حرباً. فجنود نميري يملأون كوستي وربك، والإمام يضع نقاطاً للتفتيش في ضبية وعند الجاسر. أرسل الإخوان المسلمون للإمام عشرة من رجالهم المدربين على الأسلحة الحديثة في معسكرات التدريب الإثيوبية ليدربوا الأنصار. تتحرك مدرعات ومدافع ودبابات الحكومة من الخرطوم متجهة لحصار الجزيرة، ويستجلب الإمام الأنصار بسلاحهم من كل السودان.

أقول لطه المتعلقة عيناه بكمال

- لأين تلقي بنا؟

- الله أكبر ولله الحمد.

يصرخ أحد الأنصار فيستدير طه ويردد. ثم يقول لي من وراء ظهره

- لكل خير.

تقول كلتومة وهي تشد كتف طه فيستدير نحوها

- هربنا من حرب في ديارنا. هل تلقي بنا في حرب هنا؟

- هذه حرب تحت راية الله .

يرد طه ويستدير ثانية للأنصار

تتوسل كلتومة وهي تنظر لي برجاء

- لا أريد الذهاب إلى هناك .

يرد طه وهو يزحف نحو الأنصار

- لا مفر ، فلو كانت هناك حرب فسوف تعم السودان كله .

أقول مبتسما لطمأنتها

- لن نرى أكثر مما كتبه الله علينا .

عثمان إدريس دار

الفاشر - الأبيض - كوستي- الجزيرة أبا- نوفمبر ١٩٦٩

بجوار النافذة أجلس. العم لا يكف عن الحديث مع السائق. أنظر للصحراء الممتدة على مرمى البصر. أشجارها الجرداء تغربل ضوء الشمس التي تتوسط السماء، القليل من السحب يلون الأفق، سحب أم جراد لا فرق لدي، فعما قريب وبمجرد الوصول للجزيرة سأسلم رقبتي لأول جندي ألاقيه، أعترف أنني قتلت ضابطا مرتشيا، وقاطع طريق حاول اغتصاب زوجتي، وآخر كان سيقتلها ويقتلني لو لم أقتله، سأقول لهم إنني أريد أن أعدم وفورا وبأي وسيلة يرتضونها، لا لجرم القتل بل لأنني قتلت من يستحق القتل من أجل من لا تستحق القتل من أجلها، فجأة أصبح الجميع أولياء، حتى العم بات وليا بلا صلاة أو ذكر، فقط بسبابه وعراكه الدائم مع الله نال المرتبة، وقطع الطريق لجلاله، لا أخشى الوقوف بين يدي الله فهناك عدل لا يعرفه البشر، يعلم الله من قتلت ولماذا قتلت، لا أعلم كيف حكمت علي، أكان من المفترض أن أدعه يغتصبها، أو أتركه ليقتلنا جميعا ثم يغتصبها، كان مخمورا، أسكرته رغبته فيها منذ رآها، عرت في داخله الذئب الذي لا

يتردد في الفتك بأي أحد لينال فريسته، فقط الخمر كانت محاولة فاشلة لتنويم الذئب بداخله، لو عاد بي الزمن لقتلتهم مرة أخرى ولأمعنت في غرس السكين بأجسادهم أكثر وأكثر حتى يعمل نصلها لأرواحهم السوداء علها تصل إلى الله ممزقة هي الأخرى. فقط ما يحزنني أنها لا تستحق، أمعنت في عدم فهمي منذ غادرنا ديارنا. لا، بل أرادت ألا تفهمني، ألا تحس بما يعتلج في صدري. كانت قد قررت الانفصال قبل أن أقتل أحدا، القتل فقط أعطاها المبرر الذي تحتاجه أمام نفسها لكي لا تشعر بذنب تجاهي، بكت وذبلت وصمتت في الأيام الأولى. ثم ها هي لا تكاد تضيع فرصة يمكنها فيها النظر له إلا وتستغلها بلا أدنى خجل أو مواراة، مسحة الحزن على جبينها والتمارض في حركتها كلها فخاخ منصوبة لينغرس سهم عينيها أكثر في قلبه. تلك العين التي أسرتني منذ نعومة أظافري، كانت سدرة منتهاي في هذه الأرض. لا ظل يبردني كظلها ولا ثمر يشفيني إلا ثمرها، ها هي كلمة تنهي كل حق وكل شيء، كان يجب أن أنطقها، فالسدرة أكل ورقها جراد قسوتها وتغيرها. والثمر ككريات العلقم ملقاة بلا قيمة في كل مكان. باتت كغيرها من النساء، مجرد جسد وفرج، لا روح تعانقني ولا بسمة تأسرني.

يتصاعد صوت أهازيج يغنيها ركاب السطح. وتكبير وحمد. يسأل العم

- ماذا حدث؟

يرد السائق مكفهر الوجه

- الأنصار مساقون للمذبحة.

يسأل العم باهتمام وقلق

- أي مذبحة؟

يقطب السائق حاجبيه فيزداد وجهه تجهما

- عزرائيل ينتظرهم جميعا في الجزيرة أبا .

يقول العم وهو يلتفت بجانبه نحوه

- لا أفهم شيئا .

يتغل السائق ويرفع طوق جلبابه المتسخ

- ألست من هنا؟

يقول العم ببراءة

- لا ، منذ أيام فقط وأنا سوداني .

ينظر له السائق متعجبا ، ويسأل

- هل وجدت لك أبا وأما في هذه السن؟

يرد العم وهو يلتفت نحوي

- بل وجدت ورقا .

يضحك السائق فيزداد وجهه عبوسا ويقول

- غرر بك أحدهم وأخذ مالك ، لا قيمة للورق في هذا البلد ، فكل من يدخل هذا البلد يصبح من أهله ، ومن منا يحمل ورقا! هنا وجهك ولسانك هما أوراقك ، وأنت تتحدث مثلنا ووجهك تماما كوجوهنا .

يقول العم

- ربما نحتاجه لو أردنا الحج .

يهز السائق رأسه

- عندها قد تحتاجه. ولكن لو دخلتم الجزيرة كما تقولون فلن تخرجوا منها بورق كتتم أو بدون ورق.

أسأله

- ماذا يحدث هناك؟

- الأمر بسيط. المهديون يريدون أن يحكموا البلد، وقد حكموها سنوات فزاد ما يملكون وكاد ينعدم قوت الناس، من أجل ذلك يسوقون أنصارهم للحرب زاعمين أنهم يجاهدون في سبيل الله، النميري هو الآخر يريد الحكم. ومن أجل ذلك يسوق جنوده للحرب زاعما أنهم يجاهدون من أجل الوطن والفقراء.

يسأل العم وقد احتل القلق وجهه

- ولماذا الجزيرة أبا؟

- في الجزيرة أبا كان يتعبد المهدي ومنها انطلقت دعوته وانتصر في أول معاركه. لكنه كان يحارب الإنجليز. فصارت الجزيرة ملكا لأحفاده ومزارا لأنصاره. وتصادف أن كان الإمام الهادي في زيارة لدائرته في الجزيرة بطائرته الخاصة. فاحتمى بها.

يسأل العم بتعجب

- هل يملك طائرة؟

- يملك طائرة ومئات اللوريات وعشرات الآلاف من الأفدنة ومعاصر للزيوت ومصانع ومحلجا للقطن يصدره للإنجليز الذين حاربهم جده تهتز العربة ثم تستقر فيسأل العم

- ما حاجته للحكم لو كان يملك كل هذا؟ فأي حاكم يملك ما يملكه؟
- يريد أن يحافظ على ما يملك ويزيده.

أقول وأنا أنظر عبر النافذة لرهط من الفلاتة على جانب الطريق

- لابد أن معه الحق، فكل هؤلاء الذين يحتشدون من أجله ويضحون بأرواحهم لفدائه لا يمكن أن يكونوا مغررين

يقول العم

- نسأل الله السلامة

نواصل المسير فنصل للأبيض قبل العشاء، يجب أن ننتظر ليلة بأكملها حتى موعد القطار المتجه لكوستي، فاللوريات لا تسير على الطرق التي دمرتها أمطار الخريف، نحمل أغراضنا على حمير ونتوجه لمحطة القطار، لا تبعد كثيرا عن موقف السيارات، مئات الأمتار إلى الجنوب من الموقف نقطعها وسط طريق تنتشر على جوانبه أحواش بيوت حجرية، نمر على مدرسة الأبيض، في بلدنا وبعد عدة سنوات من ليلة المذبحة كان من المفترض أن ألحق أبنائي وكلتومة في مدرسة مشابهة، ولكن الآن بعد أيام سأدخل أنا إلى نقطة بوليس مثل هذه التي يقف على بابها جنديان بيدهم البنادق، سأدخل ولن أخرج للدنيا مرة أخرى، كلتومة تحمل رضيع عشة وتمشي بمفرها على جانب الطريق، عشة تسير بجوار طه في المقدمة، بينما العم وأبكر وعبد الله يمشون خلف الحمير المحملة بالأغراض يسوقها حمَّار حافي القدمين يرتدي إزارا بلا رداء، أتبعهم على بعد خطوات وخلفي الأنصار وقد خلعوا شاراتهم وسيوفهم صامتون بلا أناشيد تنفيذا لنصيحة السائق، تظهر المحطة من بعيد، لمبات

يغذيها مولد كهربائي يرتفع أزيزه على أزيز حشرات الليل، ومبنى حجري يرفل في الضوء، القطار رابض على طرف الرصيف بعرباته المظلمة، نحمل الأغراض على عدة مرات، نضعها على الرصيف الحجري بجوار القطار أسفل كشك حجري مرتفع في الفضاء بنوافذ زجاجية، يذهب طه لمبنى المحطة، يعود وبيده عدة ورقات يدسها في جيبه، ندخل الأغراض في القطار، يدخل أيضا الأنصار لفافة معهم، يرتفع صوت آذان العشاء من مسجد قريب يغادر عبد الله وطه والأنصار للصلاة، يضطجع العم متمددا على كرسيين من كراسي القطار، أبكر لاه باستكشاف القطار، يتحرك في العربة، يتحسس الكراسي الخشبية المتقابلة في صفين متوازيين بينهم طرقة تكفي لعبور فرد واحد، يعتلي أحد الكراسي ويتحسس الشبكة الخشبية المعدة فوقه لوضع الأغراض، يعتلي الشبكة ويجلس مادا رجليه محاولا الوصول لأعمدة المنتصف، لو كان همزة قبالته لتلاقت أقدامهما، يحبو فوق الشبكة، ثم يتعلق بالقائم الحديدي الذي يتدلى من سقف العربة، ينزلق كالقرد لأرض الطرقة، عشة وكلتومة تجلسان على كرسيين متقابلين بجوار نافذة بمحاذاة العم يفصل بينهم ظهر كرسي، أجلس بجوار عشة، تهم بالقيام فتجلسها كلتومة، فقط أريد أن أجلس قبالتها حتى لو أشاحت بعينها عني ناظرة للفضاء خارج النافذة، فوجودي بجوارها يذكرها بما فعلته بي، نجلس صامتين لفترة لم أنزل عيني عنها مترقبا التفاتها داخل العربة، إلا أنها تحس بوقع عيني عليها فلا تعيد عينيها من الفضاء الذي يسكنه ظلام لا نهائي، فقط ارتفاع صدرها وهبوطه مع زفراتها، ثم حركة من ذراعها بات فيها كل صدرها مواجها للنافذة، فقط ظهرها ناحيتي، أشدها من

فخذها بقسوة فتعتدل، تنظر لي بغضب وتنزع يدي عنها بعنف واشمئزاز ثم تعاود النظر من النافذة، أقول لها

- مازلنا أبناء عم

لا ترد، يقول العم من خلفي

- العم لم يمت حتى تتحرش بابنته

أقول رافعا صوتي

- لم أقتل أحدكم حتى أعامل هكذا.

يعتدل ويقول

- بل قتلتنا بدون أن تدري.

تقول عشة بحزن

- ألا يمكننا جميعا نسيان ما حدث، فمن قتلهم لم يكونوا متعبدين في مسجد.

يقوم العم ويجلس بجوار كلتومة التي تلصق جسدها به ويقول

- الأرض كلها مسجدا، والضابط كان في طريقه لبيته، ثم أنني لا أتحدث عن القتل، لشهور كنت أراك تذبحها كل لحظة بإعراضك عنها، كنت أرى روحها المذبوحة تغطي كل شيء بدمائها، كان الكل يرى ما بها إلا أنت.

تقول عشة وهي تضع يدها على ركبتي

- مازال الفتى صغيرا.

تقول كلتومة بدون أن تستدير

- صغير بما يكفي لقتل ثلاثة رجال! لن أقضي بقية عمري مع رجل يداه ملوثتان بدماء ثلاثة رجال وبدمي.

يعتدل العم ويقترب بوجهه مني ويقول

- هناك أسفل العريش وفي أحد الصباحات المتشابهة التي كنا نحيا فيها أوقفتك وقلت لك: إذا كانت المسكينة لديها القوة لتحمل كل ما تفعله بها فأنا لا أمتلك نفس قوتها، قلت لك إنني لا أستطيع العيش وأنا أرى تلك المعذبة تطوي ذاتها على كل هذه الجراح، قلت لك إنك تخسر بتماديك كل شيء وكل أحد، ولكن بدلا من أن تطيب جراحها بكلمات، حاولت اغتصابها في ظهيرة نفس اليوم، ما الفارق بينك وبين يعقوب؟ لولا بقية من وفاء لديارنا لقتلتك حين رأيتها تعود أمام غرباء بثياب ممزقة وروح مدمية

تهم عشة بالكلام فأسكتها وأقول

- تنظرون فقط لجراحكم، لا أحد يرى جرحي.

لا أتمالك عيني فتفيض دموعي، أصمت فتقول عشة

- كان يريد أن يفعل ما تريدون منه فعله، حسب أن الدخول بها سيريح الجميع، من منا لا يخطئ، ألم تخطئ يا عم؟ ألم تصر على أن لا نترك قريتنا قبيل المجزرة فحدث ما حدث؟ هل علق أحد أرواح أهل القرية في رقبتك؟

يطرق العم برأسه، تستدير كلتومة وتنظر لعشة

- أديلانو لم يحضر الجنود ليفعلوا ما فعلوا، أديلانو لم يمسك سكينا ويذبح أرواحا، ومن قال إنني كنت أريد جسدا؟ زوجة طه لم تكن تعدم جسدا وقتما تريد، فقط كنت أريد ظلا، ولكنه حوّل حياتي لجحيم.

أقول وأنا أنظر لها متحملا ما بعينيها من قسوة

- ولم لا يحس أحد منكم بالجحيم في داخلي؟ لم غابت عنكم أجساد أهلنا الملقاة في الساحة؟ وأخواتنا المساقات على العربة لإشباع جنود أوجوكوو؟ أطفالنا المساقين كأرقاء للجنوب؟ كيف استطعتم أن تفكروا في أنفسكم وسط كل هذا؟ إن كانت لديكم القدرة لفعل هذا فأنا لا أمتلك هذه القدرة، كل ما كان يشغلني أن أوفر لكم القوت والمكان الآمن، لم يكن لدي قدرة على الحياة كزوج وسط كل هذا، بعدم تفهمكم لي دفعتموني دفعا لأفعل ما فعلت، كلكم مشاركون في جرمي إن كان لي جرم، حتى الولي اللعين لا يكف عن محاولة سرقة ما لا يملك، كان كالعقرب تحت ملابسي لا يهنئني بلحظة أعيشها، كالثعلب يرتل القرآن وهو يختلس النظر كزنديق

تقاطعني قائلة

- من تقول عنه زنديقا وفر لك القوت والمكان الآمن، وفر لك ما كنت تحلم به، لكنك كعدو نفسه لا ترى إلا ما يمليه عليك شيطانك.

تصمت مثبتة عينيها في عيني وتكمل

- بل صور لك جنونك ما لم يكن موجودا، فجئت عدوا لتمسك بي في أحضانه.

أقول لها

- ربما لم يكن موجودا، ولكن أليس موجودا الآن؟

ترد وهي تنظر في عيني ببرود

- لا شأن لك بذلك.

يقول العم وهو يمد يده نحو وجهي

- لا تتماد في شططك.

تصرخ عشة

- ماذا جنينا في حياتنا لنصل إلى ما نحن فيه؟

تسألها كلتومة بسخرية غاضبة

- أكنت تتمنين أكثر مما أنت فيه؟

ترد عشة وبعينيها نظرة لوم

- أتنظرين لطه، لتعلموا أنني لا أستطيع العيش بلا رجل أو عمل.

يقول العم وهو يضرب فخذها بيده

- بل أنت صالحة.

تأتي جلبة من الخارج، يدخل الأنصار فيتوجهون لنهاية العربة حيث يلعب أبكر الذي يترك المكان ويتقدم، يدخل طه وعبد الله يحملان أرغفة وكيسا، أقوم من مكاني فيجلس طه، يجلس عبد الله على كرسي مقابل لهم، أجلس قبالته، ينظر طه لوجوه العم وعشة وكلتومة ثم يقول

- كانت هنا حربا.

ثم يضحك ويكمل

- الحرب قادمة لا تتعجلوا.

تقسم عشة الطعام، أتناول رغيفي وقطعة من الحلوى الطحينية وأتركهم وأذهب ناحية الأنصار الذين افترشوا الأرض حول طعامهم

بجوار الباب المغلق، يفسحون لي مكانا فأجلس وسطهم، يتناولون الطعام بشهية، على وجوههم رضا وفرح، أتعجب من أناس يساقون للذبح وفي وجوههم كل هذا التسليم والإقدام، أي عقيدة راسخة في قلوب هؤلاء يذهبون لتقديم أنفسهم كقرابين أسفل رايتها، من هذا الرجل الذي يشير لهؤلاء بيده فيقتلعون أرواحهم ويقدمونها له، طعامهم ماء الفول عليه ماء الجبن مقطع عليهم بصلا، وسيدهم يركب طائرة خاصة به، يتنقل بها في ربوع السودان فيقدمون له الباقي من أموالهم، أسألهم

- قال السائق إنكم مساقون للذبح.

يرد النحيل ذو الوجه الوضاء والعيون الجاحظة البراقة

- وما المشكلة؟

يضحك الباقون فيكمل الرجل

- وأنت لأي شيء تساق؟

- لقدري.

- وما قدرك إلا تحت التراب شجاعا كنت أم جبانا.

- صدقت، ولكن قدري بيدي أمشي إليه طائعا.

- يجرنا الله لأقدارنا.

- لكنه الله وليس الإمام.

- الإمام يرفع راية الله.

- يرفعها من أجل ماذا؟

- يرفعها من أجل شرع الله وحكمه، يرفعها ليخلص الوطن من الشيوعيين الملاحدة الذين انقلبوا على الحكم بمساعدة العسكر، ألست مسلما يا رجل؟ ما قيمة الدنيا إذا قورنت بالجنة.
- كيف يكون جهادا وأنتم تقاتلون بني وطنكم ومسلمين مثلكم.
- بغوا علينا ولم يرضوا بصلح، فماذا أمرنا الله أن نفعل.
- تقاتلوا الباغي حتى يفيء.
- هذا ما نفعل عله يفيء.
- وهو ألا يعتبركم خارجين على الحاكم.
- الحاكم هو من انتخبه الشعب وارتضاه وهو من انقلب عليه.
- ولكن الفقراء من يدفعون الثمن.
- سيدفعونه على أي حال، فليدفعوه في سبيل الله.
- هل يمكنني رؤية هذا الإمام؟
- بالطبع يمكنك رؤيته، فالرجل ليس ملكا ولم يكن يوما حاكما ولن يكون، الرجل فقط يرشد للحق، ويجمع من أغنياء الأنصار وماله ويوزعه على فقرائهم، يمكنك رؤيته والتحدث معه وسؤاله عما شئت.

نقضي الليلة في حديث لا ينتهي عن المهدي وخلفائه، عن جهادهم للإنجليز والمصريين في عدة معارك، أبدى فيها الأنصار شجاعة نادرة وبسالة لا توصف وذكاء غير عادي استطاعوا بعد تضحيتهم بأرواح الكثيرين منهم أن يحرروا السودان ويبنوا الدولة الوطنية الموحدة تحت

حكم سوداني خالص، يحدثني عن موت المهدي ذلك الملهم الذي بعث السودان الحديث بعد موات وتشرذم، يبكيني على صفوف الأنصار بملابسهم البيض وسيوفهم وبنادقهم العتيقة وهم يحصدون تحت قذائف المدافع الثقيلة التي صبها عليهم الإنجليز والمصريون في وادي كرري، فإذا ما استشهد صف، تقدم صف آخر ليقدم روحه فداء لله والوطن، يخبرني عن آلاف القتلى والجرحى الذين دفنوا أحياء، عن ضياع حلم السودان المستقل، عن تشتت الأنصار في كل السودان، عن عمل الباقين من أبناء المهدي كفلاحين في الشكابة على شاطئ النيل الأزرق، وقتل المحتلين لهم وهم يفلحون الأرض عزلا من غير سلاح لكي يقضوا على البقية من ذرية المهدي، عن توجه الإمام عبد الرحمن الذي أصيب بطلق ناري في الشكابة للجزيرة أبا، عن تجميعه للأنصار وحفاظه عليهم ضد تلك القوة الغاشمة، عن تعب الأنصار وكدهم لكي ينشئوا مشاريع دائرة المهدي مع الإمام عبد الرحمن، عن الاستقلال السوداني الذي دافع عنه الإمام في وجه من يريدون الوحدة مع بلد أيدي قادتها ملوثة لأكثر من مائة سنة بدماء السودانيين، ينبئني عن انضمام الجميع لرأي الإمام وعن الاستقلال، يحكي عن انتخابات شريفة فاز فيها حزب الإمام بالأغلبية، ثم انقلاب النميري مدعوما من الشيوعيين والاستيلاء على الحكم، أنام على الكرسي وأنا أحلم بلقاء الإمام خليفة المهدي، بالوقوف بجواره دفاعا عنه وعن حلم جده الذي لا يتركه الظالمون يتحقق، لن أسلم نفسي ليشنقني أحد جنود نميري، بل سأنتظر حتى ينتصر الإمام وعندها أقدم نفسي له معترفا بما فعلت، عنده سيكون الحكم العدل، حتى لو كان حكمه قتلي فسأقبل راضيا، فقط ينتصر وأشعر أنه في هذا العالم هناك طيبون

ينتصرون وتعلو رايتهم، ولا يهم إن كنت أنعم أنا بظل تلك الراية أو ينعم غيري.

نعود من صلاة الفجر فيبدأ القطار في الازدحام، يتوافد العشرات بل المئات، يحتلون كل الكراسي والطرقات وشبكات الأغراض فوقها، لم يعد هناك موضع لقدم، خليط من الأغراض والبشر، أبكر يجلس بين العم وطه، عبد الله غائب وسط الزحام، أنا بجوار النافذة على الكرسي خلف جماعة الأنصار، يتحرك القطار والكثيرون معلقون على بابه، دبيبهم على سطح العربة يعلن عن اعتلائهم لظهر القطار، الجو داخل العربة خانق، أتطلع من النافذة، قدوم الأشياء السريع إلى ناظري وانسحابها المفاجئ يذكرني بالحياة، نقدم سريعا فنشهد أننا رأينا ثم ننتهي، لا نكاد نفيق على حقيقتنا وحقيقة من حولنا والحياة نفسها حتى تنتهي رحلتنا.

ها هو القطار يهدئ من سرعته لدخول محطة كوستي، محطة أخرى من محطات عديدة يقف فيها ويغادر، الجراد لم يمر من هنا، الأشجار والوديان عامرة بخضرة الخريف الزاهية، برك المياه المشوشة بالعشب تعكس ضوء الشمس، السهول عامرة بالأبقار والإبل ترعى في سكينة ونهم، حولها رعاة بملابس رثة، كم هو جميل هذا البلد، كم فيه من الخير وكم هم فقراء أهله، ينزل الكثيرون ويركب أكثر منهم، حر الظهيرة اللافح القادم من النوافذ المفتوحة وأنفاس المئات في العربة يشعرني بالاختناق، يتوقف القطار لساعة، ثم يتحرك لربك محطتنا الأخيرة، يعبر النيل للشرق ثم دقائق ويتوقف، فننزل، يحمل معنا الأنصار الأغراض،

المدينة ينتشر بها الجنود في كل مكان، يتفوقون عددا على أشجار الدوم والسنط والماهوجني التي تكاد تكون متراصة في شوارعها، طائرة تحلق في السماء ثم ما تلبث أن تهبط، هنا مطار أيضا، نمر على مصنع كبير بنوافذ رمادية عالق بها غبار قطني متكاثف، أسفله أسود وأعلاه يشع بياضا، يقول كمال وهو يلمح تعلق نظري بالمبنى

- هذا محلج ربك التابع لدائرة المهدي.

المحلج يربض به العشرات من السيارات والمدرعات والمدافع

- يستخدمه نميري كقاعدة لجنوده.

يكمل كمال، نمر على مدرستين وقسم للشرطة قبل أن نصل لموقف السيارات، دقائق وكنا نستقل الصندوق الخلفي لإحدى السيارات، أوقفتنا ثلاث لجان للتفتيش كنا خلالها ندعي أننا ذاهبون لود مدني، لا يمر نصف ساعة حتى تتوقف السيارة، ننزل فإذا الجزيرة على مرمى البصر غربا، نتجه لها وسط أشجار متكاثفة تنتهي بغابة، ثم يشق طريق الغابة فيوصلنا لشاطئ النيل، نعبر جسرا ترابيا بعرض عشرة أمتار يقسم مياه النيل لجزأين، تعكس مياه النيل على الجانبين أضواء شمس الأصيل، تطل علينا الجزيرة، في وسطها قرية أصغر كثيرا من الفاشر وربك وكوستي، لا تكاد تساوي الجنينة في الحجم، الجزيرة ممتدة شمالا وجنوبا لمسافة طويلة، يمكن من هنا رؤية النيل على الجانب الغربي للجزيرة فعرضها محدود، تنتشر في جنوبها زراعات وحدائق منظمة، وفي الشمال غابات ومساحات عشب متكاثفة، الأنصار الذين اطمئنوا للوصول يلبسون شاراتهم ويعلقون سيوفهم ويبدأون في الغناء ونحن ننحدر تجاه القرية مرددين

- إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام

نمضي كما مضى الجدود وسجلوا لنا الخلـــود
وحطموا كل القيـــود بالدين والبأس الشديد
بسيوفهم كشفوا الظلام
إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام

قبل أن ننتهي من عبور الغابة الحمراء على مدخل الجزيرة تستوقفنا لجنة تفتيش، خمسة أنصار بعمائمهم وملابسهم البيضاء المرقعة بقطع حمراء وصفراء وزرقاء وسوداء بيد كل منهم حربة، على مسافة غير بعيدة ساتر ترابي خلفه ثلاثة آخرين مستلقون خلف رشاش، النساء وقفن أسفل شجرة على جانب الطريق، يتحدث طه وكمال مع اللجنة، يجيء صوت من داخل الغابة ينادي

- تأخرت كثيرا يا طه.

يقدم رجل طويل نحيل ذو رقبة طويلة ووجه مثلث تماما كوجه الزرافة، يسعى نحونا بهمة يهتز لها جسده الفارع، ينحني فيعانق طه عناقا طويلا، يصافحنا جميعا بود وقوة، ثم يعود لطه قائلا

- كيف حال الإخوة في دارفور؟

يرد طه وهو ينزل جوالا عن كتفه

- بخير يا صدِّيق، كلهم على أهبة الاستعداد لتلبية النداء، كيف حال عمي وعمتي.

يرد صدِّيق، وهو يضع سيفه في غمده

- بخير.

قال طه وهو ينظر للساتر

- ألم تنجب بعد؟ يبدو أنه سيكون جهادا يا صدِّيق.

قال صدِّيق وهو يحمل الجوال عن طه ويتأبطه بالذراع الأخرى ويهبط للجزيرة

- لا ليس بعد، أين زوجتك؟

يرد طه بحزن

- توفيت.

يقول صدِّيق وهو يسترجع

- رحمها الله، سيزوجك عمك.

تقول عشة من خلفهم

- إذن سيزوجه بالثالثة.

يلتفت صدِّيق لها وللرضيع على كتفها ثم يقول لطه

- مبارك زواجك، كل هؤلاء معك؟

يقول طه

- بعضهم.

يقول صدِّيق ببشاشة

- في بيتي متسع لكم.

يقول العم لعبد الله الذي يتلفت خلفه للساتر

- علامَ تتلفت؟ ستكون حربا وأي حرب.

الحصــار

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا- نوفمبر: يناير - ١٩٦٩ : ١٩٧٠

نصل إلى بيت من اللبن مع غروب الشمس، بمجرد وصولنا أمام البيت ينزل عثمان والأنصار الأغراض، ثم يقول لطه

- لي أمانة معك.

يخرج عثمان مسدس الضابط ويضعه في يده، يتلفت الأنصار ناحية المسدس بانبهار، يدسه في جيبه ويقول

- النقود.

يخرج طه حزمة من النقود ويعطيها له، يقول

- ونقود المحصول.

ينظر طه للعم وعشة، فيقول العم يائسا

- أعطه ما يريد.

يخرج طه حزمة أخرى من النقود ويمدها له، تجري عشة وتنزع النقود من يد عثمان، قائلة

- هذا كد الجميع.

ينزع طه النقود من يدها ويمدها ثانية لعثمان، يتناولها ويأخذ منها ورقة ثم يعطى الباقي لعشة فتتناوله وهي تنظر للعم الحزين المستند على جدار البيت، كلتومة تنظر للناحية الأخرى من الدرب، يحمل عثمان

- الساعة والمحفظة.

يتلفت طه للأغراض ثم ينحني ويفتح جرابا ويخرج الساعة والمحفظة ويناولهما له، يأخذهما وينصرف دون أن يلقي السلام، يمضى وسط الأنصار، أناديه

- لا تنسَ وعدك.

يرد بعد خطوات وبدون أن يلتفت

- يمكنك إبلاغ أول جندي تقابله.

يذهب. يلتف حوله الأنصار، يتبعهم ظلهم الذي رسمته لمبة عامود الإنارة على رأس الدرب، يشيعهم العم بنظرة حزينة حتى يعرجوا تاركين الدرب متجهين جنوبا نحو السراي.

يقول طه لصدِّيق بخجل مصطنع في محاولة لتجاوز الموقف

- نخشى أن نضيق عليكم البيت.

يقول صدِّيق وهو يتركنا ويلف حول البيت

- هو بيت عمك ضاق أو وسع.

يغيب صدِّيق لدقيقة ثم يفتح الباب الأمامي للمنزل ويرحب بوجه بشوش

- تفضلوا.

ندخل لممر أرضيته طينية على جانبيه غرفتان، تضيء لمبة كهربائية مدلاة بسلك من السقف الخشبي، يفتح باب الغرفة اليمنى ويدخل فيتبعه طه الذي يقول

- هنا يسكن عبد الله وأبكر.

يخرج صدِّيق ويفتح باب الغرفة اليسرى، يقول طه دون أن يدلف

- هنا سيسكن العم وكلتومة.

يفضي الممر لبقية البيت. نجتازه ونقف وسط أشجار نيم ودوم وعدريب ثلاث تتوسط حوش واسع يفرق بينها خطوات، تقدم امرأة أربعينية واسعة العينان متهللة الوجه من جانب الحوش، المرأة أقرب للطول متينة البدن، تعلق حلقا ذهبيا بأنفها، تصافحنا بود، يحيط بالحوش أربعة غرف ودورة مياه، يقول صدِّيق لطه

- هنا غرفة أخرى خاوية تسكنها أنت وزوجتك والرضيع.

يخرج من إحدى الغرف عجوز قصير القامة نحيل الجسد يشبه طه كثيرا بلحية بيضاء تكسي ذقنه وتكاد تختفي من باقي وجهه الباسم المضيء، يمسك بيد امرأة عجوز فارعة الطول منحنية الظهر، يصافحنا ويعانق الطفلين، ثم يقول لطه وهو يعانقه

- أخيرا تذكرت أن لك عما.

- دوما على البال يا عم حسن.

يقول طه وهو يتقدم نحو العجوز ويجلس لتراه

- كيف حالك يا خالة؟

ترفع وجهها قليلا وتدقق النظر له وتسأله

- من أنت؟

ينظر لها جانبا العمدة الذي يقول بأسى

- منذ شهور لم نعد نعرف أحدا حتى نحن.

ثم يعيد النظر لها متفحصا ويكمل

- أين زوجتك؟

يترك العجوز ويقف بجوار العم حسن

- توفيت.

يقول العم حسن

- ستفنى هذه العائلة ولن يبقى لها عقب.

تغادر درة الأربعينية بين شجرتي النيم والدوم لغرفتها منكسة الرأس، يقول صديق لوالده

- زوجه بأخرى.

تلتفت الأربعينية وتنظر وهي على باب غرفتها، يقول العجوز وهو ينظر لكلثومة وعشة

- أيهن؟

تقول عشة وهي تتقدم خطوة نحوه

- أنا يا عم.

يدقق النظر في الرضيع على كتفها ويقول

- حسنا، امرأة ولود.

ثم ينظر لكلثومة ويسأل

ـ من الصبية؟

يرد العم ضجرا

ـ ابنتي.

ينظر العم حسن نحوي ويسأل

ـ أهذا زوجها؟

يقول العم ضجرا

ـ هل انتهينا من تحقيقات لجان التفتيش ليحقق معنا هنا؟

يترك يد زوجته التي استندت بها على فخذها ورفعت رأسها تتأملنا بعينين ضيقتين غائرتين، يستند على جذع شجرة الدوم بيده ويقول للعم

- قريبا يحقق مع كلينا في يوم لا ينفع فيه الضجر.

يعدل العم ثوبه الأبيض المتسخ ويقول

- وقتها لا يسأل حميم عن حميم.

يقول بخجل

- فقط أردت أن أتعرف على من يعاشروننا.

يقول طه وهو يوسع الطريق ويأخذ بيد العم للممر

- أمامنا الكثير من الوقت لنتعرف حتى على أنفسنا.

في ليلتنا الأولى، بمجرد أن ننتهي من تناول العشاء بغرفتي ينام أبكر على أحد السريرين، يصر طه وصدِّيق أن يصطحبوننا لرؤية الإمام، يعرض عليّ وعلى العم مبايعة الإمام، أسأله

- علام أبايعه؟

يجيب صدِّيق الواقف ينتظرنا

- على بذل المال والنفس في سبيل الله.

يسأل العم المضجع

- وما المقابل؟

يجيب صدِّيق وهو يجلس بجوار الباب

- إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

يقول العم حسن المستند على الحائط الطيني وهو ينظر لي

- بل القتل، لا يأتينا من وراء المهديين سوى القتل، قتل جدي وأعمامي جميعا في وادي كرري

يقول صدِّيق بتلطف

- بل نبايع الله من أجل أن نلحق بأجدادنا الشهداء أو ننتصر فنحيا كرماء، ثم إنه قتل مع أجدادك خليفة المهدي والكثيرون منهم.

يقول العم وهو يضحك بسخرية

- الشجر هنا كثير، لكن أين النبي لتبايع الله على يديه؟!

يقول العم حسن وهو ينظر لي

- بل هي الدنيا يريد أبناء المهدي أن يسودوها على جثث الباقين من العائلة.

ثم ينظر لطه وصدِّيق الجالسين خلف الباب

- من أجل من تحاربان، كلاكما لم يترك فرعا ليرثه، أنجبا لي طفلا ثم اذهبا حيث تريدان.

يقوم صديق ويقول

- ليس وقتا للحديث عن هذا يا أبي. ثم أنك تعلم أنني لن أحارب، عملي فقط كممرض في المستشفي. وقت تقوم حرب لن أغادرها.

يرد العم حسن وهو ينظر للعم

- كلمات يقولها لا تصدقه. التقاه طه وهو بالغابة الحمراء يكمن لجنود نميري. هل كتب على هذه العائلة أن توقف حياتها على المهديين؟ بعدما مات أجدادي. هرب أبي وجدتي لدارفور. ثم بمجرد أن أنجبني ووالد طه رحل للشكابة حيث قتل مع المهديين هناك، بمجرد أن اشتد عودي رحلت لهنا. عملت لسنوات في قطع الأخشاب وتمهيد الأرض وزراعة القطن. ثم امتلكها ابن المهدي في مقابل طعامي وسكني وكسوتي. وها أنا بعد كل تلك السنوات التي عملتها لا أمتلك شيئا أعيش عليه ولا معاشا كموظفي الحكومة، حتى هذا البيت لا أمتلكه. هو ضمن أملاك دائرة المهدي. وها هو ابن آخر للمهدي يأخذ الفرعين الباقيين من العائلة ليرمي بهما تحت قدميه ليعلو ويسود.

يرد طه

- أوصاني أبي ألا أترك راية المهدي.

يرد وهو ينظر لطه باستهجان

- درويش آخر من دراويش المهدية، مات أبوك قبل أن يترك المهدية راية الجهاد ويرفعون راية المال. لو كان حيا لحبسك موثقا في قطية بوادي أجرد، لكنني شخت وغير قادر على حبسكما.

يقول العم محاولا تلطيف الجو الذي عبق بسخونة الحوار

- حمير طليقة خير من أسود حبيسة.

يقول العم حسن بحسرة

- المشكلة أنني أرى ما سيكون، صدقني ستكون الدور مهدمة والأشجار محترقة والجثث متناثرة، سيكون الجميع بين قتيل وجريح ومكلوم، وابن المهدي هارب تحت غبار الأرواح المزهقة يجر ذيله للفرار من الجزيرة.

يقول طه بغضب

- لا يفر الإمام، إما ينتصر أو يستشهد.

يقول العم وكأنه يحدث نفسه

- تولَّى٢٦ من هو خير منه عندما استزلَّه الشيطان ببعض ما كسب.

لا ينتهي الشجار إلا بوقوفي وقولي لطه وصدِّيق

- أنا قادم معكما، لكن فقط لأصلي العشاء والقيام.

الهواء الساخن بالدرب ساكن لزج برطوبة خانقة، أتناول طرف عمامتي وأمسح العرق عن وجهي، يأتي صوت المؤذن قويا عميقا، هي أول صلاة قيام أصليها مع جماعة منذ خرجت من بلدي، كان ولد حسين يرفع الأذان والإقامة وأتبادل ومولاي الإمامة، هو يصلي العشاء ويتركني لأصلي به وبالناس إحدى وعشرين ركعة، كنا نختم القرآن مرتين، مرة في القيام وأخرى في صلاة التهجد بالعشر الأواخر، كانت الفرحة تطال كل شيء طوال الشهر، في ليلة الرؤيا يخرج الكثيرون بالأعلام يطوفون

البادية منشدين الذكر في وجد، يزفهم الأطفال مبتهجين، هنا لا أرى بهجة في الطرقات، كل الوجوه التي تهرول للحاق بالصلاة قلقة مترقبة، السيوف معلقة والحراب بالأيدي، حتى طه علق سيفا وأمسك بحربة، لا أطفال بالطرقات، نخرج من الشارع بلمبات إضاءتها الصفراء خافتة، لتستقبلنا الإضاءة الباهرة التي ترفل فيها سرايا الإمام، نمشي بجوار السور الحجري المحر بالأسمنت الذي يحيط بها، أمام بابها الشمالي أتوقف لأنظر داخلها، الضوء يسيل على جدرانها ويتعداها للسور والخارج، عتبات رخامية مهندسة أمام بوابة معدنية مشغولة، ممر واسع مرخم ببلاطات صفراء براقة، على جانبية حدائق بأشجار زاهية وعشب مقلم، ينتهي الممر بعتبات رخامية تصعد لمدخل السراي، الأعمدة الرخامية الخضراء التي تحمل السقف الهابط تلمع تحت الضوء المبهر فتعكسه ليرتد ملونا مبتهجا، النوافذ الخشبية الخضراء النظيفة بعضها مفتوح يلقي بالمزيد من الضوء للخارج، لون السراي الأبيض كلون زهور السمسم الذي دمره الجراد لكن لا جراد مر من هنا، الجنود خارج السراي ببشرتهم السمراء وكأنهم ملفوظين من حفل الشموخ والكبرياء والمجد في الداخل. ألتفت لطه فيقول وكأنه يرى ما يدور داخلي

- يقابل فيها الزوار من كل الدنيا فلابد أن تكون مناسبة لهم.

يقول صدّيق وهو يهرول

- ستفوتنا الصلاة خلف الإمام.

أصل معهم لجامع الكون المجاور، طريق واسع يفصل الجانب الغربي للسراي عن الجامع الكبير، العشرات يهرولون للحاق بالصلاة،

تشع أرديتهم وعمائمهم البيض تحت الأضواء التي تحيط بالجامع، نصعد العتبات الرخامية اللامعة، مئات المصلين تحت السقف الخرساني المزخرف شاهق الارتفاع، الذي تتدلى منه الكثير من السلاسل الملونة التي تنتهي بلمبات تشع ضوءها على المصلين المتراصين في صفوف لا تملأ الجامع شديد الاتساع والمفروش بأكلمة خضراء، لو أن مولاي رأى هذا الجامع الفخم برواده الفقراء ماذا عساه يقول؟ هل يؤمهم وسط هذا المهرجان من الضوء والألوان والزخارف، أم يخرجهم ويبني لهم مسجدا من جذوع النخل ويؤمهم ويبكي فيبكون، كيف يمكن لهؤلاء الخشوع وسط كل هذا؟ لو كان الأمر بيدي لهدمت هذا الجامع، أحسب أن هذه الأضواء المبهرة تطرد الملائكة، لا خشوع هنا فمن جانب المنبر الخشبي المشغول بالأرابيسك يأتي صوت الإمام الضعيف المتمسكن وكأنه نداء بائع على بضاعة راكدة، والكل مشغول عنها بذاته وبغيرها من البضائع الملونة داخل الجامع.

ننتهي من صلاة العشاء والقيام فيلتف الجميع حول الإمام يهتفون وينشدون، يأخذني طه من يدي ويشق الزحام في اتجاه المحراب يتبعنا صدِّيق، نقترب من الإمام بعد جهد، تحيطه حلقة من الحراس تخفيه عن الأعين، يتقدم طه من فرجة بين يدي حارسين ممسكا بيدي، يرفع الإمام المتربع على الأرض رأسه وينظر نحونا مبتسما، وجهه وضيء ينم عن قوة في تواضع وتبسط، لحيته أسفل ذقنه كثيفة وتصعد لخديه ناحلة مهذبة فتحيط بوجهه القمحي المربع، عيناه سوداوان بارقتان صافيتا البياض، ينحني طه ويرفع يد الإمام الموضوعة على فخذه ويقبلها، أتراجع خطوة

للخلف مفسحا الطريق لصدِّيق فينحني ويقبلها هو الآخر، ثم يتراجع مفسحا الطريق لي، لا أتقدم، ينظر الإمام نحوي، يثبت عينيه في عيني مبتسما ومشجعا، يرفع يده عن فخذه، أتجه نحوه وأجلس قبالته وأمد يدي فأصافح اليد الممدودة ثم أقوم مستديرا لأغادر، يسبقني طه وصدِّيق متراجعان بظهريهما من حضرة الإمام، أمر من بين يدي الحارسين فيقول الإمام

- ردوا عليّ الرجل.

يمسك أحد الحراس بكتفي فأستدير، يدفعني برفق ناحية الإمام الذي يشير لي قائلا

- ادن.

أجلس قبالته وركبتي في ركبتيه، يمد يده فأصافحه يقول بصوت هامس ويدي في يده

- من أين أنت؟
- من شنقيط.

يسأل وهو يخفض صوته أكثر

- ما جاء بك لهنا؟
- في طريقي للحج.
- تحج ماشيا؟
- نعم.

يسأل فلا أكاد أسمعه

- أمعك زاد يبلغك؟

ـ معي الله .
ـ كيف تركت أهلك؟
ـ تركتهم في معية مولاي .
ـ ألك حاجة؟
ـ ذاهب لمن يقضيها ويزيد .

يقول وهو ينظر في عيني مليا وتلمع عيناه

ـ لا تغادر قبل نهاية شوال، ولا تغادر حتى تبلغني، فقد يجعل الله لك رفيقا .

يقول ويضغط يدي بيده ثم يطلقها فأنظر لوجهه الباسم وأقول

ـ أفعل إن شاء الله .

أقوم مستديرا، يفسح لي الحراس فرجة وعلى وجوههم ابتسامة إعجاب، ألمح خلف الجنود كمال ينظر لي مبهورا، وعثمان يصرف نظره عني غاضبا .

تلقي شمس اليوم الأول من رمضان ببواكير أشعتها، يبدأ الضوء السائل من النافذة في الاصفرار، يتقلب أبكر على السرير المقابل ثم يمعن في إغلاق عينيه متحاشيا الضوء، يتقلب معطيا ظهره للنافذة ويغط في النوم ثانية، يدخل العم صامتا، ينظر نحوي ويغتصب ابتسامة، يرقد بجوار أبكر ويغمض عينيه، شاب العم خلال تلك الأشهر كثيرا، وجهه كان به بقايا من نضارة الرجولة الذابلة حين التقيته، لكنه الآن مجعد وغارق في السمرة والشحوب، ملامحه جامدة على مزيج من اليأس

والغضب، منذ طلاق كلتومة وهو لا يتكلم إلا نادرا، سألني عن عثمان بمجرد عودتي بالأمس، قلت له إنه هناك مع الحراس حول الإمام، قام ضجرا لغرفته، عند الباب توقف ونظر لي ثم هم بالكلام، ولكنه صمت وخرج، في الممر نادى على كلتومة، ردت عليه من الغرفة.

منذ غروب الأمس لم أرها، حتى الطعام يتناوله الرجال وحدهم في غرفتي، منذ شهور لم أطعم إلا وهي أمامي، لم يمر يوم لم أرها فيه فهل تمر بقية أيامي هنا بدون أن أراها؟ علها تفطر اليوم معنا، أو حتى أراها ولو صدفة في الممر أو الحوش، يجمعنا بيت واحد لابد أنه سوف تتاح لي الفرصة لرؤيتها.

يدفع طه باب الغرفة ويدخل، أعتدل على سريري فيقول وهو يبتسم

- ألن تبلغني عما دار بينك وبين الإمام؟

أرد بابتسامة

- سبق أن أبلغتك أن الرجل كان يرحب بي.

قال غير مصدق

- فلتقم لنأخذ جولة في الجزيرة فأنت لم ترها إلا ليلا.

بمجرد خروجنا للدرب أرى العشرات يندفعون عبر الشارع مهرولين تجاه السراي، نجري خلفهم، عند السراي جمع غفير من الأنصار يتزايد بانضمام المئات المندفعين بسيوفهم وحرابهم من الشوارع

- وفد حكومي سيأتي خلال دقائق للتفاوض مع الإمام.

يجيب أنصاري مرقع الثياب على طه ويكمل

ـ لنريهم قوتنا، فلقد أصروا على الدخول للجزيرة بقوة مدرعة.

يقول آخر وهو يكز على نابيه فتصر ضروسه

ـ على رأس الوفد وزير الداخلية وعضو بمجلس قيادة الثورة.

ينتشر أنصاريون ببنادقهم على سطح السراي والسطح المقابل لها، ينتظم الأنصار بأرديتهم وعمائمهم البيض في صفوف فيسدوا الشارع أمام السراي والشوارع المحطية بها، تبدو السراي والآلاف من الأنصار بملابسهم البيض يحيطون بها من كل جانب وكأنها تطفو على بحر من الزبد الأبيض، دقائق وتقدم القوة تخترق صفوف الأنصار ببطء مهين، مدرعة في المقدمة خلفها سيارة على جانبيها مدرعتان أخرتان، وخلفها ثلاث سيارات لوري محملة بالجنود المدججين بالسلاح الناري، تتوقف القوة قبل السراي بأمتار، لحظات وتبدأ في الانتشار حول السراي، الأنصار يشرعون حرابهم ويدقون على العربات بأيديهم، تتقدم سيارة الوفد وتقف أمام الباب مباشرة، يدلف طه لداخل السراي فأتبعه، نقف على جانب بين السور وعتبات السراي الداخلية، قبل أن يفتح الباب لينزل الوفد يدوي صوت هائل من السماء، أتلفت لأرى ثلاث طائرات تكاد تلامس الأسطح تعبر من فوقنا محدثة حالة من الهلع يتبعها تكبير مدو من الأنصار، ثم تعود الطائرات لتحلق ثانية فوق الرؤوس فيرفع الأنصار حرابهم نحوها مكبرين، يغيب أزيز الطائرات فينزل أنصاري من العربة، يتقدم مجموعة كبيرة من الأنصار متشابكي الأيدي، فيخلقون حلقة تحيط بالسيارة من كل اتجاه حتى نهاية عتبات السراي الداخلية،

ينزل رجال الوفد الأربعة يتقدمهم الوزير بملابسه العسكرية، يتلفتون للأنصار المطبقين عليهم ويدلفون للداخل

- ماذا طلبوا من الإمام؟

يسأل العم حسن المتربع بجوار العم على سريري، فيرد طه الجالس على الأرض بين السريرين

- لم يطلبوا سوى السماح لهم بإنشاء نقطة للشرطة في الجزيرة.

يسأل وهو ينظر للعم

- فقط؟

يرد طه بحماس

- وماذا لهم عند الإمام ليطلبوا أكثر من ذلك؟ لكن الإمام طلب منهم الكثير.

يقول للعم

- هؤلاء لم يأتوا للتفاوض، هؤلاء أتوا للاستطلاع بأنفسهم.

يسأل صدِّيق الجالس بجوار طه

- ماذا طلب منهم الإمام؟

يجيب طه وهو ينظر نحوي متفاخرا.

- أن يعودوا لثكناتهم، ويعيدوا الأحزاب والبرلمان، وأن يستفتوا الناس على الدستور الإسلامي ويزيحوا الشيوعيين الملاحدة من واجهة الحكم، ويفرجوا عن المعتقلين الأبرياء في سجونهم وعلى رأسهم الصادق المهدي، وأيضا رفض الإمام إنشاء نقطة الشرطة

- الله أكبر.

يصرخ صدّيق ويكمل وهو ينظر لي

- أرأيت كيف يكون الرجال؟

يسأل العم حسن بسخرية وهو يحني رأسه نحو طه

- ومتى سيفعلون ما طلب الإمام؟

- قالوا إنهم سيردون عليه قريبا.

يقول وملامحه تتبدل من السخرية للقلق

- ليتهم لا يردون.

يقول العم الذي يلوك بقايا الصمت

- فليحضر كل منكم كفنه.

ثم يكمل بغضب، وهو ينظر عبر النافذة التي يتكاثف الغروب خارجها

- ألن يؤذن هذا لنفطر؟

أضحك وأقول له

- العم صائم اليوم، وأيضا أحدهم سرق مصحفي؟

ينزاح لداخل السرير ويضجع خلف العم حسن

- أتبارك به في الغرفة المقابلة.

أقوم عن السرير الآخر مخليا أبكر وحده، أتقدم فأجلس على حافة السرير الآخر، أضع يدي على كتف العم

- بل أنا أتبارك بك.

ينظر لي بعينيه البنيتين ويقول

- كانت كلتومة تقرأ في مصحفك، رغم صوتها الجميل كنت ضجرا من ترتيلها، كنت أحاول الهروب من الآيات التي تحيط بي فلا أجد ملجأ، فلما أتت على آية زلزلتني، وكأن عيني لم تقعا على هذه الآية من قبل، وكأنني ما حفظتها وتلوتها مئات المرات.

ثم يرتل وهو ينظر للسقف

- "أفحسب الذين آمنوا أن يدخلوا الجنة ولما يأتهم مثل الذين من قبلهم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله"

- أخيرا تذكرتها؟

أقول فيكمل وعيناه تغرورقان

- وكأنني لم أقرأها من قبل.

أنحني عليه فأقبل جبينه المجعد

- هي الخلاص للمعذبين.

يمسح دمعات على خديه ويقول

- نعم، هو الخلاص ولا خلاص سواه.

يقف طه ثم يجلس بجوار أبكر ويقول

- كان عثمان سيسعد كثيرا لو سمعك.

يرد وهو يبكي

- أنا من ضيعته، فعندما يتحول الإمام لزنديق، فلا بد أن يتحول المأموم لقاتل.

يقول طه رافعا صوته

- أمامنا متسع لنسيان كل ما حدث.

يقول العم وهو ينهنه

- وهل يستطيع هو النسيان؟

يتحرك طه فيقف بجوار حافة سريري فيزيد الظلام الوليد بالغرفة قوة

- لو أشارت له نعجتك الحرون سيأتي ناسيا حتى اسمه.

يرد العم وهو يعتدل

- سبحان مقلب القلوب.

يجلس طه على الأرض واضعا يديه على حافة السرير

- ألهذا الحد؟

يجيب العم وهو ينظر نحوي

- ولأبعد مما يمكنك تصوره.

أقوم من جواره فيقول طه لي

- يجب أن تنسى ما حدث.

أجيب وأنا أتجاوزه لوسط الحجرة

- أعلم ما يجب عليّ فعله.

أقول وأتحرك لخارج الغرفة، أقف على باب البيت، نساء يفرشن الدرب بالحصر، وأخريات يحضرن آنية طعام وأطباق وزجاجات مشروبات ملونة، يبدو أن الجميع هنا يفطرون سويا، ولا أستبعد أن تكون كل الدروب بها موائد مماثلة، تغيب الشمس تاركة القليل من الشفق المتناثر فوق السماء البنفسجية الرائقة، القليل من بقايا أشعتها

بلون هامات الأشجار، تخرج زوجة صدِّيق وعشة وكلتومة من الباب الخلفي يحملن آنية وأباريق وحصر، يمررن من أمامي لا يلتفتن لي، يفرشن الحصر ويضعن الآنية عليها ثم يدبرن راجعات، تمر زوجة صدِّيق لا تنظر لي، عشة تنظر نحوي مبتسمة وتذهب، تتوقف كلتومة أمامي، تنظر في عيني فيتلون وجهي، تقول

- كل عام وأنت بخير.

يدق قلبي بعنف، أردد متهدجا

- وأنت بخير.

تقول وهي تنظر خجلى للأرض تحت قدميها

- لتسأل أحدا إن كان لي عدة أم لا؟

أرد وأنا أنظر للدرب الذي اختفت أرضه

- لا عدة لك.

تقول وهي تنظر لي مبتسمة

- حسنا أنك تعلم.

تمشي خطوات ثم تستدير وتكمل

- مصحفك معي.

انتهينا من صلاتي العشاء والقيام، انتظرت حتى يخف الزحام لأجلس بعض الوقت مع العم الذي لم يعد يفارق المسجد، فقط يأتي للإفطار والسحور ثم لا نراه نهارا أو ليلا، وها هو يعتكف بالمسجد منذ بدأت العشر الأواخر من رمضان، أبكر لا يفارقه، في منتصف الشهر غضب عليه، لا يتقدم في الحفظ بالشكل المأمول، يطلب مني أن أحفظه حتى ينتهي من المفصل ثم أرسله له.

الليلة ليلة السابع والعشرين، يحضر الإمام صلاتي العشاء والقيام، منذ لقاء الوفد معه لا يأتي للصلاة بالمسجد إلا نادرا، والمرات القليلة التي أتى فيها كان محاطا بعشرات الحراس، فالأنصار يخشون على حياته منذ ردت الحكومة على طلباته بتأميمها لمحلج ومعصرة زيوت ربك، وبتشديد الحصار على الجزيرة، وبتدعيم قواتها في كوستي وربك بعشرات المدرعات والدبابات والمدافع الروسية وآلاف الجنود، وبإنشاء نقاط عسكرية على كل حدود الجزيرة، علم الأنصار عندها أن النميري ينوي شرا، وها أنا في انتظار فرصة للقاء الإمام حتى أبلغه بما فعله عثمان وأضع المسئولية في رقبته، إن شاء عاقبه وإن شاء تركه، فلا جنود هنا ولا شرطة، هو الحاكم وحده في هذه الجزيرة التي لاذ بها عثمان ولن يخرج منها أبدا، لو لم تتح لي الفرصة للقائه حتى العيد سأذهب للسراي وأطلب لقاءه، هذا إذا انقضى رمضان قبل أن تقوم قيامة هذه الجزيرة.

ينفض الزحام فألمح عثمان يجلس بجوار العم في المسجد، العم يستند على الجدار يستمد منه بعضا من رطوبة رخامه ويرتل بينما عثمان يمسك بالمصحف مفتوحا على فخذيه مطأطئا رأسه في خشوع، معهما كمال وقد ارتدى ملابس أنصارية، يمسك بمصحف ويجلس على بعد خطوات مستندا هو الآخر على الجدار، يطلب أبكر البقاء لقضاء الليل مع العم، أخرج مع صدِّيق وطه الذي يقول بمجرد خروجنا من المسجد

- يبدو أن العم أمسك بلجام فحله الشارد.
- سأذهب للمستشفى فلدي وردية.

يقول صدِّيق ويغز السير أمامنا

ـ يبدو أن عشة حبلى.

يقول طه وكأنه يحدث نفسه، أرد فرحا

ـ أخيرا شيء مبهج وسط كل هذا الهم، مبروك، ها هو العقب الذي ينتظره العم حسن في الطريق إليه.

يكمل بدون أن يلتفت لي

ـ كنت أتمنى أن يولد هناك في الوادي، فأبناؤنا يشبهوننا كثيرا إذا نشأوا حيث نشأنا.

أضع يدي على كتفه وأهمس

ـ وما يمنع ذلك؟

يمضي محدثا نفسه بصوت مرتفع غير آبه ولا واع بالعيون التي ترمقه

- المهم أن ينشأ صالحا، أحسب أن عشة قادرة على كسر رقبته لو فكر يوما في الاعوجاج، نعم هي قادرة على حمايته حتى من نفسه، ستغربل التراب وتبيعه ليأكلا لو لزم الأمر، سأوصيها أن تدخله المدرسة، وأن تعود به للوادي يوما ما حتى يرى ما كان وتحكي له عما جرى، بالتأكيد لن تذهب به حيث قتل الضابط، ستذهب به لقبور إخوته وفاطمة، وقبر أبي وأمي وجدتي، لن يكون هناك قبر لي، قبري سيكون هنا، لن يكون وحيدا فله أخ لأمه، كم أعشق ذلك الوادي، ولكن أقدامنا تدب على وجه أقدارنا أحببناها أو مقتناها.

نصل للبيت، فيلتفت لي

- لا تنسَ ما وصيتك به.

وحدي في ليلة القدر، مقيد بضيق ذات اليد وبوعدي للإمام ألا أغادر قبل أخذ إذنه، معي ما يحملني غربا لبلدي أما الشرق فدونه الكثير، لا يمكنني العودة بعد عام ونصف خاوي الوفاض وبدون أن أحج، بعد شهور ستخرج مريم لطرف البادية كل يوم تنتظر وصولي، هل مازالوا بالبادية أم رحلوا؟ لو استمرت السماء على جدبها منذ رحلت فبالتأكيد هم خارج البادية الآن، أستبعد أن يكونوا في نواكشوط، فالمسافة لا يتحملها جياع معهم الكثير من الأطفال والقليل من الزاد، ربما أمطرت والسهول في انتظار وصولي بعشبها الزاهي، لكن بالأمس حلمت بمولاي، كان يتوسد ذراعه وحيدا تحت الشمس وسط أرض جدباء، الريح تسفي الرمال على وجهه، اقتربت منه، وجدت عينيه مغمضتين على دموع تسيل مبللة خديه، وضعت جرابي بجواره، صببت على شفتيه من قربة ماء ممتلئة بيدي، تحول لنبتة خضراء ما لبثت أن تحولت لسدرة عظيمة، ناداني من فوقها، رفعت رأسي فرأيته كصقر على أغصان السدرة، حوم حولها فاردا جناحيه ثم تركها وانطلق حتى غاب عن ناظري في الأفق، قمت منقبضا، قرأت الواقعة منذ استيقظت عشر مرات، لم يذهب قلقي، ماذا لو ذهبت للإمام وطلبت ما يعين أهلي ورحلت لهم، يمكنني أن أحج في عام غير أعوام الرمادة هذه، لكن الإمام مشغول بحربه، أخجل أن أطلب منه بدلا من أن أمد له يد العون، ربما تنقشع هذه الغمة وأرحل بصحبته لمكة، لن يعجز الإمام عن عمل اللازم لأصحبه، أي شيطان وضع تلك الحدود بين البلاد، كان الحاج يغادر من ديارنا إلى مكة ويعود لا يسأله أحد من أنت، سواء مر عبر المغرب فالجزائر فطرابلس الغرب فمصر، أو سلك الطريق الذي سلكته،

فقط كان يجلس في أحد تلك البلاد ليعمل شهورا ثم يتزود بما يبلغه بيت الله ويذهب مصحوبا بحجاج آخرين وبالدعوات، لكن ها أنا أسعى للحج وسط فتن كقطع الليل المظلمة، من أسر لقتل وتستر وسرقة، من زندقة لانتحار، ومن حصار لعوز وحرب تدق طبولها يقتل فيها المسلم مسلما والقاتل والمقتول في النار، بين سندان العسكر ومطرقة رافعي راية الله تفتح جهنم بابها وتفح أنفاسها طالبة المزيد، وأنا أشير لبقعة الظل وسط شمس محرقة، ولا سبيل إلا الانتظار تحت نيرها والصبر.

أغادر الحجرة متجها للحوش لأتوضأ، الممر صامت إلا من بعض حشرات الليل التي تصفر ابتهاجا بالظلام، أسمع حوارا يدور في غرفة طه، أتوضأ من صنبور الماء وأعود لحجرتي، كان دعاء مولاي في الوتر بمثل ذلك الوقت ينزع الدمع من قلوبنا، يرفع الحجب فنرى أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يصطرخون، لكن ها أنا موكول لنفسي، أتخبط بين جدرانها المظلمة طلبا لنقطة نور، فأنا أريد هذه المرأة، أرتاح بجوارها، نظرتي في عينيها تخدر كل همومي، ولكن عثمان يقف حاجزا بيني وبينها حتى بعد أن طلقها، طوال الطريق كان ينظر لي متهما، عيناه تنضح كرها لي، حتى في المسجد نظر لي بمقت بغيض لم أره في عيني أحد من قبل، أحس أنني سأتزوجها على أشلاء عثمان، ليست أشلاء عثمان وحده فمريم في خيمتها تنتظر عودة زوجها حاجا محملا بالخير ليحتضنها بين ذراعيه، ليبرد لهيب فراقه لها، لينسيها ليال الشتاء الباردة بدون رجل يدفئ فراشها، هل ستبقى مريم التي عرفتها عندما أعود وبيدي امرأة أخرى، أم ستتحول للبؤة شرسة تقض مضجعي على الدوام، ولكنني في النهاية أعشق هذه المرأة ولا أملك لهذا العشق دفعا.

يدق باب الغرفة، أقوم فزعا عن سريري، انظر تجاه الباب منتظرا دخولها، يدخل طه، ينظر لي ويفسح الطريق فتدخل عشة، أتنفس بعمق ثم أجلس بعدما يغلق طه الباب، أبارك لعشة التي تجلس على السرير المقابل

- عمي حسن يريد أن يزوج صدِّيق من كلتومة.

يقول طه ويجلس يحملق في هو وعشة. أصمت ناظرا في الأرض الطينية، فتكمل عشة

- قالت كلتومة لو وافق عبد الله فلا مانع لدي.

أنظر لها متعجبا، أقول

- تقصدين العم؟

تبتسم لي فتبدو الشرطات على وجهها أكثر عمقا. تقول

- أعلم ما أقول.

- سأغادر هذا البيت عند الفجر.

أقول بعزم فيسأل طه قلقا

- لأين؟

أرد مبتسما

- لأخطبها من العم.

ثم أكمل

- لكن لتعلم أنني عاهدت زوجتي ألا أمس جسد امرأة سواها، فلن أدخل بها إلا بعد عودتي لدياري

يضحك طه مقهقها، يصفق بيديه، تقول عشة بغضب

- هل كتب على المسكينة أن تتزوج رجالا متبتلين حتى حين؟

- لا يملك للعهد فكا إلا زوجتي.

يقطع كلامي صوت الباب المدفوع، تدخل كلتومة وعلى وجهها أمارات سعادة ونشوة، أقف ناظرا لها، تطأطئ رأسها وتمشي بخفة وغنج حتى تقف أمامي، ترفع وجهها لوجهي وفي عينيها دموع تلمع، تنام عيناي على عينيها ووجنتيها وشفتيها، تقول وأنفاسها تمس وجهي

- مجرد النظر في عينيك بلا خشية يشبعني.

تثبت عينيها في عيني طويلا، ثم تكمل

- فقط أريد أن أحس بأنفاسك وأنت نائم إلى جواري. أريد حضورا نمت على الحلم به منذ شهور، أريد التفاتك لثوبي ولون بشرتي، أريد ذراعا أتوسده، وصدرا نابضا أنام عليه.

تنزع عينيها من عيني، فكرة ما طرأت عليها، تتحرك بسرعة وهي تتلفت في الحجرة، تحضر عمامتي من خلفي، وحذائي من عند العتبة، تضع الحذاء أمامي والعمامة على رأسي، تقول وهي تجرني للباب

- لن أنتظر حتى يؤذن الفجر، اذهب لأديلانو الآن، وإذا نظر لركبتيه وتحسسهما قل له كلتومة تبلغك أنها تريد أن تنام، وقل له إننا سنتزوج أول أيام الفطر.

عثمان إدريس دار

الجزيرة أبا - فبراير ١٩٧٠

- لن يتملكنا العجز لرؤية الطائرات تحلق فوق رؤوسنا، لن نقف مكتوفي الأيدي أمام المدرعات التي تطل برأسها كل حين من طرف الجاسر، لن ترهبنا دباباتهم ومدافعهم بعد اليوم.

يقول خير الله الجالس بجواري في غرفة بالسراي منتشيا، لم يكن يعبر عن إحساسه وحده، فالسلاح الذي ننتظر وصوله أتى منذ الأمس، وها هو حلمي يتحقق ويتم اختياري ضمن أول مجموعة ستتدرب على السلاح الجديد بعد تدريبات لياقة شاقة وعنيفة، وتدريبات على القتال بدون سلاح، وتدريبات للانضباط والطاعة، واليوم هو أول أيام تلقي الدروس النظرية على السلاح، أجلس في إحدى قاعات سراي الإمام التي تخلو من رائحة البيوت التي أفتقدها، تضمني الحجرة ضمن عشرة من بينهم كمال، سيدربنا رجال من الإخوان المسلمين، جماعة أخرى تجاهد لتقيم الشرع والعدل في هذا العالم المجرم، قادة الأنصار ورجالهم لا يعرفون سوى استخدام السيف والحربة وبعض البنادق العتيقة، أما الإخوان فتدربوا على أحدث الأسلحة في معسكرات بإثيوبيا، قال كمال

إن هذه الجماعة تنتشر في كل بلاد المسلمين، سألته لماذا لا يكونون هم والإمام تحت راية واحدة، قال كل يجتهد حسبما يرى لكن إذا جد الجد فالكل يد واحدة، يدخل الأخ محمد صالح عمر بنظارته وذقنه الحليقة حول وجهه القمحي ذو الملامح الوديعة والمشرط في وجنتيه بثلاث شرطات في كل جانب، شعره الأكرد منحسر عن جزء من أعلى جبهته، يدخل وعلى وجهه ابتسامة ثقة ويقين، يلقي السلام ويقف بجوار الحائط حيث علقت سبورة سوداء، يدخل رجال يحملون صناديق خشبية مغلقة يضعونها بحرص تحت قدميه، يخرج الرجال فيلتفت لنا ويقول

- الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، بسم الله الرحمن الرحيم ((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا))، بسم الله الرحمن الرحيم ((قاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله))، بسم الله الرحمن الرحيم ((لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما))، بسم الله الرحمن الرحيم ((فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل قي سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما، ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، وأجعل لنا من لدنك وليا، وأجعل لنا من لدنك نصيرا، الذين أمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا

أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفا)). صدق الله العظيم. يتمثل الشيطان يا إخوان في هذا العصر في صور شتى، وأخطر ما يتمثل الشيطان في الشيوعية، ويتخذ له أولياء وأذنابا من بني وطننا. باعوا الدين للدنيا، وباعوا الشرع الحنيف ليبتاعوا ما قاله ماركس ويمشوا على خطى لينين، هل يعرف الإسلام ماركس أو لينين. الإسلام لا يعرف إلا الكتاب والسنة، ونحن بسماحة ديننا ومروءة أخلاقنا كنا نغض الطرف عنهم عل الله يردهم لدينه ردا جميلا. ولكنهم بغوا وطغوا واستمالوا الفاسدين والملحدين من العسكر، وتولوا سدة الحكم على أسنة الرماح، ثم ها هم يريدون أن يقضوا على كل من يرفع كتاب الله فوق رأسه ويحث الخطى على أثر نبيه والسلف الصالح من أمته، نحن لا نريد دنيا، نحن بعنا حياتنا لله. كل ما طلبناه منهم أن يعملوا الدستور الإسلامي، وأن يفرجوا عن المؤمنين المتقين المعتقلين في سجونهم، وأن يتركوا الشعب ليختار من يحكمه. وحاشا لرسول الله أن تجتمع أمته على ضلالة، لكنهم حاصرونا كما حاصر المشركون الرسول وصحابته في شعب أبي طالب. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، وينصر المستضعفين في الأرض، وها هو الله أرسل لنا من يمدنا بسلاح نقارعهم به، ونزود به عن حمى دينه، فليفتح كل منكم قلبه وعقله، وليعي ما سيلقى عليه وليعلم أن كل خطوة يخطوها وكل شذرة من علم يتعلمها يكتب له بها عمل صالح.

يشعل الرجل الإيمان في قلوبنا، يصمت متطلعا في وجوهنا الملتهبة حماسا، ينحني ويفتح صندوقا ويخرج بندقية بيد خشبية وماسورة معدنية بنية، يرفعها أمامنا ويسأل

- ما اسم هذا السلاح؟ هل يعرفه أحد؟ هي بندقية (لي أنفيلد) عيار ٣٠٣

ثم يضعها بحرص، يستخرج سلاحا آخر ويرفعه ويقول بحماس

- وهذا رشاش برتا.

- وهذا رشاش سترلينج.

- وهذا رشاش برن المضاد للطائرات.

- وهذا رشاش براون المضاد للطائرات.

- وهذا قاذف خارق للدروع أر بي جي.

- وهذا قاذف خارق للدروع بازوكا.

- وهذه قنابل يدوية، وهذا ديناميت، وهذا جهازا للتفجير عن بعد.

أرسل الله لنا ما يدمر كل سلاح لديهم، تبقى أن نتعلم كيف نستخدمه، ((وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)) هل ينجو من يرميه الله أو يجد له مأوى، حاشا لله.

- الله أكبر ولله الحمد.

نجأر في دوي وننشد

إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام.

تمضى عشرة أيام ننتهي خلالها من استيعاب كل أنواع الأسلحة التي تم تدريبنا عليها نظريا، الفك والتركيب الضرب المتقطع والسريع مدى وقوة نيران كل سلاح، أشاد بي الأخ محمد صالح عمر، قدمني

للإمام فهنأني باعتباري الأفضل في مجموعتي، حثني على بذل مزيد من الجهد في التدريب العملي، قال إن أمامي جهد شاق في تدريب الأنصار بعد زوال هذه الأزمة.

اليوم بداية التدريب العملي في طيبة، نصلي الفجر ونذهب لطيبة مع ثلاث مجموعات في أحد لوريات الدائرة التي حملت معنا خياما وأغراضا وأطعمة تكفينا لعشرة أيام، اللوري يشق الطريق وسط آلاف الأفدنة من القطن، النيل بلونه الأزرق يجري على جانبي الجزيرة، يداعب وجهي هواء لطيف ممزوج برائحة زهور الليمون القادمة من الحدائق على طرف الجزيرة الجنوبي، أعتلي مقدمة اللوري وأفرد ذراعي مباعدا بين قدمي، أحسني طائرا وسط الجنة، روائح عطرة، أنهار جارية، خضرة متدرجة، نسيم عليل، ضوء بلا شمس، صحبة فتية في وجوههم نضرة وقوة، لا يفصل الإنسان عن الجنة في الدنيا أو الآخرة إلا أن يهب حياته لله ويتخفف من كل أحمال الدنيا، وأنا تخلصت من كل أحمالي، فبالأمس وبعد صلاة العشاء وبينما أنا خارج من الكون ناداني أحدهم لمقابلة الإمام، ذهبت للسراي مندفعا وأنا أتوقع أن أكلف بمهمة جليلة، أصل السراي التي مازالت تفتقد رائحة البيوت التي أشتاق لها، دخلت الجناح الغربي فوجدت عبد الله جالسا وحده، جلست قبالته، لم أستطع تحريك لساني لنطق السلام، وكأنه كتلة من ركام أيام كئيبة تجسدت أمامي كلها، تفحصته تحت الضوء المنسكب من النجفة من رأسه لقدميه وكأنني لم أره تحت ضوء الشمس آلاف المرات، بدا لي أنه شخص آخر غير الذي عرفته، ببشرته البيضاء وأنفه المستقيم وشفتيه الرقيقتين وجبينه

المنبسط وعينيه السوداوين الواسعتين وحاجبيه الكثيفين الأسودين المقترنين، وشعره الأسود الناعم الكثيف البارز من تحت عمامته، كل هذا لا يمت لعالمي بصلة، كيف صاحبت هذا الرجل واعتبرته أخا لي وائتمنته على الحياة وسط أهلي؟ هذا الذئب الذي لا يخجل من ستر عوراته بأوراق المصحف الذي لا يفارقه، لماذا لم تفارق الجزيرة حتى الآن يا حاج؟ فاتك الموسم غصبا أم أنك تنتظر حمل فريستك معك؟ هل حقا أنت حاج؟ ربما أنت طريد جماعتك؟ لو كنت أتمكن من الذهاب لبلدك لكشفت سترك حينها، فالغربة ستر مهتوك في ديار المرء، كيف حالها معك في الفراش، النهدان المتكوران الشامخان والجسد البرونزي المشدود، والقد النحيل، واليدان البضتان الرقيقتان، والشفتان الملتهبتان.

دخل الإمام يسبقه حارسه ويتبعه الأخ محمد صالح، جلس الإمام فأغلق الحارس الباب ووقف بجواره، وقفت وعبد الله أمامه، جلس الأخ محمد على كرسي بجواره، نظر الإمام نحونا ثم نظر للأخ محمد وقال

- لدينا هنا قضية شائكة نريدك أن تحكم فيها.

ثم نظر لكلينا وقال

- قاضيكم أستاذ الشريعة بكلية القانون جامعة الخرطوم ووزير الثروة الحيوانية الأسبق، فلتتفضل يا أخ محمد.

قال الأخ محمد وهو يتفحص كلينا

- من المدعي ومن المدعى عليه؟

قال عبد الله

- أنا المدعي.
- ما اسمك وسنك ودينك وما دعواك؟
- أنا عبد الله ولد فال خير ولد حسن الحسيني، مسلم من شنقيط، عمري ثلاثون عاما، وقضيتي أنني في أثناء رحلتي للحج قضيت شهورا مع صديقي هذا في الجنينة بدارفور ثم إنه منذ أربعة أشهر وقبل رحيلنا من الجنينة مباشرة قتل ضابط شرطة، ثم في نفس الليلة قتل رجلين آخرين كانا بصحبتنا ليحرسانا، وأريد أن أرفع عن رقبتي ذنب التستر عليه وأضعه في رقبتكم، لا أستطيع تحمل وزر هذه الأرواح المسلمة التي أزهقها.

نظر الأخ محمد نحوي مذهولا وسألني

- ما اسمك وسنك ودينك؟
- عثمان إدريس دار مروة من نيجيريا مسلم وعمري ثلاثة وعشرون عاما.
- هل فعلت ما يدعيه هذا الرجل؟
- نعم فعلت.
- وما دفعك لقتل تلك الأرواح المسلمة؟
- أما الضابط فكان يريد سرقة مالي وقال رسول الله من مات دون ماله فهو شهيد، أما الرجلان، فأحدهما حاول اغتصاب زوجتي وقال رسول الله من مات دون عرضه فهو شهيد، وأما الثالث فكان يريد قتلي، فدافعت عن نفسي فقتلته.

نظر لي الإمام مبتسما بينما أنزل الأخ محمد عينيه من علي ووجهها لعبد الله سائلا

- هل ما يقوله بشأن الضابط حقا؟

- نعم، ولكن هل يستحق سلب أقل من مئة جنيه قتل روح مسلمة وترميل زوجة وتيتيم طفل؟

تجاهل الأخ محمد الإجابة عليه وسأله

- هل سرق الضابط هذه النقود من المدعى عليه؟

- كان هناك اتفاق أن يعطينا ورقا يثبت أننا سودانيون في مقابل تلك النقود، وأعطانا الورق، وأخذ النقود.

قلت مندفعا

- لم أوافق على هذا الاتفاق.

سألني الأخ محمد

- هل وافق أحد له شبهة ملكية للمال على الاتفاق؟

- نعم.

- هل استلمت الورق محل الاتفاق؟

- رفضت استلامه.

وجه سؤاله لعبد الله

- هل تعلم أنه رفض استلام الأوراق؟

- نعم، فكلانا رفض استلامها.

- هل قتله بعدما أخذ النقود أم قبلها؟

- بعدها.

- هل وجد النقود بحوزته؟

- نعم.

- هل حاول القتيل الثاني اغتصاب زوجته؟

- نعم.

- هل حاول القتيل الثالث قتله؟

- نعم.

- أما الرجلين فقتله لهما كان بحق، أما الضابط فارتشى ولم يسرق، وهناك مشتركون في نفس المال قد وافقوا على الاتفاق الفاسد، وقتله غير جائز، ويجب أن يقتص منه لقتله، إلا أن يعفو ولي الدم، أو يعفو ولي الأمر.

نطق بحكمه وهو ينظر للإمام الذي تفحصني طويلا ثم قال

- وولي الأمر يعفو عن هذا المجاهد في سبيل الله حتى يظهر للدم ولي، عندها يكون الأمر له إن شاء عفا وإن شاء اقتص.

صرفني الإمام فخرج معي الأخ محمد، استبقى الإمام عبد الله، سمعته وأنا أخرج يقول له

- فلتسامحنا إن ضيعنا عليك موسم الحج هذا العام.

خرجت منشرحا خفيفا بعدما انزاح الثقل عن قلبي، تركني الأخ محمد بعدما أوصاني بصيام ستين يوما، تركت السراي وتوجهت لبيت صدّيق، أبلغت العم وانصرفت وهو يبكي، مازال السرور يتملكني حتى الآن، وها أنا أطوي قلبي على جرح كلتومة الذي لا أظنه يندمل ما حييت، وأفرد ذراعي للحياة، متوجها مع رفقاء الجهاد للخندق الذي

حفره عمال الدائرة للتدريب العملي على السلاح، الخندق بعمق ثلاثة أمتار، وعرض ثلاثة أمتار وبطول لا يقل عن خمسين مترا، مثبتة جوانبه الطينية السوداء التي تنز ماء بأخشاب حتى لا ينهار علينا، الخندق وسط حدائق البرتقال التي يتضوع رحيقها الزكي حولنا، الكثير من الأنصار قطع عشرين كيلو على قدميه ليشاهدنا ونحن نتدرب، يلتئم شمل اللوريات التي أحضرتنا، يتجمع حوالي ألف مجاهد قدموا من كل أرجاء السودان، يوحدهم العقيدة والهدف والوجوه السمراء والأردية الأنصارية البيضاء، يتم تقسيمنا لسرايا وكتائب حسب السلاح الذي سنتدرب عليه، ننصرف فنبدأ في نصب الخيام وسط الأشجار على شاطئ النيل الشرقي، بجوارنا وعلى*مرمى البصر مرسى المراكب الذي يحتل نقطة انقسام النيل على جانبي الجزيرة. يتصاعد البخار من سطح النيل ويتكاثف مشكلا ضبابا يجعل الفضاء فضيا غامضا.

ننتهي من جلبة نصب الخيام حين تبزغ الشمس صفراء مدرجة بالشفق، سريتي أربعة أفراد خير الله وحسب النبي وكمال، وحده حسب النبي من أهل الجزيرة، شاب في الخامسة والعشرين، برأس كبير يعلوها شعر أكرد وجبين واسع وعينين سمراوين وأنف أفطس، يعمل فلاحا في دائرة المهدي، أما خير الله فمن دنقلة قدم للجزيرة قبل وصولنا بشهر، يعمل صيادا في بلدته، هو الآخر في مثل عمر حسب النبي، إلا أنه صغير الرأس بشرته قمحية وعيناه ضيقتان وأنفه مستقيم وشعره ينحسر كثيرا عن مقدمة رأسه، هو عضو بجماعة الإخوان المسلمين.

مهمة سريتنا التدريب على استخدام الـ أر بي جي. نقف مع بقية السرايا في صفوف متجاورة وعيوننا على الخندق الذي تتراص على جانبه صناديق الأسلحة والذخيرة، على الجانب المقابل يقف الإمام وحوله رجال الإخوان، يؤدون التحية للإمام، ويتوجه كل منهم ويقف أمام كتيبته. على رأس كتيبتي الأخ محمد صالح، ينشد الجميع نشيد الأنصار. والإمام ينظر نحونا وعلى وجهه أمارات الرضا، يعطى الشيخ محمد صادق الكاروري التحية للإمام وينزل للخندق ويتوالى نزول سراياه للخندق الواحدة تلو الأخرى، تنزل إحداها فنسمع صوت توجيه الشيخ لهم وتصويبه لتوجيههم السلاح ثم طلقات رصاص متقطعة وتخرج السرية وتنزل التي تليها. لم يكن دوري قد حان لنزول الخندق عندما ننصرف في الظهيرة للراحة حتى العصر. نتوجه للخيام، نوزع علينا الغذاء الساخن، تتجمع السرية حول القصعة تأكل بنهم، حسب النبي يأكل ساهما، أسأله

- ماذا بك؟

- هل يكفي أن تطلق رصاصة واحدة لتكون مدربا؟

يسأل فيرد خير الله بلغة العالم ببواطن الأمور

- هناك نقص في الذخيرة.

أقول لخير وقد أغاظني أسلوبه المتعجرف

- فليقللوا الأعداد ويحسنوا التدريب.

يرد هازئا

- يقللونها أكثر من ذلك، الأعداد تساوي الأسلحة بالكاد، لو استشهد أحدنا لن يجدوا من يحمل سلاحه

أحاول ابتلاع سخريته.

- فلنستخدم نصف الأسلحة.

يرد وهو يبتلع فتبرز حنجرته

- لن يفعلوا غير ذلك.

يسأل حسب النبي

- وهل يكفي ألف رجل للدفاع عن جزيرة طولها عشرات الأميال وعرضها أربعة أميال؟ في مواجهة جيش حكومي يمتلك المدرعات والدبابات والطائرات والمدافع.

يرد خير الله متأففا من كثرة الأسئلة

- يكفون للدفاع عنها لثلاثة أيام بمساعدة حشود الأنصار.

يسأل حسب النبي بإلحاح

- حشود الأنصار بالحراب والسيوف؟

يرد خير الله وهو يمسح يديه في تراب الأرض

- وبالعصي أيضا.

يسأل كمال الصامت منذ دخلنا

- ولماذا ثلاثة أيام؟

يرد خير الله بثقة

- حتى تتوجه معظم قوات الحكومة لهنا. فيتمكن الشرفاء من رجال الجيش مع الأنصار والإخوان في الخرطوم من استعادة السلطة. وهي مدة كافية لاستدعاء قوات الأنصار في غرب السودان لو لزم الأمر.

يسأل حسب النبي بتوجس

ـ وهل هم قادرون على فعلها؟

ـ ونحن أيضا قادرون على فعلها.

يقول ويخرج من الخيمة هاربا من الاسئلة، أسال حسب النبي بمجرد خروجه

ـ من أين يأتي خير الله بكل هذه المعلومات؟

يقول حسب النبي وهو يشد يدي لأقوم معه

ـ هو عضو في تنظيم الإخوان.

أنظر لكمال سائلا

ـ ألست عضوا بالإخوان؟

يشيح بنظره عني، يقول حسب النبي

- لست من هذا الوطن، هؤلاء كالدول البعض يحيا فيها مضللا لا يعلم شيئا، والبعض يحيا فيها مضللا ومعه علم كل شيء.

يقول كمال الذي تمدد واضعا ذراعيه معقودين خلف رأسه

- الأسوأ أنه إذا كانت كل هذه المعلومات لدى خير الله فبالتأكيد وصلت لنميري وقواته.

أخرج وحسب النبي فيتلقفنا الجو اللافح خارج الخيمة، يخلع رداءه ويعلقه بجانب مئات الأردية المعلقة على غصون أشجار البرتقال، يقول وهو يتقدم صوب النهر

- المعلومات في هذا البلد مكشوفة تماما مثل هذه الجزيرة التي سندافع عنها، لا تلال ولا غابات كثيفة نحتمي بها.

أخلع ردائي وأعلقه على شجرة ليمون صغيرة، أتقدم نحو الشاطئ وسط صخب المئات من الأنصار الصاعد من النهر، أقف على الحافة أنظر للماء الجاري ولعب الرجال وسطه، أتلفت للشمس العمودية المتسلطة، أقفز للماء البارد وسط الرجال.

مع انتصاف الليل يجيء دورنا للنزول للخندق، يسبقنا الأخ محمد صالح بالنزول، بعدما نتجمع حوله يقول

- أمامكم مهمة جليلة، فمدافع الـ أر بي جي سهلة النقل، ربما تتحركون بها خارج الجزيرة لاصطياد مدرعات العدو، فشل فرد منكم في تصويب دانة واحدة يعني كشف موقعكم للعدو، عندها ستكون نهايتكم جميعا، عثمان ينادى فأتقدم خطوة للأمام، يديرني ناحية نهاية الخندق حيث لوحة وسطها دائرة للنشان، يضع ماسورة المدفع فارغة على كتفي الأيسر، يضغط على كتفي فيجلسني مرتكزا على ركبتي اليمنى ثانيا رجلي اليسرى مرتكزا على قدمها، يركب الدانة في مقدمة الماسورة بمهارة، يأمرني أن أرى النشان من فوق الدانة، يطلب مني حبس نفسى وشد جسدي، ثم يأمرني بالقيام، يتناول مني المدفع ويفك الدانة، يجلس كمال مكاني.

نعود للخيمة بخيبة الأمل، كنا نتوقع أن نطلق قذائف ونتأكد من قدرتنا على إصابة الهدف، لكن الأخ محمد عندما لمح الإحباط في وجوهنا، قال إننا سنطلق القذائف في اليوم الأخير للتدريب، أمر علينا خير الله، قال إنه أكثرنا دراية بالجزيرة، يقول حسب النبي بمجرد دخولنا

- ماذا لو قامت الحرب قبل اليوم الأخير للتدريب؟

يرد خير الله بعجرفته

- عندها لا تحارب. بل يمكنك من الآن الذهاب لبيتك إذا كان الخوف يتملكك لهذا الحد.

يقول كمال وهو ينظر خير الله بغضب

- إياك أن تتحدث مع أي منا بتلك الطريقة الوقحة. قد يكون أكثر شجاعة منك. لكنه لا يعطل عقله مثلك.

أقول لهم بغضب

- ألن ننام في هذه الليلة؟

يصمتون. يتحرك كل منهم لفراشه المبسوط على أرض الخيمة. أتمدد على فراشي معطيا ظهري لهم. يقول كمال الممدد أسفل قدمي

- انتهت الحرب في نيجيريا.

أعتدل متربعا، يلجمني الخبر. يضحك وهو مازال متمددا ويقول

- ألا تريد أن تعلم المزيد من الأخبار؟

- قل ما لديك.

أصرخ فيه فيعتدل ويكمل

- انتهت منذ منتصف يناير، أطفأت قوات الحكومة نصف الشمس الصفراء التي كان يرفعها البيافريين على رايتهم، باتت نيجيريا موحدة مرة أخرى وبات الطريق لقريتك آمنا.

ينظر نحوي محاولا اكتشاف إحساسي عبر الظلام الهش الذي يجثم على الخيمة، أترك الخيمة مسرعا، أتجه لشاطئ النهر، أتطلع ناحية

القرية، لو أنها لم تتزوجه لعدوت حافيا لأبلغ العم، أجلس على حافة النهر، أخيرا انتهت الحرب، تحقق حلم الحكومة المركزية وتلاشى حلم البيافريين، انتهت المذابح وبعد قليل سيعود الأحياء المتناثرين في الغابات لديارهم، ستبقى الحرب مجرد ذكرى تحوم حول جثث القتلى والمفقودين، القتلى في هذا العالم ضحايا لأحلامهم أو أحلام آخرين، ضحايا لآلهة خلقتها أهواؤهم فعبدوها وقدموا أنفسهم وأنفس غيرهم قرابين لها، فمنذ أوائل العام ٦٨ وحتى الآن ونحن والكثيرون من أبناء وطننا بين قتيل وجريح ومشرد بسبب حلم البيافريين بإنشاء دولتهم المستقلة، وحلم الحكومة المركزية ببقاء نيجيريا موحدة، كانت تلفظنا كل الأماكن وكأننا وباء سيحط عليها، أو يعتبرنا البعض فريسة لو تيممنا تجاه إحدى الغابات أو الأحراش وأقمنا فيها، أو نجد صحارى وتلالا لا تبقي نفسا، حتى وصلنا لهنا لنجد آلهة أخرى قد يقتل ويشرد من أجلها الكثيرون، لكن يوجد إله الموت في سبيله رحمة وشهادة، وآلهة مجرمة تلوث من ينحني لها، وأي حلم أشرف من حلم الإمام برفع راية الشرع وكتاب الله، بمجرد انتهاء هذه المحنة سآخذ العم وأبكر ونعود لديارنا، تساقط منا يوسف وعشة وكلتومة وهمزة، لكننا سنعود كالطيور المهاجرة تفقد بعضها لكنها حتما تعود كل عام، سأعود لشاطئ النهر وتراب الطرقات التي طالما داستها أقدام الأهل الراحلين، ومع امرأة أخرى سأسكن كوخي، وسأزرع أرضي، وسأواصل تحفيظ أبنائي القرآن، سأوصيهم ألا يقاتلوا إلا تحت راية شريفة، سأحكي لهم عن بلاد بعيدة، يسكنها أناس يشبهوننا ويعبدون الله مثلنا، بلاد سكنت فيها زمنا وسكنت في داخلي أبدا، بلاد يسكنها الوجع والحلم، سأخبرهم

ولن أخجل عن قتلي لقاطعي طريق دفاعا عن عرضي، وعن عيني كلتومة التي لو لم يخلق الله سواهما لاستحق العبادة، سيكون مؤلما تذكري لها، لكن منذ متى رحلت عن فكري وقلبي أو سترحل؟ لكن هل يعود العم أديلانو معي؟ الآن أحسب أن عينه على مكة، إذا استظل بظل البيت لن يتركه ثانية لشمس الدنيا، سأحكي لهم عنه أيضا، عن رجل صالح أحب الله ووثق فيه، ثم لم يتحمل اختباره، وها هو يعود لحظيرته كبعير عجوز حكيم يلوذ بحماه، عن عشة وطه سأحكي لهم، عندما يكبرون سأقص عليهم حكاية فاطمة، عن أسر همزة وسرقة ضحكته، عن قتلي للضابط، سأعلمهم أن بعض العشب النابت في قريتنا تلك نمت جذوره في تلك البلاد، سأصف لهم الجنينة والوادي والفاشر والأبيض وربك والجزيرة أبا، سأجعلها حية في خيالهم ووجدانهم، ولكن هل يمكنني أن أعود دونها، أن أتحمل أثقال الحياة دون أن يكون ذلك من أجلها؟

في الغابة على الطرف الشرقي للجاسر أكمن مع كمال وحسب النبي وخير الله، منذ أيام انتهى التدريب، بدأنا في ورديات الحراسة، ورديتنا من الفجر للغروب مع سريتين أخريين من رجال البازوكا وحملة الرشاشات، ننعم بالظل طوال اليوم، وهواء رطبته صفحة النيل يتسرب من بين الأشجار الشاهقة فيسري الخدر في أجسادنا المنهكة، لكن لا تنعم عيوننا بنوم رغم الأوراق المفروشة تحتنا كوسائد لينة، فبالأمس مرت الباخرة التي تقل نميري ومعظم أركان حكمه بجوار الشاطئ الغربي للجزيرة، كانت تنحدر مع الماء في اتجاه الشمال للخرطوم، أضواء السفينة كانت تتجاوزها وتسيل إلى الماء فتبدو كشعلة نار عصية على

الانطفاء، هاج الأنصار المتراصين على الشاطئ وأطلقوا الأعيرة النارية في الهواء، أطلقوا أيضا الأناشيد، رحلت جذوة النار التي تقل الشيطان بعيدا عن الأنظار، بعدت حتى بدت كنقطة ضوء شاحبة وسط ظلام الأفق المتهدل حولها، منذ ساعات أعلن المذياع أن أحد الأنصار حاول طعن نميري بسكين، وأن قائد الثورة نجا من محاولة الرجعيين الفاشلة لقتله، وها هي سفينته تعبر أمام أعيننا وفي مدى نيراننا ويرفض الإمام إطلاق النيران عليها وإراحتنا من هذا الكابوس.

- في الغد أو على الأكثر بعد الغد ستصب الحكومة النيران علينا مع ضوء الشمس.

قال كمال ونحن جلوس بعدما عاد الأنصار للقرية، كان الموج يصفع الشاطئ أسفل أرجلنا، ويكسر القمر المنعكس في الماء أمامنا فيتشظى ضوؤه غارقا على صفحتها، وأناشيد الأنصار المبتعدة تصل أسماعنا خافتة كشيء من الماضي، رميت بحصاة على سطح الماء وزفرت.فأكمل

- السادات نائب عبد الناصر ومبارك قائد سلاح طيرانه وصلا الخرطوم اليوم، أرسل الروس طائرات الميج ٢١ الأسرع من الصوت، وأيضا أرسل القذافي مدفعية الهاوتزر، وجاء مدربون وطيارون عرب وروس للمساعدة.

قلت وأنا أقوم متلفتا للقرية الراقدة في الظلام على مرمى البصر

- والدجاجات في أعشاشها الطينية حبيسة انتظارا للذبح، مطلوب منها أن تراوغ ذابحيها لثلاثة أيام حتى تنجح ديوك الخرطوم في إنقاذها.

قال بينما يقف بجواري مصوبا نظره تجاه السراي التي تتنفس ضوء وسط القرية التي تحبس أنفاسها في الظلام

- اقترح البعض على الإمام أن يرحل لجبال النوبة، ومن هناك يشن حرب عصابات عليهم، فعلها المهدي من قبل فهزم جيوش الإنجليز والمصريين، ولكنه يتمسك بخطته.

صمت ومضينا للقرية مخلفين النهر بوشوشة موجه، قال حسب النبي موجها حديثه لخير الله

- هل الرشاشات المضادة للطائرات يمكنها إسقاط الميج؟

تعلق كمال بذراعي

- فقط ثلاثة أيام تبدأ من صباح الغد.

رد خير الله فتبسم كمال

- هل البازوكا يمكنها أن تضرب مدافع الهاوتزر؟

سأل حسب النبي ثانية ونحن على مشارف إحدى القرى الوهمية

- لن يدخلوها إلا على جثثنا، وسنعطيهم درسا في الصمود.

رد خير الله ونحن نمر وسط القرية، **بنيناها والعديد غيرها في أرجاء الجزيرة في خطة خداع للطائرات، حتى لا تركز كل نيرانها على القرية الحقيقية، نسوا أن يأمروننا ببناء نماذج لجامع الكون والسراي، العلامتان المميزتان للقرية.**

كوخ واحد من تلك القرية التي كنت أذرع دروبها الوهمية كان يكفي تماما لحل كل مشاكلي، كان يمكنني أن أعمل فلاحا أو صيادا في

النهر. أو قاطعا للأخشاب، في السحر أخرج تاركا كلتومة نائمة محتضنة أطفالنا في طمأنينة. وعند الغسق أعود لأجد طعاما ساخنا وفراشا نظيفا وضحكات الأطفال تعبق الكوخ، لكننا بنيناها قربانا لنيران الطائرات، لتكنها قنابل صنعها آخرون في بلاد بعيدة يعودون لأكواخهم الآمنة كل مساء.

تركت الكمين وأتجول على أطراف الغابة وأمامي شمس اليوم الأول تلهب الطريق العاري الخاوي من أي مارة. لا أحد يدخل للجزيرة، أمشي على حافة الطريق حتى أصل لتقاطع طريق ربك ود مدني، لا سيارات خارجة من ربك ولا دواب ولا بشر. حتى الطائرات التي تحلق فوق الجزيرة يوميا منذ الشروق وحتى الغروب لا أثر لها في السماء منذ الأمس. سكون مطبق يتربع على كل شيء. حتى الأشجار تمسك أوراقها وأغصانها عن الحركة. أشعة الشمس ثابتة ساكنة على الطرقات. صفحة النيل على مرمى البصر وكأنها تجمدت، أشهق بعمق ثم يمر الهواء محدثا صفيرا يتردد قليلا ثم ينضم لكورال الصمت، أعدو عدوا للوصول لموقع الكمين. خطواتي على العشب لا أسمع لها دبيبا، يجاورني كمال يعدو نحوي. خطواته هو الآخر بلا صوت وكأنه يعدو على الهواء. يراني فيتوقف قليلا ثم يستدير ويعدو نحو الكمين، ألحق به. يقول بأنفاس لاهثة

- هناك قوة مدرعة . . .

يقطع صوته أزيز الطائرات قادما من بعيد، يتوقف منصتا، ثم يكمل وهو يعدو

- قوة مدرعة في الطريق لهنا، عشرات المدرعات وحاملات الجنود وتشكيلات المورترز تجاوزت حجر عسلاية منذ دقائق.

تمرق الطائرات بدويها من فوق هامات الأشجار وتتجاوزنا للجزيرة، نصل للكمين، خير الله وحسب النبي يحملان صندوقي الذخيرة ويقفان في انتظارنا، يتحركان بمجرد رؤيتنا، نهرول فنصل لطرف الغابة المطل على الجاسر، عشرات الأنصار في طرف الغابة وقوفا يحملون فؤوسهم على أكتافهم وساكنين كالمتحجرين، نضع الأغراض، أتناول مدفعي وأحشوه بدانة، أستتر بشجرة سرو عملاقة، تفصلني عدة أمتار عن الطريق الذي ستفض المدرعات سكون الأشعة المتراكمة عليه عما قليل، دقائق ويصبح الجميع في وضع الاستعداد للاشتباك، تأتي التعليمات عبر اللاسلكي، صوت الأخ محمد صالح يتردد معدنيا نحيلا

- على رجال الخدمات التوجه فورا فوق الجاسر وعمل مصدات وحواجز تكفي تماما لمنع مرور المدرعات منعا باتا.

يختفي الصوت فتتمدد بقعة الترقب التي حسرتها موجاته المترددة، يتهاوى الوقت بتراخ، ويلم بعجز لحظاته التي تأبى الانهيار، أمسح قطرات العرق المتدفقة على جبيني ووجنتي، أتنفس بعمق وأزفر قلقي مع هواء بارد تتخطفه الحرارة المطبقة على الهواء الساكن، **ألفظ مع زفرتي الكثير من المشاعر البالية التي تربيت عليها، مشاعر مسالمة رعت كالأبقار الوديعة زمنا طويلا في داخلي، ترقبي عاجزا فوق المسجد انتظارا لانتهاء حفل القتل في الساحة، هروبي من وطني حتى لا تلوث يدي بدماء بشر، رفضي للدخول، بامرأة كانت وما تزال هي أيقونة الراحة التي**

يتعبد قلبي جاثيا أمامها، لماذا تأتي الأشياء دوما في غير موعدها؟ لو كان معنا في القرية نذر يسير من السلاح لما حدث ما حدث، ولكنت الآن أضاجعها بدلا من هذا الحلبي الذي يتمرغ الآن فوق جسدها غير عابئ بالفزع الذي يطبق بجناحيه الناريين على الجزيرة ومن فيها، تلتقط أذني صوتا خافتا يأتي من شمال الطريق، أتلفت خلفي، تصطك عيني بعيني حسب النبي الجالس يحمل صندوق الذخيرة، أشد على مدفعي. يشتد وضوح الصوت الذي يشد أجسادنا فيكاد يصلبها، تظهر أولى العربات المدرعة بلونها الأسود القبيح، تزفر خلفها تراب الطريق وما تخلف في جوفها من بقايا نظراتنا عليها، تتبعها ثانية فثالثة وسط العدد الكبير الذي أتمسك بعدِّه وعد بطارية الهاون المحملة بخمسة مدافع، تمر العربة الثالثة والثلاثين وخلفها عربة ركوب مصفحة، أكمل العد وعند العربتين الأخيرتين المحملتين بالجنود الذين ينبت خلف أكتافهم سكاكين الرشاشات المتدلية على ظهورهم يكتمل العدد اثنين وأربعين، نترك حملة الفؤوس ونتحرك في الغابة خلف العربات متجنبين إحداث أي صوت، على الطرف الغربي للغابة وبجوار شاطئ النيل الساكن نكمن، تبعد السيارات حتى تصبح على مشارف الانتهاء من عبور الجاسر وتتوقف، يندفع رهط حملة الفؤوس مارا بجواري، يتجاوزون الغابة ويتوجهون للجاسر عدوا، يعتلون ظهر الجسر ركوضا نحو القوة، نمضي خلفهم مهرولين، عيناي متأرجحتان بينهم وبين العربات المتوقفة على الطرف الغربي للجاسر، على بعد مئات الأمتار من القوة يتوقفون، يبدأون الحفر في سرعة جنونية، يوسعون هوة الجسر عندما تبدأ العربات في التحرك للخلف، تكاد العربات تصلهم وهم منهمكون في الحفر، ثم يتوقفون

ويفرون تجاهنا. يتجاوزون ويوغلون لعمق الغابة، تتوقف العربة الأخيرة منهكة بعد محاولات لعبور الهوة التي صنعوها، الآلاف من الأنصار يندفعون كموجة بيضاء هائلة من الغابة على طرف الجزيرة باتجاه القوة، تحاول العربة عبور الهوة ثانية. ثم تسكن في استسلام.

نركض نحو القوة يسبقنا حملة الرشاشات يعدون ليلحقوا بركاب العربة قبل وصول موجة الأنصار لهم. نقطع المتبقي من ألف وخمسمائة متر هي طول الجسر في لحظات. أقف على بعد أمتار من عربة الركوب، حملة الرشاشات يحيطون بها من كل جانب. يرفع أحد الضباط بالعربة منديلا أبيض من السقف. تصل موجة الأنصار فتحيط بعربات القوة من كل جانب. يختفي الطريق والجسر تحت ملابسهم البيض الزاهية، تشتعل وجوههم احتقانا. بينما حرابهم مشرعة تلامس جوانب العربات، حول عربة الضباط يحاول الكثير منهم الوصول بسيوفهم وحرابهم يمنعهم حملة الرشاشات باستماتة. تأتي عربة من ناحية الجزيرة تزحف وسط صفوف الأنصار ببطء. الفزع على وجوه الضباط داخل العربة تحول لشلالات من الماء المتفجر من وجوههم، أخيرا تصل العربة القادمة من الجزيرة للحاجز. يترجل سائقها ويخترق صفوف الأنصار حتى يصل للعربة، ينظر في وجوه الضباط، يتعرف عليه أحدهم فتتصلب عيناه عليه، ينظر الأنصاري في عينيه طويلا ثم يقول رافعا صوته

- القوة محاصرة ولن تستطيع التحرك فدعوا الإمام يقرر ما يراه صائبا.

ينزل الضابطان من العربة، يمشيان لائذين بحملة الرشاشات المحيطين بهم حتى يصلوا لعربة الأنصاري التي تنطلق للجزيرة بمجرد

ركوبهم، يرحلون تاركين القوة محاصرة بآلاف الأنصار الذين يطعنون جوانب العربات بحرابهم الفضية المشحوذة، يردد الأنصار الأناشيد، تتجاوب معها صفحة النيل فيتراقص الموج، ترددها أشجار الغابات على طرفي الجاسر فتهتز غصونها، بينما شمس الظهيرة المتسلطة تكشر عن وجهها الغاضب فيتطاير منه المزيد من الأشعة الملهبة، والقرية راقدة في الأفق الواطئ أسفل الجسر خلف حواجز السراب المتلوية.

أغادر الكمين مع سريتي، يسقط قرص الشمس خلف أشجار المدى المتشابكة، أتفحص الجاسر الخاوي، لم يتبق من المعركة سوى أثر عجلات الآليات المنسحبة، خطوط بدت لي كندوب على الوجه الترابي للطريق، حملوا ورقة بمطالب الإمام وجرح في خصر أبي الذهب ورحلوا سالمين، على الجسر وحيث موضع الهوة التي حفرها الأنصار ثم ردموها أتوقف، للمرة الثانية يقرر الإمام بشرف نادر أن يطلق صيدا ثمينا من أيدينا، وأيضا يرفض أن يوسع دائرة الحرب بشن هجمات على قوات الحكومة في كل السودان، يخشى من توسعة الصراع ليتجنب حمامات دم ستشمل البلد كله، التفت لكمال سائلا

- هل هي حرب أم لعبة؟

ينزع عينيه عن صفحة النيل التي تستلذ بآخر أشعة الشمس الغاربة ويرد

- هي حرب للبسطاء أمثالنا ولعبة للنميري والإمام.

يقول حسب النبي

- مر اليوم الأول.

أحس بسعادة في نبرته: سعادة من فرح بنجاته، رغم كرهي لضعفه إلا أننا في النهاية بشر، تلك الأرواح المغروسة بأجسادنا كثمرة لباد في كومة صوف أغلى عندنا من كل شيء. أسأل خير الله

- ماذا سيحدث غدا؟

ينحني كمال ليلتقط حصاة ويلقي بها في النهر، نتابع تقافزها على صفحة الماء، يرد خير الله

- سيحاولون العودة.

يمسك كمال بيدي. نتأخر خطوات عن رفيقينا، يكمل حوارا قطعه نومنا بالأمس

- رغم أنني أفتقد التلاميذ كثيرا. فلن أعود للتدريس ثانية.

- لا تقل إنك سترحل لنيجيريا.

يبتسم فلا تفلح ابتسامته في تغطية اليأس الناضح من عينيه، يقول

- تقريبا كل التاريخ المطلوب مني أن أدرسه لهم لا يمت لهذا الوطن بصلة. فلا نحن مصريون حتى أدرس التاريخ الفرعوني والفاطمي والأيوبي والمملوكي. ولا شاركنا في التاريخ الإسلامي حتى أدرسه هو الآخر لهم. ما أبشع أن تحس فجأة أن كل التاريخ الذي يسكن وجدان هذا الوطن صنعه أناس آخرون، أناس لم تنبتهم تلك الأرض ولا حتى يسكنون مقابرنا، كم هو مؤلم أن تكتشف أنك ولدت في وطن بلا تاريخ. حتى الجماعة لن أستمر في عضويتها، فهي الأخرى

ليست من تراب هذا الوطن، جئت حاملا روحي على يدي لأدافع عن بقايا حلم غرسه رجلٌ هو البداية الحقيقية لتاريخنا.

نعبر الغابة مقتربين للساحة أمام القرية، أسأله محاولا انتشاله من يأسه

- منذ متى وأنت تدرّس؟

- لو لم ينتصر الإمام فربما أهاجر.

أفشل في محاولتي فأقول

- لا تهذي، فأي عمل يمكنك به خدمة وطنك أكثر من تربية أبنائه، وما يهمك من التاريخ، لا قيمة له بالنسبة لرجال أمثالنا، ماذا سيفيدك إن كان أجدادك قد سادوا العالم أو علموه أو أدبوه، المهم كيف تعيش أنت، وماذا لديك لتعلمه لأولادك، أنت تبكي على مجد لم يصنعه أجدادك، ولكنك قد تبكي دما إذا عاش أبناؤك نفس المأساة التي تعيشها.

الحــــرب

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا — الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠

هرب الطبيب الوحيد بالمستشفى منذ فجر اليوم. تبقى صدِّيق ومحمد وأنا، فمنذ بدأت تدريبات الأنصار ذهبت للإمام، اعتذرت له عن عدم قدرتي على رفع السلاح في وجه أي إنسان، لم يكن لديه الوقت لمناقشتي، فكر قليلا ثم قال

- فلتذهب للمستشفى علك تساعد على إنقاذ حياة أحد، أو يكون وجهك الملائكي هذا آخر ما يراه شهيد في الدنيا.

أرسل للطبيب من يوصيه بتلقيني كل ما أستطيع استيعابه، تعلمت كل الإسعافات الأولية، يبدو أنه كان قد قرر الهرب عندما اتخذ خطوة متهورة وقرر تعليمي التفرقة بين حقن التيتانوس والمضادات الحيوية ومضادات الالتهاب، كان شابا مهذبا وماهرا ومتواضعا وشديد الطموح، دوما يتحدث عن رغبته في استكمال دراساته العليا في القاهرة، وعندما كان يشرد بخياله يحلم بالذهاب للندن، والعودة كأستاذ للطب في جامعة الخرطوم، إلا أنه نادرا ما يتحدث إلا عن نفسه، تصيبه كثيرا حالات من الإحباط، فيبدي الكثير من السخط على وجوده في الجزيرة،

ويعزف عن المشاركة في حواراتنا عما يحدث، القلق يتراقص في عينيه عندما ينطق أحدنا بكلمة حرب أمامه، محمد الممرض خفيف الظل يستفهه، كثيرا ما تعمد أن يتحدث على مسمع منه عن مجزرة ينتوي النميري أن يذبح فيها كل الموجودين في الجزيرة حتى الحيوانات والأشجار، كان الطبيب عندها يغادر الغرفة محاولا مواراة ذعره، فينفجر محمد ضاحكا بمجرد خروجه.

واليوم يهرب تاركا جزيرة تلبدت سماؤها بسحب الحرب بلا طبيب يجير أهلها، عاد محمد من صلاة الفجر ليجده لم حاجياته وغادر.

ولم تمر ساعات وفي هذه الظهيرة الملتهبة أمضي لأول اختبار حقيقي لما تعلمته، الطريق للمستشفى خال من أي مارة، فالرجال متجمعون حول السراي وفي الغابة على أول الجاسر، والنساء والأطفال غيبهم الرعب، فقط البيوت الطينية والأشجار الساكنة والشمس المتسلطة وأنا ومعي كلتومة التي أصرت على المجيء للمساعدة، قالت: إن القذائف العمياء لا تفرق بين رجل وامرأة، تركنا العم وعشة والأطفال على أن يلحقوا بنا بعد قليل، قال العم ضاحكا: لنكن سويا حتى نوفر عليهم المزيد من القنابل والقذائف، هو فقط يريد أن يكون بجوار كلتومة حتى في الموت، أصر العم حسن وزوجته وزوجة صدِّيق على عدم مغادرة البيت.

طائرات الإسكاي هوك لا تتوقف عن التحليق فوق الجزيرة منذ الصباح، هناك يقين بأن الحرب ستبدأ اليوم، فعيون الإمام داخل القوات الحكومية أرسلت ما يفيد بداية الهجوم في الظهيرة، والقوة التي قدمت بالأمس وتراجعت بعد كسر الجاسر خلفها كانت محاولة فاشلة للهجوم،

ربما ينزلون قواتهم شمال الجزيرة ثم يزحفون للداخل، وربما يقصفون بالطائرات ويستخدمون المدفعية من بعيد، لكن المؤكد أن هناك حربا اليوم.

نصل للمستشفى التي تقع على طرف حي السوق وتبعد عن السراي بحوالي نصف كيلو وعن بداية الجاسر حوالي الكيلو، مبنى حجري صغير من دور واحد وسط ساحة واسعة جرداء تحيط بها البيوت، يحيط بالمبنى أشجار كثيفة من السنط والسرو والماهوجني فيبدو كأكمة عملاقة يختبئ وسطها، يستقبلنا صدِّيق ومحمد الواقفان على الباب، يبتسمان لرؤية كلتومة معي، يناولني محمد جهاز اللاسلكي وينصرف مغادرا، ندخل للصالة الفسيحة التي يحيط بها ثلاث غرف، نتوجه لغرفة الكشف الرطبة التي تعشش بها رائحة الفينيك، تجلس كلتومة على السرير الوحيد الموجود بها، أخجل من الجلوس للمكتب، أضع اللاسلكي الهامد على المكتب وأفتح النافذة فيتسكع ضوء الظهيرة على الحلق الخشبي عديم الدهان، ثم يسرح لأرضية الحجرة الحجرية، يفر زوج من اليمام لأعلى شجرة السنط تاركين العش الذي يكاد يلامس الحائط، أتوجه لدولاب المستلزمات الطبية الزجاجي الصغير شبه الخاوي، أتأمل علب حقن التيتانوس والمضادات الحيوية ومضادات الالتهاب التي لا تملأ الرف العلوي، أغلق الدولاب وأجلس على الكرسي المواجه للمكتب حانقا، تقول كلتومة التي لم تنزل عينيها من عليّ منذ دخلنا الغرفة وتقول

- أديلانو سيأتي معنا للحج.

تقولها وكأن الحج في الجهة المقابلة للنيل، وكأننا لسنا في انتظار حرب تلبد الجو بسحبها لا ندري أينا يخرج منها حيا معافى، أنظر لعينيها المبتسمة غير المبالية بما حولها وأصمت فتكمل

- سيذهب أبكر مع عثمان لبلدنا، وستبقى عشة هنا مع طه، يقول إنه سيقضي بقية أيامه في مكة.

أواصل النظر لها وقد اتسعت دهشتي، تقوم وتجلس على مكتب الطبيب، تداعب بالونة جهاز الضغط المطاطية السوداء بيدها فيزفر، تبتسم وتحاول ثانية وتضحك، أبتسم وأتناول جهاز الضغط وأبعده عنها، تنتظر ريثما أستدير وتمد يدها خلسة وتضغط على البالونة وتقهقه، أمسك بالجهاز فتقوم عن المكتب وتتجه نحو النافذة، تتمحك بساقي وهي تمر وتنحني عليّ فجأة وتقبلني وتذهب للنافذة، أنظر لها مبتسما وأخرج للصالة

صدّيق جالس على العتبات ساهما، أقف بجواره، **منذ تزوجتها وهي لا تراني مهموما وتدعني دون أن أضحك، لديها القدرة على تقليد الجميع وخصوصا العم حسن عندما يغضب على زوجة صدّيق ويظل يضرب بيده على فخذه مطالبا بحفيد، ترتد طفلة وهي تتكور وتنام على صدري شبه عارية، استيقظ على قبلاتها ليلا كي نقيم الليل معا، رغم غنجها وتدللها وجسدها الذي يزهر أنوثة من كل أنملة فيه إلا أنها في يوم زفافنا ولعدة أيام بعده لم تتحدث أو حتى تحاول أن تجعلني أضاجعها، اكتفت بما كانت تبغاه مني، كانت تريد رجلا تحبه بجوارها ووجدته.**

بعد مرور أيام على زواجنا ضبطت نفسي أتحسس جسدها المسترخي وهي نائمة، كان نهدها متوهجا خارج الثوب الشفاف، تضجع حلمته القمحية وسط هالة بنية متوردة، بللت طرف سبابتي ولامستها، نفرت وسرت رعدة في الجسد المسترخي فشدته، رفعت يدها عن جبينها، نظرت لي بعينيها البنية الحالمة، أمسكت بيدي، قبّلتْ طرف سبابتي، أنزلت الثوب عن كتفيها، عرّت صدرها تماما، احمر وجهها ونظرت بعينيها نحو السقف، اقتربت وقبلت شفتيها، تنهدت فلفحتني أنفاسها الملتهبة، قالت

- والعهد؟

قلت وأنا أنزع الثوب عن جسدها

- حرماني من هذا الجسد معصية، ولا عهد في معصية.

أنح العم قادما ومعه أبكر. يدبان وسط الساحة الخاوية، يثيران قليلا من الغبار الذي سرعان ما يسكن مستسلما للشمس التي تصليه، يزفر العم وهو يصعد العتبات الحجرية، يجلس بجوار صدِّيق لاهثا، يدلف الفتى لداخل المبنى. يضحك صدِّيق قائلا

- الأحجار أشد ضررا في حال سقوطها من الطين.

أقول بتأنيب

- لم يأتوا ليحتموا بل جاءوا للمساعدة.

يقول العم وهو يسعل

- هل سنحرم حتى من حقنا في اختيار مع من نموت؟

يعتذر صدّيق وهو يربت على كتفه

- أطال الله عمرك يا عم.
- هذا دعاء به الكثير من التعدي على قدر الله.
- نعم يا عم فنحن رهن مشيئته.

أسمع صوت جهاز اللاسلكي فأجري للداخل. كلتومة تنظر نحوي بتوجس، يأتي صوت الجهاز حادا رفيعا

- على جميع القوات الالتزام بمواقعها.
- هل حانت الساعة؟

تسأل كلتومة وهي مشغولة بتصفيف شعر بكر مبتسمة متحببة لها، يأتي صوت انفجار من بعيد. ثم تتوالى الانفجارات متقاربة حتى تمرق الطائرات بأزيزها من فوق المستشفى ثم تبعد. يدوي الصراخ من كل الجزيرة، أجري إلى خارج المبنى. أعمدة دخان تتصاعد من حي السوق ومن عند السراي جنوبا. تصفر قذائف المدرعات في سماء الجزيرة يتبعها صوت انفجار ويتواصل العويل. تتوقف القذائف. من معظم الدروب تخرج جماعات من النسوة صارخات يحملن مصابين ويهرولن نحونا، عشة في بداية الساحة تحث الخطى نحو المبنى. تعاود الطائرات الظهور من فوق السراي، تتلفت لها عشة التي تحمل الرضيع على كتفها وتعدو نحونا، يقفز العم من فوق الدرجات متجها نحوها. تعلو الطائرات الساحة ملقية بقنابلها وتمرق للشمال. يتزلزل المبنى وتتطاير أعمدة الإنارة والأشجار والبشر ويحل غبار ممتزج برائحة بارود ويعتم الفضاء. صدى القصف مازال يحتل أذني. أعجز عن سماع صدّيق الذي يصرخ في

ويهزني ثم يجري خلف العم للساحة المغطاة بالرماد، أركض وسط الغبار أتعثر بالأجساد والعويل، تمسك يد بقدمي، أنحني عليها محاولا رؤيتها، شابة مفصولة الساق، تنظر بذعر أقرب ما يكون للجنون، تتشبث يداها بقدمي، ينفجر الدم من فخذها المقطوع مختلطا بالرماد، أنحني لأحملها، تختلج ثم تسترخي يداها عن قدمي، أتقدم وسط الجثث التي ينبثق الدم منها فيعري الرماد المكفنة به، صدِّيق يحمل طفلا ويهرول نحو المستشفى، العم يحبو بين الجثث يمسح التراب عن وجوهها كالمجنون، ألمح عشة تمسك بساق رضيعها المفصولة عن جسده باستماتة، أهرول نحوها، مغمضة يرتجف جسدها كالممسوس وتكز على أنيابها والدم ينساب من شفتيها، ترفع الساق التي يخضب دمها يدها مختلطا بالرماد وتخور كالثور المذبوح، أحملها ومازالت ترفع الساق وأجري نحو المبنى يلاحقني العم ببقية الجسد، أضعها على سرير الكشف، تصرخ كلتومة المتكومة بجوار الجدار مرتعبة يلوذ بها أبكر ثم تنحيه وتندفع نحو عشة، أنزع الساق من يدها، تفتح عينيها فتكاد تحتل كل وجهها، تنظر للساق في يدي ثم تصرخ ويغشى عليها، أخرج لفافات من الشاش والقطن، يدخل صدِّيق وهو يحمل عجوزا يسجيه على أرضية الحجرة ويهرول للخارج، يدخل العم فيضع بقايا رضيع عشة بجوارها وينهار على الأرض مخضبا بالدماء، يقترب الصراخ حتى يحتل المبنى، عشرات المصابين ممددين في الصالة وغرفة الكشف، أنسى كل ما تعلمته، أركض بينهم وفي يدي الشاش والقطن، لا أفعل شيئا سوى النظر لجروحهم المتفجرة بالدم وأطرافهم المبتورة ووجوههم بين مغيب ومذعور، بوهن تناديني امرأة مستندة بجذعها على الجدار، ساقاها ممددان على الأرض يسيل عليهما الدم من

بطنها المبقور مختلطا ببقايا طعام ورماد، تشير برأسها نحو طفلة ملقاة لوجهها تئن بجوار الحائط المقابل، أتلفت للطفلة ثم أعيد النظر للمرأة التي تميل رأسها على كتفها مفتوحة العينين فاغرة الفم، تتجمد عيناي على المرأة، يمسك بي صدِّيق ثانية ويهزني والدموع في عينيه، أنحني على الفتاة، جرح سطحي في ذراعها وكدمة أخرى في وجهها، أضع القليل من صبغة اليود على الجرح ثم ألفه بالشاش، أتوجه لعجوز مستلق وسط الحجرة يسيل الدم من فخذه ويتجاوزه للأرض، ابتسامة رضا عالقة على وجهه مع أثر للتراب، أنظر لجرحه المتهتك، أضع قطنا محاولا الوصول لنهاية القطع، ترتطم القطنة بالعظم، أنظر لوجهه الذي جمدت ملامحه على الرضا، أطهر الجرح ثم أحشوه قطنا، أخلع عمامتي وألف الفخذ بها، تنساب دمعات من عينيه المتحجرة، أمر على كل الجرحى، أترك أصحاب الجروح الخطيرة التي لا أستطيع التعامل معها لمصيرهم، أضمد الجراح التي أستطيع التعامل معها، أعطيتهم حقن التيتانوس والمضادات الحيوية التي سرعان ما تنفذ، تكتظ الصالة وكل غرف المستشفى بالقتلى والجرحى، يفد آخرون ألتقيهم على باب المبنى، أسمح فقط بدخول من أستطيع خدمتهم أما الباقون فيعودون مهرولين ليحتموا من القذائف وقنابل الطائرات التي عادت للتحليق تلاحقها رشاشات المضادات فتلقي بحمولتها دفعة واحدة وتهرب، يتدرج المكان بالدم حتى عتبات المستشفى، بالساحة مازال العشرات من القتلى والجرحى ينازعون الموت ملقون على أرض الطريق، الدقائق تأبى المرور والطائرات تأبى إلا العودة، والقذائف تتساقط فوق البيوت الطينية فتخترق السُقُف وتقتلع الجدران وتشعل الحرائق.

عثمان إدريس دار

الجزيرة أبا- الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠

كطيور بيضاء أليفة ينتشر الأنصار بسيوفهم وحرابهم غرب الجسر محتمين بالأشجار الكثيفة للغابتين اللتين يفصلهما الطريق المنحدر بشدة نحو الجزيرة، أتأمل الوجوه التي يعلوها الحماس ويقيدها الخوف من القذائف المتدفقة عن التحرك خارج الموقع، كمال مضطجع خلف جذع شجرة ماهوجني وعيناه مصوبة نحو حزم الضوء النحيلة وبقع السماء التي تفلتها الغصون المتشابكة، خلف ساتر من أجولة الرماد يصل بين جذعين يحتمي حسب النبي وخير الله، على بعد أمتار منا تحتمي سريتا البازوكا ورشاشات البرن خلف ساتر آخر، يأتي طه يحث الخطى متلفتا، تقع عيناه عليّ فيأتي نحوي مبتسما، يجلس بجواري ويريح بندقيته الخشبية العتيقة على الجذع البني المتشقق، أخرج مسدس الضابط من حزامي، يتفحص المسدس في يدي بعينيه، أمده له فيتناوله سريعا ويدسه في حزامه الصوفي، أحمل مدفعي وأتسحب مقتربا من حافة الغابة فيتبعني، على الطرف الشرقي للجاسر، وبين الغابتين اللتين تبدوان كالشعر المفروق عن الطريق، تربض مدرعة سوداء ومدفعها مشرع للغرب، تلقي بقذائفها

فتدوي محلقة في الفضاء وتتجاوزني ثم تهبط على الجزيرة. وحول المدرعة ينتشر تشكيل من رشاشات المورترز يجعل العبور لها على الجسر المكشوف مستحيلا، وبالتأكيد خلف التل جنوب شرق الجاسر تكمن المدرعات السبع التي تتجاوزني قذائفها متجاورة كسرب طيور شيطاني، لا تتوقف المدرعات عن إطلاق قذائفها إلا لتفسح السماء لطائرات السكاي هوك القادمة من الشرق لتحلق بحرية ملقية بقنابلها على البيوت المستسلمة أسفلها، مع الصراخ المتواصل يصلني هواء معبق برائحة الحرائق، يتجاوزني ويجعد الموج على صفحة النيل التي تزفر ضوء الشمس.

تنطلق المضادات الأرضية بكثافة تجاه الطائرات المحلقة فوقنا، تصيب إحداها فتشتعل وتسقط وسط النيل، تفر بقية الطائرات جنوبا، تتحرك سرية البرن وتعتلي الجسر في مهمة انتحارية، تطلق نيرانها تجاه المدرعة رغم تأكدها من بعدها عن مدى النيران، تأتينا الأوامر بعبور الجاسر محتمين بالجرف، يكاد الماء يمس قدمي وأنا أحمل مدفعي وألهث خلف كمال وطه، تنضم المدرعات السبع للمدرعة السوداء فيسدوا ظهر الجسر، نمر بمحاذاة المدرعات المحاطة بجنود المورترز تسترنا عنهم شجيرات سنط على حافة الطريق، نهرول فندلف للغابة، تتركنا سرية البازوكا وتعبر الطريق خلف المدرعات متجهة للغابة الجنوبية، تعود الطائرات للتحليق، بالصواريخ والقنابل تُقْصَف حشود الأنصار في الغابة حيث كنا نحتمي منذ دقائق، يلمحنا جندي استطلاع يحوم على أطراف الغابة، لحظات وتستدير مدرعة وتطلق قذائفها ورشاشها نحونا، نهرول

بينما القذائف تدوي فوق رؤوسنا، يتطاير مدفع وذراع يحيط به أمامنا، يخلص خير الله المدفع من الذراع ويحمله ويركض بجوارنا، نغوص في عمق الغابة التي تتحمل أشجارها القذائف نيابة عنا، نتجه شرقا ثم نعبر الطريق خلف المدرعات التي مازالت مدرعة مقدمتها تصب نيرانها على الغابة وندلف للغابة الجنوبية، نصل لسرية البازوكا وأحد رجالها يصوب نحو المدرعات، تصيب قذيفته المدرعة السوداء فتنفجر باللهب ثم تسكن يعلوها الدخان، تصب بقية المدرعات حممها على الجزيرة، يطلق تشكيلي المورترز رصاصهم صوبنا فنركض لداخل الغابة، يتنامى لأذني تكبير وتهليل قادم من الشرق، أقترب من الطريق خلف المدرعات، يمر أمامي حشد من الأنصار مندفع نحو المدرعات شاهرين سيوفهم وحرابهم، يعتلون أبراج المدرعات، التي تتحرك في جنون فتطيح ببعضهم أسفل عجلاتها، يرتفع الغبار ويلف المدرعات وحشد الأنصار المعتلين أبراجها وتشكيلي المورترز، تندفع سرايا الرشاشات ومدافع البرن عابرة من غرب الجسر لشرقه، تنطلق المدرعات هاربة نحو الشرق، يفر جندي الاستطلاع نحو الغابة مذعورا، أحيط به أنا وكمال وطه وخير الله وحسب النبي، يحاول الهرب فأدفعه ليقع وسطنا، يرفع طه مسدس الضابط ويصوبه نحو وجه الجندي الذي يغمض عينيه مستسلما، أنظر لذراع طه المرتجف وعينيه اللتين يشيح بهن عن الجندي، تمر لحظات ولا يضغط طه الزناد، أنظر لكمال الذي يصرف عينيه عني، أنزع المسدس من يد طه، أضع فوهته على جبين الجندي وأنتظر، لحظات ويفتح عينيه ببطء، أبعد المسدس قليلا عن جبينه، يطمئن ويفتح عينيه على اتساعهما، تهم شفتاه بالتحرك، أنظر في عينيه مبتسما، تبدأ ابتسامة

تضرع وتملق تتشكل على وجهه، أضغط الزناد فيفتح عينيه على اتساعهما وينفجر الدم على يدي، تسري موجة سعادة في جسدي فيهتز بنشوة، أضع المسدس في يد طه المتجمدة عيناه على الجندي، أمسح الدم عن يدي بأرض الغابة وأتجه لحيث المعركة.

انقشع الغبار عن العشرات من الأنصار مدهوسين يختلط لحمهم بالتراب، تسعة جنود ملقون على الأرض ممزقون بعشرات الحراب والسيوف، مدفعي مورترز منتصبان على قوائمهم وسط الطريق، الأنصار يغادرون نحو الجزيرة حاملين قتلاهم والمدفعين، أسير مع سريتي إلى الغابة الشمالية، جثة رفيق السلاح الذي قطعت ذراعه ملقاة وسط الغابة، أعطي مدفعي لكمال، أهم بحمل الجسد المسجى فيسبقني رفيقان ويحملاه، يبحث محمد عن الذراع، يحمله ويجري خلفهم، يدس الذراع في طوق جلباب القتيل ويعود.

نجلس على طرف الغابة، بجوار الزاوية القائمة للبر الشرقي والجسر الممدد وسط النيل، شمس الأصيل تعلو هامات أشجار البر الغربي التي مازال دخان الحرائق يتصاعد مشكلا غيوما سوداء في الفضاء خلفها، النيل يتماوج ممتد بزرقته نحو الشمال حتى ينطبق عليه طرف السماء الزرقاء اللامعة، يكاد الجسر يخلو من الأنصار الذين حملوا القتلى مع أخبار المعركة للبيوت.

تعاود المدرعات قصف الجزيرة من بعيد، يفر الأنصار على طرف الجاسر كالدجاجات المذعورة للغابات، أشعر بحلقي يكاد يتشقق، أعجز حتى عن ابتلاع ريقي، أنزل لشاطئ الماء، أزيح نباتات ورد النيل الطافية

على سطحه بأوراقها البيضاوية الخضراء اللامعة وزهورها البنفسجية الزاهية المبرقشة بالأزرق والأصفر، أغسل يديّ من الدماء المتجلطة عليهما ووجهي، أشرب فأشم رائحة كريهة للماء، أبتعد عن البقعة التي غسلت فيها يدي لبقعة أخرى، أزيح ورد النيل وأشرب فأشم نفس الرائحة.

- ينشر النبات رائحة كريهة أسفل جذوره حتى لا تأكلها الأسماك.

يقول حسب النبي وهو يرفع صوته ليعلو على صوت القذائف، حتى النباتات تدافع عن وجودها، أنتقل لبقعة خاوية من النبات، ينساب الماء عذبا باردا لجوفي، يجول العم في خاطري، أنظر نحو الجزيرة

- لماذا تنتظر هنا؟ ربما يتصاعد دخان أحد تلك الحرائق من منزل عمك حيث الأهل.

أسأل طه وأنا أصعد لجواره فيرد

- وربما يتصاعد عما قليل من جسدي هنا.

تتوقف المدرعات فتحلق الطائرات من جديد، هذه المرة تقصف الغابة غرب الجسر حيث الدجاجات المختبئة تحتها

- متى يحين دورنا؟

يقول حسب النبي وهو يتمدد

- الآن أو في الليل أو غدا أو ربما بعد خمسين عاما.

يرد طه وسحابة من الحزن تسكن وجهه، ويكمل وهو ينظر نحوي مضيقا عينيه

- هل تدري ما أتمناه الآن؟

ـ لا تقل إنك تتمنى زجاجة من العرقي. أو لعلك تتمنى أن تكون بالوادي. تجلس وسط قطعانك.

ـ كلا، بل أتمنى أن يعطني الله القدرة على أن أجتز تلك السنوات الأربع الأخيرة من حياتي. أمزقها كنبتة عشب جافة ثم أذروها فتحملها الريح إلى حيث لا أراها ثانية أو أتذكرها.

ـ هل تعلم أنت ما أتمناه أنا؟

ينظر نحوي، أكمل مقاطعا رغبته في الحديث

ـ أتمنى سماعك وأنتَ تصيح.

يقول متعجبا

ـ هنا؟!

ـ نعم هنا، لعلي أشعر أنه يوجد ديك وسطنا.

يضع يده على أذنه ويرفع رأسه فتبرز حنجرته ويصيح بصوت حاد أحسب أنه سمع من البر الآخر للنيل، ربما تجاوزه للوادي حيث يعلق قلبه وفكره، ربما اخترقت تلك الصيحة الزمان، حطمت السنوات الأربع التي يمقتها، دوت في آذان زمن يحلم بالعودة له، يضحك كمال ويعتدل، يقف طه يتلفت للطائرات المحلقة، بقفزات يكون فوق الجسر، يرفع وجهه للطائرات ويصيح تجاهها، يصيح مرات متتالية ووجهه يدور مع الطائرات، ظننت لقوة الصيحات أن حنجرته ستتمزق، ظل يصيح حتى ابتعدت الطائرات، وقف يرمقها وهي تصل فوق الجزيرة المعبقة بالدخان فتلقي بقنابلها كقذارات فوقها، يعود لجوارنا، يجلس وعيناه مغرورقتان بالدموع ووجهه ملتهب بالحمرة، ثم ينخرط في البكاء.

- ألن يحل الليل؟ أم أن الله أمسك بالشمس ليكمل النميري مذبحته؟
- للشمس صباحات لن تنتهي، وعند النميري ذخيرة لن تنفذ.
- فقط هدنة نرى فيها أهلنا وندلعم وننال بعضا من راحة.
- ألا ترى الدخان الذي يخيم على الجزيرة؟، ربما يحل الظلام لنشيعهم.
- قد تلد زوجتي الليلة.
- إلى متى ستتحمل الجزيرة؟
- أهو أول مولود لك؟
- إذا استمر هذا القصف لأيام سيفنى كل سكانها ولن يبقى بها حجر على حجر.
- نعم، عله يكون ذكرا.
- متى سيسلم الإمام الجزيرة؟
- ربما ولدت اليوم.
- يمكنهم أن يعبروا على جثثنا جميعا لدخولها، أما الإمام فلن يسلمها.

أضطجع على الشاطئ مستمعا للحوار بين حسب النبي وخير الله على بعد أمتار داخل الغابة، كمال يغط في النوم، طه بجواري ينام وهو يصارع كابوسا يجعله يتفزز بين الحين والآخر، تسكنه السنوات الأربع الأليمة أكثر مما يسكنه بقية عمره، سنوات أربع شيء كثير يا صديقي الطيب، بل لو أعطى الله لكل مخلوق الحق في أن يمحو يوما واحد من حياته لتغير وجه الأرض، لا بل لحظة واحدة موقفا واحدا فعلا واحدا، فأي منهم كاف تماما لتغيير كل شيء، المشكلة أن أول من سيستفيد من

هذه العطية هو الشيطان، لا أظنه كان سيمحو خطيئة رفضه السجود لآدم، فهذا الفعل هو فخره الوحيد ومجده الأعظم. فبه خلد جسدا وروحا وذكرا، وقسم الله له أتباعا هم معظم أهل الأرض. أي خطيئة من حياة الشيطان كان سيقرر محوها يا ترى. أظنه كان سيقرر محو اللحظة التي آمن فيها بالله وبالتالي ما ترتب عليها من عبادته لآلاف السنين. فالندم ينبع من أفعال نشعر أنها كانت بلا جدوى أو لمن لا يستحق. لكن الشيطان برغم طبيعته النارية المتكبرة كان في أشد لحظات عصيانه يؤمن بالله في داخله، يحلف بعزته، ويستجدي الخلود منه. لم يخلد العصيان الشيطان وإلا لخلد آدم، خلده أمر من الله. ودعوى رحمة له. فقط رفض السجود فأمر الله الرحيم الغفور العفو أن يخلد في العذاب! أي خبل في هذا الفهم الذي توارثناه؟ حتى لو كان ذنبه أنه ناقش الله في فعله. انتقد عملا من أعماله، فهل يعظم هذا الذنب على عفو الله؟ ربما كان إصراره على المعصية، فلم نسمع أن الشيطان حتى هذه اللحظة قد استغفر لذنبه، لكن كل هذا قدره الله حتى قبل أن يخلق الشيطان والزمن نفسه؟ ما ذنب أي مخلوق أن يفعل المقدر عليه فعله ثم يعاقب بالخلود في النار؟. لو كنا ننفذ قدر الله إذن ماذا يريد منا؟ كل هذا عبث وضلال. أي شيطان يجاورني، هل يتساوى الشيطان والملاك كلاهما يؤدي ما كتب عليه؟ هناك شيء غائب عن عقلي. هل يتساوى النميري الذي يقصف المؤمنين ويقتلهم مع المقتول أمام الله؟ العم قد يريحني بجملة واحدة. ها هي الشمس قد غربت، وتوقفت المدرعات عن القصف والطائرات عادت لأعشاشها، فلأذهب لهذا الولي علّه يريحني.

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا - الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠

يتحالف الصمت مع الظلام على الجزيرة، تختفي الطائرات وتخرس قذائف المدرعات، يتجمع المئات من الأنصار في الساحة، يضعون الجرحى على باب المستشفى، يحملون عشرات القتلى ويتوجهون في موكب جنائزي مرددين شعاراتهم جنوبا للكون، يأتي طه مهرولا بحربته، يجرى للداخل، يحضر أيضا عثمان يحمل مدفعا، ينحني على العم الجالس عاري الرأس شاردا على العتبات، يقبل رأسه فيهمس له العم بكلمات، يترك كمال معي على الباب ويدلف للداخل، يتطلع العم مضيقا عينيه البنيتين إلى كمال بوجهه الوديع الحالم والمدفع في يده ويقول

- كم ذئبا قتلت أيها الحمل.

ينظر كمال نحو العم ويقول

- الحملان تنتظر قدرها فحسب.

ثم يسأل

- يا عم، كيف يحاسبنا الله وقد قدر علينا أفعالنا؟

ينظر له العم للحظات ثم تلمع ابتسامة على شفتيه ويقول

ـ أدنو لأجيبك.

يقترب كمال حتى تفصله خطوة عن العم الجالس على الدرج، يشير له العم ليدنو أكثر، يقترب كمال ويمد رأسه بجوار رأس العم، يصفعه العم بعنف، وتدوي ضحكته مجلجلة، يرتد كمال أسفل العتبات، فيقول له العم

ـ عد هذه من قدر الله عليك.

أضحك فيقول كمال

ـ أنت مجنون.

يقولها ويتركنا ماضيا يبرطم بكلمات غير مفهومة، دقائق ويخرج عثمان مع طه الذي يحمل رضيع عشة مكفنا في عمامته، يقول العم لعثمان وهو أسفل العتبات حيث كان يقف كمال

ـ قل لصديقك الحمل الوديع: لو كنا عبيد أقداره فلماذا خلق عقولنا، نحن نفعل ما نشاء بما لا يخالف إرادته.

يعود عثمان، يقبل رأس العم

ـ ما حياتي دونك إلا ضلالا.

يقول ويغادر مع طه نحو الكون.

يرتفع صوت المؤذن حزينا باكيا لصلاة العشاء، كل ما يمكن استخدامه من مستلزمات طبية قد نفد، لم يعد بيدي شيء، نتوضأ وأسند عشة مع كلتومة ونغادر المستشفى تاركين الباب مفتوحا على مصراعيه، القمر المخنوق يلقي أضواء صفراء ميتة، أشجار بين محطمة

ومقتلعة من جذورها. أعمدة الإنارة الخشبية مكسرة والأسلاك ملفوفة كثعابين وسط الركام. الدخان الأسود الكثيف يتصاعد من الحرائق المنتشرة في الكثير من البيوت. رائحة الرماد والبارود تستعمر المكان، نسير جنبا نحو السراي. مجموعات من الرجال حول أحد البيوت منهمكة تحاول استخراج الجثث التي غطاها الركام، نمر على السراي المحتشدة بالقتلى. جامع المغربي مهدوم. الكثير من القذائف تخترق بقية جسده محدثة فجوات معتمة. إلا أنها ما زالت تتمسك بكبريائها وتأبى الانهيار. عند الكورنيش آلاف الأنصار يحتشدون، ضوضاء يختلط فيها البكاء بالأنين بالأناشيد بأحاديث صاخبة لا أميز فحواها، نمر وسط الأجساد التي تفوح منها رائحة عرق منفرة. يجثم على المكان هواء لزج يكاد يسيل على الوجوه المتجهمة. نصل لعتبات المسجد حيث الظلام في الداخل تعجز الفوانيس المضاءة عن إزاحته. تتقدم عشة تاركة يد كلتومة وتصعد العتبات مستندة عليّ. تمسك قائم الباب، تدقق النظر في الداخل. أشباح المصلين تتحرك بظلالها العملاقة وهمهماتهم الغامضة تزيد المسجد إعتاما. بأرض المسجد وأسفل حائط المحراب الشرقي تتراص عشرات الجثث مسجاة على سرر عارية في صف بطول الحائط، تقبض عشة على كتفي بعنف. أنظر لوجهها وهي تصوّب عينيها على جثة رضيعها المسجاة على سرير مع جثة طفل آخر بجوار المحراب.

- أديلانو.. أديلانو..

تنطق بالاسم ذاهلة فيصعد العم لجوارنا ويضع يده على كتفها

- كان لتوه قد نطق باسمك، كنت أريد أن تسمعه من فم حفيدك الوحيد الباقي.

تنساب دموع على وجنة العم المنداة بالعرق، تتخلل لحيته البيضاء، يعلو الضياع وجهه وهو يدقق النظر نحو السرر، يدلف للمسجد متجها للمحراب، تمد عشة قدمها داخل المسجد بحذر، تمضي وسط المصلين وعيناها على جسد رضيعها، ينظر رجال نحوي باستهجان وأنا أسير خلفها، أرفض إيقافها، يتحلق حولها رجال ويسدون الطريق عليها مرددين

- احتسبي واصبري.

تحاول إزاحتهم مرددة

- أريد فقط أن أرى وجهه. . أريد فقط أن أرى وجهه.

- دعوها.

يقول طه وهو يزيح رجلا من أمامها، يضع ذراعه حول كتفها، يقول وهو يهمس في أذنها

- من الأفضل ألا تفعلي.

تنظر في وجهه، تتفجر الدموع من عينيه.

- لن تري شيئا.

يقول ويأخذها تحت إبطه ويتجه للخارج وهو يمسح دموعه في كم جلبابه.

نصلي العشاء والجنازة، ترفع عشرات السرر المسجى عليها القتلى على أعناق الرجال، على ضوء المشاعل نسير خلف حشود المشيعين مخترقين وسط الجزيرة نحو الشمال حيث مقابر سيدي الطيب، كموجة بيضاء عملاقة يزحف الحشد مهللا وسط الحي الذي أصابه ما أصاب حي السوق وربما أكثر، يتعالى التهليل من الحشد كلما مررنا بدرب تسده النسوة المتشحات بالسواد صارخات، تنضم النسوة لمؤخرة الحشد كذيل عملاق، بين التهليل والصراخ الصاعدين للسماء نصل لمشارف الغابة التي تتوسطها المقابر، الأشجار العملاقة يغطيها ظلام ترتد عنه أضواء المشاعل عاجزة، نخترق الغابة التي تبقعت بالضوء، نصل للمقبرة التي تحيط بها الأشجار في دائرة، أقف بجوار عشة المنهارة على شفا القبر الذي ينزل الرجال رضيعها إليه، تند صرخة من كلتومة والرجال يهيلون التراب على الطفل، على ضوء المشعل الكل ساكن خاشع في حضرة الموت، عثمان على الناحية الأخرى للقبر مستندا على ماسورة مدفعه، دمعات تتجمع على جانبي عينيه السوداوين الواسعتين، طه ينظر في الفضاء الشرقي المعتم بينما يده مدلاة على رأس عشة، الطفلان وجهاهما قطع من الذعر وعيونهما مجمدة على بقع الدم المتجلط على العمامة المكفن بها الجسد الذي بدأ يختفي تحت التراب المنهال عليه، العم متربع على شفا القبر ورأسه مدلاة على صدره في استسلام، ينتهي الرجال من سد القبر، يحملون فؤوسهم ويذهبون للقبر المجاور

- البقاء لله.

يهيل أحدهم الكلمة علينا وهو يغادر

- أهكذا انتهى كل شيء؟ . . أهكذا انتهى كل شيء؟

تقول عشة وهي تتحسس الرماد على القبر، يقوم العم وينفض التراب عن ردائه، ينظر لها ويمسك بيدها لتقوم، ينعكس ضوء المشاعل على صفحة وجهه الضخمة بانهزامها الحزين، يقلب عينيه في الحشود المتناثرة وسط القبور، يصعد بعينيه للأشجار ثم يرتقي ببصره للسماء. يجمد عينيه طويلا ثم يخفض بصره لعشة التي بدأت دموع تنساب على خديها، يضمها تحت ذراعه ويتحرك بها خارجا من الغابة، يقول

- فقط يختفون عن أبصارنا الكليلة، لكنهم أكثر حضورا مما نظن.

يمضي عثمان بجوارهما، يقول لعشة وهو يقترب بوجهه من وجهها

- تذكري أننا كقطيع جاموس بري لا نملك سوى المضي في الحياة.

تنظر له عشة فيقول العم وهو يضمها بذراعه في حنو

- تذكري أنك الظل الذي نأوي إليه جميعا.

نخرج من الغابة، الأرض أمامنا منبسطة يغطيها عشب ذابل، يضيء القمر الذي تعافى من اختناقه الطريق بأشعته المتحررة، يقابلنا كمال قادما من الجزيرة لاهثا

- هل علمت بما حدث في العاصمة؟

يسأله عثمان باندفاع

- ماذا حدث؟

تمسك كلتومة بذراعي الآخر، تحثني على المشي وهي ترمق عثمان المتحجر أمام كمال

- تظاهر الأنصار وبعض الأهالي احتجاجا على ما يحدث هنا.
- فقط تظاهروا؟

يسأل عثمان في فزع

- قتل المئات.
- من قتل من؟

يسال عثمان فيرد طه

- ومن يقتل من هنا!

توقف العم والتفت لنا فأكمل كمال

- دكت دبابات نميري حي ود نوباوي حيث تظاهر الأنصار، حرقت قاذفات اللهب حتى الأطفال في الخلاوي، لم يسلم المسجد ولا بيت الإمام، ذبح المصلون سجدا وماء الوضوء على أيديهم

يقول عثمان ويتلفت كأنه يبحث عن أحد

- وهم، ألم يفعلوا شيئا؟
- نعم، التزموا بيوتهم.
- ألم ينشق أحد من العسكر؟
- كلا.
- والآن؟
- أقول لك من يخرج من بيته في الخرطوم أو أم درمان يقتل.
- والأنصار؟

يقول طه

- لهم الله.

نتوقف ريثما تمر ثلاثة نعوش يبدو أنها لجرحى تأخروا عن موكب الدفن الجماعي.

- وماذا نفعل نحن هنا؟

يقول عثمان منتظرا إجابة لم تأت من كمال الذي يحني الانهزام واليأس جسده الفارع، يتركه طه ليمسك بذراع عشة، ينظر عثمان لكلتومة بحقد فتلوذ بذراعي ونسير، يقول العم وهو يمشي بدون أن يلتفت.

- وماذا كنت تنتظر غير هذا؟ .

يرد عثمان بحنق ويأس

- كنت أنتظر العدل، كنت أنتظر القصاص.

تقول كلتومة وهي تضغط صدرها بذراعي.

- وهل اقتص أحد منك لقتلك ثلاثا!

تقول عشة

- متى تؤمن أنه لا عدل في هذه الدنيا فتستريح وتريحنا؟

- بل سأقتل كل من تقع عليه عيناي من جنود نميري انتقاما لهذا الرضيع، في هذه الحرب أو بعدها.

يمر نعش آخر حوله حفنة من المشيعين، ننزل إلى جانب المدق انتظارا لمرورهم، يخرج صدِّيق من وسط المشيعين، تلتقيه أعيننا بفزع، يندفع طه نحوه

يقول مجهشا بالبكاء وهو ينظر نحوي

ـ هذه جنازة محمد .

يتركنا عثمان وكمال ويهرولون نحو الجزيرة يتابعهم العم بعينيه، أتركهم وأعود مع كلتومة وصدِّيق برفقة محمد للغابة ثانية .

ـ لا أريد العودة للبيت .

تقول كلتومة ونحن نمر أمام المستشفى عائدين

ـ لا مأوى آخر لنا إلا هنا .

أشير للمستشفى، فتقول وهي تأخذ بذراعي وتتجه نحو المبنى المظلم

ـ لا أريد في هذه الليلة أن أرى أحدا سواك .

المكان المظلم معبق برائحة الدم المتجلط على أرضيته، ندلف لغرفة الكشف، ضوء القمر يفترش السرير الملطخ بالدماء، تقلب المرتبة فينام الضوء نظيفا عليها، أخرج فأغلق الباب الخارجي، أعود فأجدها تمددت على السرير الضيق، أغلق باب الغرفة وأتمدد بجوارها، تقول

- لا تحسبني جننت، فقط لم تعد لدي القدرة على أن أسمع أي حديث عما يدور .

- كان يمكننا الولوج لغرفتنا .

- لو دخل أديلانو لم أكن لأستطيع إخراجه .

- سينتابهم القلق علينا .

- أديلانو يعرفني جيدا، هل يمكنك أن تمسك بيدي .

- يمكنني هذا وأكثر .

- أمسك بيدي فحسب .

أمسك بيدها الباردة، أضمها بين يدي، أنظر لوجهها المغطى بضوء القمر، تقول

- هل تبعد بلادك كثيرا عن هنا؟
- تبعد كثيرا عن هنا، وتبعد أكثر عن مكة .
- هل سنمر على هذا البلد في طريق عودتنا؟
- إذا شئت يمكننا المرور .
- لا . لا أريد رؤية هذا البلد ثانية .
- لكننا التقينا فيه .
- نعم. وردة طافية على سطح مستنقع ، كم تبقى على الموسم القادم؟
- ثمانية شهور .
- حسنا. وقت كاف .
- ما بك؟
- ضم يدي أكثر .
أضغط يديها وأضعها فوق صدري، تقول
- متى يمكننا الرحيل؟
- بعد أسبوع. إذا قدر لنا البقاء أحياءً .
- سوف نحيا .
- رفعت لك الحجب؟
أقول وأنا أرتشف ضوء القمر بشفتي عن وجنتها
- هل ستقبل زوجتك بوجودي معكم؟
- لن أستطيع فراقك مهما كان الثمن .
تستدير فيعتلي ضوء القمر كتفها، ينساب على شفتيها، تقبل شفتي ثم ترتد وتنظر في عيني، تقول
- أنا حبلى .

يرتجف قلبي، يقشعر بدني، تطفر دمعات لعيني، أقبلها وأنا أبكي، يتبلل وجهها بدموعي، أعتدل وأطلق العنان لبكائي، تعتدل وتمد يديها فترفع رأسي عن ركبتي، تمسح وجهي بيديها، أسجد على أرضية الحجرة، يعاودني البكاء، تتبلل الأرض أسفل وجهي

ـ الدموع حتى في وقت الفرح؟!

تقول وهي تنزل لجواري، ترفعني عن الأرض، أحتضنها، تمسح بيديها على ظهري، تضمني لصدرها وتضع خدها على رأسي وتقول

ـ لو لم أحمل منك لقتلت نفسي.

أضغط جسدي بصدرها فتضمني أكثر

ـ يا عباد الله.

يأتي صوت العم عبر النافذة، أنزع جسدي عن صدرها، أنظر لعينيها المبتسمة، ننفجر ضاحكين

- يضيء ضحك وسط هذا البحر من الظلمات!

يقول ويطل برأسه من النافذة، يطلع بعينيه نحونا ونحن جلوس على الأرض، يسأل

- من أطاح بكم إلى هنا؟ الطائرات رحلت والقذائف توقفت

- أطاح بنا الفرح.

يشب على النافذة، بحيوية يقفز للداخل، ينحني علينا ويقول

- لعلها حبلى؟

ينظر لكلتومة فتومىء له، يبركْ بجوارنا ويحتضنها، أقول له

- ينبت العشب حتى على سطح الحجر .

يقول من بين دموعه

- نعم ينبت ينبت .

عثمان إدريس دار

الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠

- يمكنكم الراحة حتى الثالثة فجرا ثم سأعود لآخذكم.

يقول الأخ محمد صالح وهو يمسح بيده على الشعيرات بين الشرطات الثلاث على وجنته اليسرى، يتلكأ كمال، أقف في انتظاره على بعد خطوات وبيدي تعيين العشاء، ينظر له الأخ محمد الممسك باب سيارة النقل الصغيرة الحمراء التي يتراص على صندوقها قدور الفول والعدس الفارغة ويسأله

- ما بك؟
- لا أرى جدوى لما نفعل، فالأخوة في أم درمان لا يستطيعون التحرك.
- ولكننا هنا نستطيع فعل الكثير

يقول كمال هازئا

- هل سنغزو الخرطوم؟!

ينظر له بحلم ويقول

- يوما ما سنفعلها.

يقول كمال بيأس

ـ حتى متى نستطيع الصمود؟
ـ إلى أن نستشهد أو ننتصر.
ـ لماذا لا تفاوضون الحكومة؟
يترك الأخ محمد الباب ويلتفت بكل جسده لنا ويقول لكمال بهدوء
ـ لا تتدخل فيما لا يعنيك.
ـ كيف لا يعنيني وأنت تطلب مني التضحية بحياتي؟
يتبسم ويقول وعيناه تلمع بالثقة
ـ افعل ما آمرك به وبعد أيام سترى ما يسرك.
ـ أيام؟
ـ ربما يومان لا أكثر.

يقول وكأن الأمر قدرا من المحتم حدوثه، يلقي السلام ويرتقي للسيارة التي تنطلق، يدعنا وقوفا وسط القرية الوهمية التي نسكنها، القرية التي لم تمر فوقها طائرة ولو بالخطأ، فاتخذناها مقرا لقوات الإمام المدربة، حوالي ألف وخمسمائة ـ نقص منهم اليوم خمسة عشر ـ يسكنون مائة بيت، بيوت لها حوائط خارجية من الخشب المطلي بالطين، وأسقف خشبية مداراة بالعشب المفروش فوقه الرماد، لا مياه إلا النيل الذي يبعد حوالي الميل، لا كهرباء فالطائرات هنا لا تقصف ليلا، يحمل كمال الذي يعلوه إحباط كئيب طبقا من يدي، منذ أيام لا نطعم إلا الفول والعدس والخبز، بدأت السلع تشح في الجزيرة مع مرور الأسبوع الأول من الحصار، لولا مخزون الذرة والحبوب وزيت السمسم في البيوت لحدثت مجاعة.

- هل ستذهب معه؟

يسأل كمال بصوت خفيض وهو يقف على باب البيت، أنظر لعينيه الحمراء كالملتهبة بمقلتيها السوداء الخابية وأرد

- النصر للإمام أو هزم سأظل أقاتل هؤلاء المجرمين حتى أرحل من هذا البلد.

- لكنه قتل بلا هدف فلن يحدث شيء في العاصمة.

- سأقتل رغم إن عاصمتي ليست هنا.

- أقول لك سيقتل من يقتل منا من أجل لا شيء.

- لا شيء يذهب سدى.

- ما أعجز عن فهمه هو إصرارهم على القتال رغم علمهم بعدم جدواه.

- ثم يقل لك يومان؟

- لو كان اليوم بألف سنة لن يتغير شيء. المعادلة واضحة، رجل معه الحكم والجيش والبوليس والشيوعيين وأعداء الإمام ودولة عظمى وبعد هي الأكبر في المنطقة. ورجل تقريبا ليس معه شيء

- معه الله والحق ورجال يفدونه بحياتهم لا يريدون إلا وجه الله.

- هل تعلم موقعة أحد.

- نعم.

- ألم يكن الله والحق مع الرسول وهزم.

- لكن قتلاه دخلوا الجنة. وبعد قليل دخل مكة فاتحا.

- نحن نحارب مسلمين مثلنا.

- وهل كانوا كفرة وعندما قدمت أسلموا؟

ـ كنت أحسب أن لدينا خطة محكمة سنسترد بها الحكم في خلال أيام وبخسائر لا تذكر، أما الآن فالضرر من الحرب أعظم كثيرا من نفعها، الليلة دفنا أربعة وثمانون، ولو استمرت الحرب لأيام سندفن الآلاف، الهزيمة مؤكدة، وهم يعلمون ذلك ولا يتوقفون.

ـ يمكنك أنت التوقف.

ـ أنا لا أتحدث عن نفسي، فربما أموت وأنا هنا كالنساء والعجائز.

ـ إذن مت كرجل.

ـ وهل تنتظر مني غير ذلك؟

ينقطع الحوار، ندخل بالأطباق والخبز، ألواح الحوائط الخشبية التي نصبت لينة تقوست بعشوائية من يحتضر، مثلها مثل الشباب النائمين وكأنهم جذوع قطعت وتركت لتجف بلا نظام، يبدو أنهم كانوا يغزلون حوارا ناموا في أماكنهم ولم يكملوه، بعضهم نائم وهو يطحن ضروسه في تشنج، والبعض نائم وهو مقوس يحتضن حلمه في البقاء، والبعض نائم كالأولياء لا تفتر شفتاه عن الحركة، ينتحي كمال جانبا من البيت، يترك الطبق بجواره، يستسلم لشبح النوم المسيطر على المكان، أتناول طعامي، أغلق الباب والنافذة، أنام بجواره، سرعان ما أنهزم تاركا أنفاس الشاب تعبق تحت السقف الذي يدثرنا بالظلام.

هدير اللوري واهتزازه يسريان لوعيي وكأنهما يد قاسية توقظني، ألف بقايا الحلم وأضعه بين رفوف ذاكرتي وأقوم، الشباب يعتدلون جلوسا، يتلفت كل منهم للآخرين وكأنه عثر عليهم بعد ضياع، لا أثر لكمال في المكان سوى الطبق الموضوع على حاله منذ الأمس والأرض

التي تحمل طابع جسده المنزوع عنها، كمغناطيس عملاق يجذب اللوري الشباب فيخرجون كالمسحورين الواحد تلو الآخر، أخرج خلفهم وأنا أتلفت على كمال في الدرب المظلم، أذهب للوري المطفأة أنواره، أصعد خلف الشباب، يناديني كمال من المقدمة

- ضنتك فعلتها.
- كان يجب أن يراني أول المنتظرين.

يقول وهو ينظر لسيارة الأخ محمد الرابضة أمام اللوري

- أين سنذهب؟
- بالتأكيد لن نذهب لنيجيريا أو الخرطوم.

أنفجر ضاحكا، يلتفت لي الشباب الذين امتلأ بهم اللوري، أستدير واستند على المقدمة وأواصل الضحك، لم يكن ضحكا مناسبا للمزحة، أظنني فرحت أكثر بعدم مغادرته، كنت أظن أن مواجهة الموت في خلوة يخفف كثيرا من وقعه، يترك لنا حرية الذعر بعيدا عن تلصص العيون المحيطة بنا، حرية الرحيل ومازالت صورتنا أشداء عالقة بأذهان من يحبنا، لكن فرحي برؤية كمال جعلني أحس أن المشاركة مع من نحبهم حتى ولو في الموت يخفف كثيرا من وقعه، ربما ترحل الأرواح سويا، تستأنس في رحلة صعودها عبر ظلام لا نهائي، أو ربما تحمل الأرواح المحبة عنا جزءا من الموت الذي يتغمدنا، يبقى مختلطا داخلها بذكرياتنا معهم، بحاجتهم لوجودنا، أظن أن جزءا كبيرا من روحي صعد خلف أرواح أهلي التي تصاعدت أمام ناظري، وربما جزء آخر بقى يحوم حول أجسادهم المتناثرة في الساحة، رغم الذعر والارتجاف الذي تملك أجسادا طالما بثت الشجاعة في إلا أننا في النهاية بشر، والذعر

مجبول فينا تماما مثله مثل الحزن والفرح، لا خزي في ذعر أي منا عند الموت، فهو السلاح الخفي الذي يظهر الله به جبروته.

يسير اللوري خلف السيارة الصغيرة التي تسبقه وسط ظلام يسترخي بثقله على الأرض، نتوقف عند مخزن السلاح المواجه للسراي التي ترقد تحت الظلام، يوزعون علينا الأسلحة التي سلمناها بالأمس، نسير حتى أول الجاسر، نتوقف قليلا ثم نعبر النيل الراقد يزفر الضباب، نتجاوز الغابتين المتحالفتين مع الظلام ونصل لطريق ربك، ننزل عن الطريق ونتجه شرقا وسط العشب، بعد حوالي الميل نعتلي مدقا فنتجه جنوبا بمحاذاة الطريق، حوالي الخمسة أميال ويتوقف الركب، تنزل السرايا الأربع ونصطف بجوار اللوري الذي أطفأ محركه فيعم صمت لا يقل عن الظلام وحشية، يقول الأخ محمد بصوت بدا جهوريا رغم محاولته جعله خفيضا

- سننقل المعركة إلى هنا، سنكمن للقوات القادمة، يجب أن نمنع تقدمها حتى لا تطال نيرانها الجزيرة.

يسير أمامنا حتى نصل لصخور متناثرة فشلت أن تكون تلا فيتوقف، الصخور على بعد مائتي متر شرق الطريق الذي ستعبره القوات من ربك متجهة شمالا نحو الجزيرة، خلف الصخور وفي خط مستقيم بمحاذاة الطريق يوزعنا على المكان، لا يفصل بيننا سوى أمتار، يجعل سرية البازوكا الأولى في الشمال ناحية الجزيرة، ويجعل سرية البازوكا الثانية في الجنوب ناحية ربك، ويضع سريتنا في الوسط، ووراءنا وخلف صخرة تعلونا بضع سرية الرشاشات

- لدينا معلومات تؤكد خروج قوة مدرعة قبيل الفجر للجزيرة، عند مرورهم تتعامل سرية البازوكا الأولى مع مقدمة الرتل، وتتعامل سرية الـ أر بي جي مع الوسط، سرية البازوكا الثانية تتعامل مع المؤخرة، حملة الرشاشات عليهم اصطياد من يقفز من المدرعات، حياة الآلاف تتوقف على نجاحكم

يقول ويتركنا ماضيا لسيارته، يهدر محرك اللوري وهو يتبع السيارة كجمل يقوده قط للجزيرة.

بعد انسحاب صدى اللوري من الفضاء تمر نسمة هواء باردة تلطف الجو، أقف وكمال وحسب النبي وخير الله فوق الصخرة التي تحتمي سريتي خلفها، الطريق أمامنا يمتد من الجنوب للشمال مستقيما كالصراط، على بعد ميل غربا الغابة الكثيفة التي تمتد على طول شاطئ النهر من ربك وحتى الجزيرة

- لو كان الطريق بجوار الغابة لكمنّا بها.

أقول بثقة كالخبير، يقول كمال وهو يتلفت للخلف

- الهروب ناحية حجر عسلاية يتساوى تماما مع الهروب ناحية الجزيرة كلاهما عشبه قصير ومكشوف ومهلك؟
- ماذا تقول؟
- يا صديقي عند أول قذيفة ستكتشف القوة موقعنا، لن يستطيع أحدنا أن يرفع رأسه فوق الصخور، عندها إما أن نهرب وإما أن نتركهم يقبضون علينا كالفئران.
- خرجت القوة من ربك فلتأخذ السرايا وضع الاستعداد.

يتردد صوت اللاسلكي في يد خير الله، رغم تأكده من سماع الجميع يتركنا ليبلغهم، أنظر نحو جنوب الطريق فلا أرى شيئا قادما، لو كان الأمر بيدي لهاجمت تلك القوات حيث تربض في ربك، ولكنت أرسلت السرايا تضج مضاجع الحاميات في كوستي والطويلة، لم أكن لأذيقهم طعم الراحة ليلا أو نهارا، كنت سأشغلهم بالدفاع عن أنفسهم، ولم تكن طائراتهم وقتها ستجديهم نفعا، ولدينا غطاء كاف من الأنصار المنتشرين في كل مكان، سنجد بسهولة الطعام والمأوى، بل كنت سأرسل السرايا للخرطوم نفسها، لم أكن لأدع جنديا واحدا يسير آمنا في هذا البلد، ولم يكن ليمر شهر واحد قبل أن تسقط العاصمة في يدي كعاهرة شبقة، هل يمكن لرجل يمتلك الآلاف من قطع السلاح ولديه مئات الآلاف من الأنصار المشتعلين حماسا الواقفين على أطراف أصابعهم مستعدين تماما لتلقي أقل إشارة ليلقون بأنفسهم في الجحيم ثم يحبسهم في جزيرة مكشوفة ليذبحوا كالدجاج، بل إنه لو أمر مئات الآلاف من مريديه أن يهاجموا الجنود بالسيوف في كل السودان لسقط الحاكم بكل أسلحته، الإمام يتعامل مع الحكم وكأنه لعبة صبيانية اختطفها منه رفاقه ويريد استعادتها بكلمات وبمجرد التلويح بعراك لا أكثر، يواجههم بخطة صبيانية ساذجة أحسب أن خبرها وصلهم وهي مازالت فكرة تدور في رأسه، المئات من الضحايا هنا وفي أم درمان يدفنون أو يتركون متفحمين في خلاويهم ولم يمر يومان على بداية الحرب، وهو على إصراره ألا يوسع دائرة القتال، لا أدري ماذا ينتظرون خلال يومين على الأكثر، هل ينتظرون مددا من الملائكة يرسله الله ليحارب بجوارهم؟ الله لم يعد يأبه بنا، عظمت ذنوبنا فتوقف عن إرسال الرسل وعن نصرة المظلوم، تركنا

جميعا لأنفسنا وشرورنا، تركنا ليأكل القوي فينا الضعيف، ربما ينظر لنا مستهزئا محتقرا، بل ربما يصنع الآن وفي مكان لا نعلمه جنس أرقى منا وأطهر وأعقل، جنس لا يزدهر شره ويدوم ويذبل خيره ويذوي، لا يسرق فيه الولي زوجة صديقه، لا تخون الزوجة زوجها الذي تقاسمت معه الحلم والوجع، ولا تموت زوجة جميلة وفية لزوجها فيتزوج بأخرى قبيحة قبل مرور شهرين على رحيلها، جنس لا ينتج أمثال نميري وأوجوكوو والضابط اللعين ويعقوب والهادي، وقد لا ينتج أيضا محمدا وعيسى وموسى لكن عندها لا يهم، عالم لا يوجد به عباقرة ولا أغبياء، ولا ملائكة ولا شياطين، وربما أيضا لا يوجد به جمال ولا قبح، فقط ما يكفي لقبول الآخر والقدرة على التعامل معه، بالتأكيد لن يكون ليلا ولا نهارا، سيكون شيئا ما يتوسطهما به الضوء الكافي للحياة والخفوت الكافي للسكينة، سيكون القليل من العمل والكثير من الراحة، أما عالمنا هذا فماذا ينتظر غير شروق الشمس من المغرب؟ هل يمكن أن يكون هذا الظلام الدامس غير الطبيعي الذي يحيط بنا تهيئة للشمس لتفعلها للمرة الأولى ولا تشرق في موعدها؟ ماذا لو فعلتها؟

- عثمان. . عثمان.

يهزني كمال فأنزل عن الصخرة لجواره

- القوة قادمة ألا تسمع؟

ضجيج محركات المدرعات يصدع الصمت حولنا، ضوؤها يخدش جانب الظلام المفترش الأرض بجناحيه، أضع مدفعي المحشو على كتفي وأستعد انتظارا للأمر بالإطلاق، يمر الرتل بمدرعاته التي تبصق الضوء

على مؤخرات بعضها، أطلق قذيفتي بالتزامن مع بقية السرايا، أصيب مدرعة في وسط الرتل فتنفجر باللهب والضوء الذي يجرح عيوننا، تنفجر أخرى في مقدمة الرتل، تنسحب بقية المدرعات للخلف، تلوذ هاربة، لحظات وتتوقف ثم تلتف شرقا فتصبح خلفنا، يطلق حملة الرشاشات رصاصهم نحوها، أطلق دانة أخرى فتخطئ الهدف، تنفجر مدرعة ثالثة، تصب المدرعات نيرانها نحونا، يتطاير فتات الحجارة والشظايا فوقنا، يرفع حسب النبي رأسه فتنفجر ويتطاير الدم محتميا بردائي، تتوقف المدرعات عن إطلاق قذائفها فيلاحقنا رصاص رشاشات تقترب، يرتفع صوت ارتطامها بالصخور، يحمل الرفاق أسلحتهم وينطلقون هاربين، أحاول حمل حسب النبي فينزعني خير الله ونولي هاربين من الرصاص وسط الضوء الذي يعرينا لهم، المائتي متر الفاصلة بيني وبين العشب المرتفع على مشارف الغابة استحالت لآلاف الأميال، تكبير وتهليل وحمد وصرخات من رفاق يتساقطون تلاحقني

- عليكم التفرق لا يبقى أكثر من رجلين معا.

يزعق خير الله صارخا. يأخذ كمال بيدي وننحرف جنوبا، تدوي الرصاصات فوق رأسي وبجوار أذني، ترتطم رصاصة بالمدفع فوق كتفي، أدلف للعشب بجوار النيل، نركض وسط العشب الذي يغطينا، نصل لحيث لا تطالنا نيران الرشاشات، نتوقف، ينادي خير الله فيتجمع حولنا ثلاثة وعشرين رفيقا، يتوقف دوي الرصاص تماما، يقول كمال

- أمامنا دقائق لنصل للغابة قبل أن تحصدنا قذائف المدرعات التي ستنهال علينا.

نعاود الركض، نصل قبل أن تدوي القذائف من جديد. لا نتوقف إلا في وسط الغابة. أحتمي بجذع يسيل الظلام عليه. تخترق الغابة قذائف تهبط علينا من السماء. قذائف من نوع جديد. قادرة على تكسير هامات الأشجار وجذوعها الضخمة.

- تم تدمير ثلاث مدرعات.

يقول خير الله متحدثا عبر اللاسلكي وهو يلهث

- كم عدد ضحايانا؟

- المؤكد استشهاد ثلاثة.

- هل معكم مصابون؟

- نفتقد سبعة بخلاف القتلى.

- أنجزتم مهمة جليلة. عد بمن معك على الفور. رتل من دبابات ت ٥٥ يكاد يصل إليكم.

- وصلتنا قذائفها بالفعل.

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا - السبت ٢٨ مارس ١٩٧٠

- لم يدفع أي منكم عمره من أجل هذا البيت، لن أغادره إلا لقبري.

يقول العم حسن، وقطعا لكل حوار وإمعانا في العناد يتركنا جميعا محشورين في الممر ويجلس وحيدا تحت أشجار الحوش حيث تحوم الطائرات فوق رأسه

- فلتغادروا أنتم.

يقول صدّيق ويفتح باب المنزل ويدفع زوجته المتمترسة بالأرض للخارج، يأخذ بيد أمه برفق للدرب الذي تفترشه شمس الضحى وتغطيه أصوات الانفجارات، يدعها ويدخل ماضيا نحو العم حسن، تقف منحنية كالراكعة للبيت وسط الدرب، تتلفت يمينا ويسارا ثم تمشي بخطوات متعثرة حتى تستند بيدها على جدار البيت، تجلس وتغطي وجهها بطرف شالها الصوفي الأسود

- من سيحمل الأم؟

قال العم الذي يقف على العتبة وعيناه عليها، يخرج طه حاملا عنقريبا، يضعه أمامها

ـ هل مات جدي؟

تسأل وهي تنظر للعنقريب العاري بفزع، ينحني طه عليها، يأخذ بيدها فتقف مجاهدة لترفع وجهها، تتلفت لوجوهنا عاجزة عن فهم ما يدور، يجلسها على العنقريب فتقول وهي تقلب يديها ثم تضرب على العنقريب بعافية غريبة فيهتز

ـ هل مت أنا؟

ـ أنت بخير يا خالة.

تقول زوجة صدِّيق وهي منحنية بجوار أذنها، يضيع صوتها سدى، إذ تنظر العجوز للعم الواقف يتطلع لها في جزع وتقول

- فليدفني هذا الرجل الصالح.

تطفر دمعة كانت تلمع في عيني العم، أبكر يزاحم متطاولا ليحمل العنقريب، أنحيه جانبا، أحمل أنا وكلتومة العنقريب من الأمام وزوجة صدِّيق وطه من الخلف، نتحرك خطوات فتتحرك محاولة النزول وتصرخ

ـ أيها المتاعيس ألن تكفنوني؟

تكاد تقع فيسندها العم، تزحف للناحية الأخرى، فتسندها عشة، تصرخ وهي تهز العنقريب بعنف

ـ لن أدفن بملابسي، كيف ألقى الله بملابس ربما أذنبت فيها؟ كيف ألقى الله ورائحة عرقي الحامض تفوح؟

حركتها المفزوعة على العنقريب توقفنا عاجزين عن حملها أو تركها، تقول من فوق رؤوسنا

ـ أشم رائحة حريق، هل ستلقون بي في جهنم دون أن يحاسبني أحد؟

تحط العنقريب على الأرض، تزحف حتى تنزل عنه، تجاهد لتقوم فتعجز، تحبو حتى تستند على جذع نيم بجوار جدار طيني وتقوم، ينسدل الشال عن رأسها ويسقط تحت قدميها، تظهر جمجمتها سوداء لامعة بشعرها الأبيض العاجز عن سترها، تتناول زوجة صدِّيق الشال يائسة وتغطيها به، أسراب الأسر الهاربة يتطلعون للدرب ثم يواصلون فرارهم شمالا تجاه الغابة، تنزل عشة الصرة الضخمة عن رأسها، تتحرك فتقف بجوار العمة، تنحني وتحملها عائدة نحو البيت الذي يفتح بابه، يظهر العم حسن دافعا صدِّيق للخارج، يسوقه حتى يلاقي عشة فيحمل العمة منها ويعود بخطوات عجوز ثقيلة واثقة نحو البيت، يدخل ويغلق الباب خلفهما، ينضم صدِّيق لنا، تترك الطائرات السماء للشمس فيتزايد هلعنا، نترك العنقريب تحت ظل النيم، نهرول للخروج من الدرب، عشة تمشي بسكينة وكأن السماء تمطر منا، تباعد بين فخذيها وتسير ثابتة ببطنها المرتفع والصرة فوق رأسها، يحاول طه جذبها فتنزع ذراعها منه، يمد يده ليحمل الصرة، ترفض متراجعة برأسها للخلف وتقول

- انج أنت.

يتحجر أمامها، يجذبه صدِّيق ونواصل الجري، نصل لرأس الدرب، نصف ميل من البيوت المتجاورة على جانبي الطريق يفصل بينها عشرات الدروب، نساء وأطفال وعجائز يتدفقون من كل درب ويصبون وسط الطريق، تمرق أمامنا سيارة تحمل أسرة الإمام متجهة للغابة، يصفع غبارها وجوهنا، تطلق نفيرا كالصراخ لتجنب الاصطدام بالحشود التي

تملأ الطريق، تفلت السيارة للفوهة التي تنفتح على فضاء العشب الذي ينتهي بعد ميلين على أعتاب الغابة، نهرول فننضم للحشود التي مازالت تلفظها الدروب مع أصوات المنادين.

- بأمر الإمام: على جميع سكان الجزيرة المغادرة للاحتماء بغابة سيدي الطيب.

- لا ملجأ من الله إلا إليه.

يقول العم وهو يهرول بجواري، يكاد يسقط من أثر ارتطام عجوز قصيرة بدينة بقدميه، الدخان المتصاعد من الحرائق تلقي به الريح فيحلق فوق رؤوسنا، يأبى المغادرة دون أن يشهد ما يحدث، الغبار المتصاعد من تحت أقدامنا ينغرس ملتهبا في وجوهنا وعيوننا، الأنفاس اللاهثة التي تسابق سقوط القذائف تتخبط في الأجساد التي يفصلها نصف ميل من البيوت المتجاورة للخروج من القرية، نذوب وسط الوجوه التي يعلوها فزع وعرق ينساب فتلمع الرقاب السوداء تحته

- أهو الحشر؟!

يقول طه من خلفي، فيرد العم لاهثا

- الحشر للنار أو الجنة، أما هنا فللنار فحسب.

أصوات صراخ تنطلق لسماع صافرات القذائف التي على وشك السقوط، يسري الذعر في الحشد فيموجه، تتلاطم الأجساد والعيون محلقة نحو السماء، يبكي أبكر فأحمله على كتفي، ينزعه العم ويضعه أمام رجليه، تسقط قذيفة فتنفجر وسط الحشد على بعد أمتار أمامنا، نثبت

رثه ينسحب نحيبه. نعبر فوق القتلى والجرحى والغبار والدماء وتعلو. تنفجر قنبلة أخرى خلفنا. يتطاير سقف بيت ناثرا أجساده فوقنا. نتجاوز البيوت ونصل منخفضا مفروشا بالعشب. ألتفت خلفي. نزلت أسراب من البشر تندفع كموجة خروج من وسط البيوت التي سحقت جديدة. أصوات غريبة، رؤوس وأطفال تشده عرايا وعجائز يلاحقون الخروج من فوهة الطريق. فجأة بدأت تتساقط كمطر يهطل سحابة سوداء قنابل. تزلزل البيوت دخان أسود يتصاعد بغزو السماء. نتجاوز الغابة بخطوات. نغذ إلى منخفض عشبة. دقائق لم يتوقف خلالها القصف كل ما يجد بطريقه لكنه يعبر قرب الطريق. يخلو الطريق من الفارين. يتجاوزون الممر. يجري منه عائدا. تظهر عشة بغض خطواتهم على أرض الطريق. يلهثه معه. يقول لعله

- فلتقولي عنا متنا، ونحصد من جثثهم لمن يبق بها خجلنا.

نأخذ كموجة بيدي. نمشي وسط عشب الغابة الساكنة تستحم تحت الشمس غير آبهة بما يجري

ساعة من المشي المفعم بالفزع والصبر. نذلف وسط الحشود التي استعمرت الأماكن الخضيبة. نصل لبقعة خالية. يتسرب ضوء الظهيرة بين الأغصان غير المتشابكة فيلطخ الأرض ببقع صفراء فاضحة. أتلفت حولي بحثا عن بقعة غير مكشوفة. أخوض يتبعني أبكر نحو المقابر التي نتوسطها. بكاء الرضع المنادي للأمهات المشغولات بالبحث عن جذع شجرة وارفة يتوه وسط الزحام. أصوات نداء مبتهجة بالعثور على مخبأ تعلو الرؤوس المتلفتة في ضياع. أميل لمشارف المقبرة فيخف الزحام

وتخفت الضوضاء، تجمعت الطيور الفارة على الأشجار المحيطة بالمقبرة، من حسن حظنا أنه مازال للموت رهبة، وربما كل هؤلاء جزعوا أن يقتربوا من قبور أنزلوا فيها ذويهم منذ ساعات، ينادي أبكر فألتفت له، يقف وعلى وجهه ابتسامة ظفر وسط بقعة تحيط بها أشجار عدريب أربع عملاقة تجعلها كأكمة منيعة، لا يفصل البقعة عن المقبرة سوى أمتار قليلة، رائحة عطن واخزة تنفذ من تحت بساط الأوراق الذابلة المفترشة الأرض، يجري أبكر لإحضارهم، أفرع جذوع الأشجار التي تعلو ثم تنحني قبل سفرها للأعماق تحتل معظم المكان، الباقي لا يتسع سوى للنساء الثلاث والعم وأبكر بالكاد، أحسن العم حسن صنعا، ترى هل لقي حتفه أم أن بيته الذي تحتوي جدرانه على أجساد أحفاده مازال صامدا، فأصوات الانفجار في مباني الجزيرة تتجاوز البيوت وتعبر ميلين من العشب وتخترق الأشجار وتصل عفية حتى هنا، يعود أبكر ومعه الجميع، وخلفهم يبدأ موج الأهالي في المد نحوي، تروح عشة للمقبرة، دقائق ويمتلأ المكان عن آخره، من لم يجد مكانا في الغابة افترش المساحات الخاوية وسط القبور.

ـ لم يفر الإمام.

بفخر يقول صدِّيق المستند على جذع العدريب وهو يمسح العرق المختلط بالتراب عن وجهه، يرد العم من داخل الأكمة

ـ فليحتمِ بالسراي وليشد جدرانها الحجرية عليه جيدا.

أنظر لطه الذي تمدد على العشب وأغمض عينيه مستسلما للظل، عشة مازالت بجوار قبر رضيعها، تقطع عشبا من بين القبور وتضعه فوق

القبر، تغطيه بالعشب تماما، تعود وفي عينيها جمود جعلهما كالحجرين، تلقي نظرة صوب طه، تدلف للأكمة صامتة، يلتفت بجانب وجهه نحوها وهي تدخل، يخرج أبكر ويتمدد بجوار طه، يلتفت له بوجهه ويقول

- اصبحت رجلا أم ضاق المكان؟

تعلو حمرة الخجل وجه أبكر، يلتفت بوجهه لناحية المقابر

- أهلا بالرجل الصغير.

يقول طه ضاحكا ويكمل وهو يلتفت لي

- سيؤذن أحدهم عما قريب.

- هل سنترك المستشفى خاوية؟

يسألني صدِّيق فترد كلتومة من الداخل بحدة

- لتذهب أنت فتؤنس وحشتها، لكن لا شأن لك بعبد الله.

يصمت صدِّيق، الحديث داخل الأكمة ينقطع، أتلفت حولي، بجوار شجر ماهوجني تجلس امرأة معفرة الثياب ساهمة على فخذها تسترخي رأس طفل يعلو شخيره، بجوارها شابة متشرطة الوجنات مازالت بقايا دموع في عينيها، على بعد خطوات امرأتان ورجلان وثلاثة أطفال يتحلقون حول عجوز ممدد وسطهم يعلو صوت حشرجة أنفاسه، بقبالتهم رجل عاري الرأس وامرأة يتدلى ثديها في فم رضيع، أقوم وأتوجه نحو العجوز، يفسحون لي فأدنو منه، دم متجلط على كتفه وصدره العاري من أثر شظية مغروسة بترقوته، أتناول عمامة أحد الرجلين، أضعها بين فكي العجوز، أسمي وأنزع الشظية فيصرخ العجوز ويتدفق الدم، أجلسه وأسنده على الجذع، أكور العمامة وأسد

بها الجرح أنتظر دقائق وأرفع العمامة ببطء. توقف النزف. يناولني الرجل الآخر عمامته، أطبقها وأضعها على الجرح. أتلفت للمرأة بدينة الوجه، تنزع منديلها وتعطيه لي. أربطه فوق العمامة ثم أتركهم وأنطلق نحو المقبرة، أتجاوز ظل الغابة والكثير من القبور التي يتناثر بينها العشب والبشر، أصل لقبر محمد. أجلس على رأس القبر الذي يتغوط طفل بتألم عند نهايته، أقرأ الفاتحة وتلفظني رائحة البراز المدمم الذي ينساب للأرض، أترك المقبرة وأدلف للغابة متحاشيا الارتطام بالأجساد الممدة على العشب، دقائق وأخلف الغابة بضوضائها وروائحها وألمها وظلها وحرارتها الممتزجة برطوبة خانقة ورائي. أمشي وسط العشب وعيناي على النيل، تنفتح زاوية الرؤية جنوبا على القرية. مازالت الطائرات تحلق فوق خيمة الدخان الأسود التي تغطيها. من عند الجاسر ومن بين الغابات على طرفه الشرقي تتصاعد غيمة من الغبار. أصل لشاطئ النيل الذي يواصل سريانه الأبدي غير آبه بما يحدث. أكمة من أشجار السلسبيل تنمو على الجرف وتنحني أفرعها وأغصانها حتى تلامس صفحة الماء، عن يميني ووسط النيل تسترخي جزيرة دائرية. على الجزيرة ينمو عشب بكر زاه، الجزيرة تكفي تماما لإيواء عابد أو لص هارب، أخلع ردائي وسروالّي، أضعهما على الشاطئ بجوار الأكمة، أنزل برفق للماء، تلامس برودته جسدي، أغوص للأسفل، الصمت المريح والرؤية شبه المنعدمة يسكنان خلجات نفسي، يزيلان كل الخواطر والأفكار، لو يمكنني أن استرخي لأيام على تلك الأرضية الطينية اللينة الناعمة في هذا الصمت الذي يدلك كل جسدي، أصعد للسطح، أتنفس بعمق، أسحب جسدي لجوار الجرف أسفل ظل الأشجار، أسند رأسي

على جذر عار، أدع جسدي للموج يحمله ويدغدغه، عيناي تجولان على صفحة الماء المتماوجة، لونها الفيروزي يسحب روحي وعقلي، تصل عيناي للجزيرة المقابلة، مولاي مشتملا ببردته الخضراء يقف على حافة الجزيرة، يشير لي وبجواره مريم عارية الرأس ترتدي ملابس بيضاء تلوح بكلتا يديها، خلفهم كل أهل البادية، أهم بالوقوف فأعجز، يلقي مولاي ببردته على سطح الماء، تتمدد وتتسع فيسير حتى يصل لطرفها، تتبعه مريم ممسكة بطرف ردائه، يتبعهما كل أهل البادية، تقطع البردة النيل سابحة نحوي بهمة، تتضح ملامحهم رويدا، مولاي في عينيه نظرة وجد، ومريم تلمع عيناها ببريق السعادة، أمي خلفهما تغزل الصوف وتغني، إخوتي يجلسون بجوارها وحوار ضاحك يدور بينهم، أهل البادية بين جالس وواقف يطلقون ضحكات تغرد فوق رؤوسهم، تهتز البردة فيضحك الجميع، تبدأ في الغوص من خلفهم فينظرون لها مهللين، يسقطون واحدا تلو الآخر في الماء ومازالت أصداء ضحكاتهم تتردد، لم يتبق سوى مولاي ومريم التي مازالت تمسك بطرف ردائه، ينظر لها ضاحكا ويشد الرداء من يدها، تغوص في الماء وهي تضحك ملوحة بيد له ويد لي، يكاد مولاي يقترب مني، تمتد يده حتى تكاد تلامس رأسي، ينزع جلبابه ويلقيه فيسقط سائرا خلف البردة، يضحي عاريا بعدما يخلع سرواله ويلقي به، ينكمش على ذاته، يتكور واضعا رأسه بين فخذيه، ينبت الريش على جسده، يرفع رأسه التي تحولت لرأس صقر، يرفع جناحيه ويصفق بهما، يضرب الهواء ويحلق، يمر من فوقي وهواء جناحيه البارد المنعش يضرب وجهي، أقوم مرتجفا والماء يملأ

فمي، أصعد لاهثا لأسفل الأكمة، أنظر من بين الغصون المتدلية لحيث غرقوا، الشمس تحتل البقعة، أستغفر محاولا استجماع شتات نفسي

- كدت تغرق.

التفتُّ للخلف مذعورا نحو الصوت، الطبيب وفي عينيه نظرة ميتة يحدق فيّ، يجلس القرفصاء في العمق المعتم يحيط رجليه بيديه بينما رأسه الصغير كدرنة نابتة فوق جسده الضخم، انغرست عيناه الضيقتين الخابيتين في جسدي العاري، نزعت ملاءة من الكومة بجواره، سترت نفسي واستدرت في مواجهته

- هنا كالجرذان؟

أقول وأجول بعيني في الجحر المعتم الذي صنعته الشجيرات المنحنية بأغصانها المتدلية

- وهل أضحى الجميع إلا جرذانا حتى إمامك؟

يرد بتلقائية من أعد جوابه مسبقا، يبدو أنه كان يفكر في جحره المظلم هذا منذ رآني أنزل الماء تحت قدميه، يطوف بذهني العشرات من الجرحى الذين وقفت أمامهم كالمشلول لا أملك لما حل بهم دفعا، أقول له باستهجان

- عشرات الأرواح التي كان يمكنك إنقاذها تنتظرك عند الله.

يرد بلا مبالاة وهو ينظر لي بعينين كالجمر

- ومن كان سينقذهم لو دمرت أول قذيفة المستشفى بمن فيها؟

لم يفكر فقط منذ رآني. بل كان يفكر منذ خروجه من المستشفى، بل ربما منذ قرر الهرب. هذا هذيان رجل يشعر بجرم ما فعل. ما يقوله حيلة يسكت بها ضميره التي حرمته النوم منذ غادر. أقول وأنا أستدير وأنظر للنهر الذي يكسر الأصيل

- حينها كنت ستموت شريفا مثلما ماتوا.

- أي شرف في الموت بحرب بين رجلين كلاهما يريد الكرسي؟!

- لم يطلب منك أحد أن تحمل سلاحا. كان المطلوب منك أن تؤدي عملا تمرنت عليه.

يجذبني من كتفي. ألتفت له فيقول

- لا تشح بوجهك عني كمن يحتقرني. لم أكلف بالعمل وسط الحروب. لو أرادوا النجاة لغادروا حتى تنتهي الحرب.

أستدير له بكل وجهي. أقول والغضب يتملكني

- ألا تعرف الخجل. توقف عن هذيانك. أمثالك لا يرون الناس وجوههم ثانية.

تنكسر عيناه عني يتشاغل بالنظر نحو النمل الصاعد على ساقيه العاريتين المرتجفتين دون أن يهشه

- لا أريد الموت. لا أريد الموت.

- ومن منا يريد الموت. لكننا في النهاية سنجرعه، نياما أو في حرب أو بين أحضان امرأة أو على تل من المال أو المجد.

- سأعيش حتى أحقق كل أحلامي، عندها فليأت وقتما يشاء.

ـ الجبناء لا يحققون أحلاما، والأيدي المرتجفة لا تصنع مجدا.

ـ لماذا صعدت لهنا، دعني وشأني، لا أريد أن أرى أحدا.

أغادر الأكمة، على فوهتها أخلع الملاءة، ألقيها فتستقر فوق رأسه فتغطيه تماما.

ـ عبد الله!

تقول كلتومة صارخة وهي تمسك بملابسي وبجوارها العم، أنظر لها ثم أمدد رأسي داخل الأكمة ثانية وأقول له

ـ يمكنك البقاء هنا حتى يوم البعث، فلن تعدم شيئا يرعبك على الدوام.

ـ حسبتك غرقت، مع من كنت تتحدث؟

تسأل كلتومة بوجهها الذي يحمل بقايا فزع وهي تلتقيني بجوار الأكمة وتسترني بالرداء

ـ مع رجل ميت.

أرد وأرتدي ملابسي وعيناي على العم الذي يقول

ـ إن لك شأنا.

ـ رأيتهم جميعا يغرقون.

ـ لعل بعضهم غرق وبعضهم نجا؟

ـ بل غرقوا جميعا، عدا مولاي تحول صقرا وحلق بعيدا.

ـ استجاب الله لدعواتك، فأمطرت وفاضت في ديارك.

ـ ومولاي؟

ـ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

عثمان إدريس دار

الجزيرة أبا - الأحد ٢٩ مارس ١٩٧٠

بوجوه غائمة، وأسلحة عاجزة، وجهاز لاسلكي أخرس، نجلس انتظارا للتعليمات على طرف الغابة الجنوبية، تتهدل علينا أصوات الانفجارات القادمة من الجزيرة.

فمنذ عملية ليلة السبت وخوفا من الأكمنة لم تتقدم مدرعة واحدة صوب الجزيرة كي نلتحم معها، صنعت جثة حسب النبي والشباب المستشهدين حاجزا عجزوا عن عبوره.

لكننا نجحنا في إيقاف المدرعات فاستبدلوها بدبابات ت ٥٥ ومدافع الهاوتزر عيار ١٥٥ ملي، انسحبت طائرات السكاي هوك وحلقت طائرات الميج ٢١ النفاثة الأسرع من الصوت. تنطلق قذائفهم من المواقع الحصينة التي بعد الاقتراب منها انتحارا، تمرق طائرات الميج ملقية بقذائفها بينما مضاداتنا الأرضية تلاحق صدى أصواتها بما تبقى من ذخيرة.

منذ بدأ قصف هذا الصباح المتبادل بين الهاوتزر والميج أبلغنا الأخ محمد صالح أننا في انتظار موافقة الإمام على توسيع دائرة القتال لخارج

الجزيرة. سنخوض حرب عصابات لو وافق الإمام، هي الطريقة الوحيدة التي نتخلص بها من قصف المدافع والطائرات، نحارب عندها كرجال في مواجهة رجال، ربما يكون موقع الطويلة على البر الغربي للنيل هو هدفنا القادم، أو مطار ربك ومحلجها وحجر عسلاية من الشرق، أو حتى حامية كوستي من الجنوب، المهم أننا سنغادر محبسنا هذا ونذهب لهم في عقر دارهم، سنشغلهم بالدفاع عن أنفسهم، لكن ذلك اللاسلكي الهامد لم ينطق منذ الصباح، وها هي الظهيرة تشد ردائها الملتهب ليغطي الجزيرة، وربما يأتي المساء ولم يتبق بها بيت قائم، حتى الأشجار تقتلعها القذائف، لم تسلم الغابات من القصف، حتى غابة سيدي الطيب رغم علمهم بلجوء الأهالي العزل إليها زارتها طائرات الميج مرارا.

- هل سيطول انتظارنا؟

أسأل كمال المضجع مستندا على ذراعه يعبث في العشب فيلتفت لجهاز اللاسلكي ويقول هازئا

- عل المجانين منذ الصباح يبحثون عن مكان آمن يتشاورون فيه، أو ربما يجهزون الأكفان ويكتبون الوصايا.

لا جدوى من الحديث معه، فمنذ بدأت الميج والهاوتزر في الاشتراك بالمعركة وهو رهن حالة من القنوط، كلما تكلم يرمي من يحيطون بالإمام بالجنون، لكنني مللت من الصمت، تنهشني الأفكار والوساوس منذ الصباح، أقول له

- وأنت ألن تكتب وصيتك؟

يقول بصوت عال بعدما يقف ويتحرك وسط الأخوة الممددين تحت الظل

- أمثالنا لا يكتبون وصايا، فلا أحد يستمع لنا أحياء كنا أو أمواتا.

لم يتحرك أي من الإخوة، فقط سلموه آذانهم لكن أجسادهم وأرواحهم لم تبال بما يقول، عادوا لحواراتهم الهامسة، ينظر لهم بيأس ويذهب، أقوم وأسير خلفه، نقطع خطوات فنخلف الغابة وراءنا، ينفتح فضاء الظهيرة المشع أمامنا، العشب الكثيف تحت أقدام الغابة يتماوج، القذائف تحلق تاركة ذيولا كالجروح في السماء، ينظر للطريق الذي ينفذ بين الغابتين ويمتد وسط العشب حتى يلتحم بالطريق الرئيسي ويقول

- ما المانع؟

أتحرك فأقف أمامه. أنظر في عينيه وأقول

- طريق مثل هذا أوصلني لهنا.

- لو مت. فلا تترك أمي.

- وماذا لو لم تمت؟

- ستكون مصيبتي أعظم. كيف يمكنني العيش بعد كل ما رأيته؟

- لا تعطي الأمر أكثر من حجمه، هي معركة فاز فيها من فاز وخسر من خسر.

- لا أحد يخسر مثلنا.

- الكل يخسر.

- يخسرون أحلاما توهموها، لكننا نخسر حياة بأكملها.

- وهل الحياة سوى حلم أو وهم؟ هل من فارق بيننا وبين كل مخلوق سوى الحلم؟

- نعم هنا الفارق الأهم.

يقول وهو يضرب رأسه بقبضة يده في غضب

- هذا الذي تكاد تحطمه يا صديقي عبدا لأحلامنا وشهواتنا.

- هذا فقط إذا كنا عبيدا.

- وهل تحسبنا غير ذلك؟

- ماذا تقول؟

- أقول ما سمعته

- لست عبدا ولن أكون، جئت هنا حرا لأدافع عن وطن مبتلى.

- كلنا عبيد لأفكارنا.

- الطريق مفتوح أمامك لتتحرر، فما يبقيك في هذا الرق.

- هل تعرف مكانا لا يمكنني فيه أن أحلم أو أفكر؟

- القبر.

- عندها يا صديقي نتحرر.

ينظر في عيني طويلا، أقول وأنا أتابع وجهه الوديع رغم عينيه الجاحظتين وخديه النحيلين

- لو كنا عبيد أقداره فلماذا خلق عقولنا؟، نحن نفعل ما نشاء بما لا يخالف إرادته.

هذه رسالة العم لك، هي ما أراد أن يوصله لك بتلك الصفعة التي اتهمته بعدها بالجنون وغادرت

ـ هل يمكن أن يكون حيا بعد كل هذا القصف؟

يسأل وهو يستدير وينظر للدخان المتصاعد من الجزيرة

ـ وما الفارق لديك؟

ـ هذا الرجل ولي، أتمنى لو أتبعه كدرويش بقية حياتي.

ـ حوله من الدراويش ما يكفي ويزيد.

ـ أي أرض أنبتت هذا الولي؟

ـ أنبته وطن يقتات على الأوجاع صباح مساء.

ـ كيف أمكنك تركه وتطليق ابنته؟

ـ ألم أقل لك: كلنا عبيد لأفكارنا.

عصرا نعبر الجاسر فرادى حتي لا تستهدفنا الطائرات، أشرف على مباني الجزيرة التي تغطيها سحابة من دخان وغبار، أمضي وسط البيوت المتهدمة، أمر على المستشفى الذي أصبح كومة من ركام، أتمهل وأصيخ السمع، لا أنين ولا صراخ ينبعث من أسفل ركامها، أسير وسط الطريق الذي تحتل الحوائط المتهدمة جانبيه، والأشجار المقتولة تتمدد وسط نهره، وبقايا دماء متجلطة على أرضه، أصل للسراي مهيضة الجناح، طابقها العلوي مدمر تماما، مقصورة الاستقبال في فنائها تتكئ على بقايا أعمدتها المحطمة.

أسير محاذيا لمسجد لكون الذي مازال سالما، القليل من الخشية مازال يسكن القذائف، أم قرر الله أن يدافع عما يخصه فحسب؟ لا وجود للبشر منذ

عبرت الجسر وحتى هذه، أغادر القرية وأتجه جنوبا نحو طيبة، دقائق وكنت في مقر الاجتماع الذي دعيت إليه. المقر مخزن ضمن مجموعة كبيرة من الأماكن تتنقل بينها الذخيرة حتى لا يستهدفها العدو. وجدت كمال في انتظاري أمام الباب. يحتشد بالمخزن أكثر من مئة وخمسين رجلا، على جانب منه كومة صغيرة من صناديق الذخيرة مغطاة بحصير ينكشف عن جانب منها، الأخ محمد صالح والأخ فضل المولى جبارة بجسده الضخم وعينيه اللامعتين يجلسان في صدر المجلس. الجميع جلوس أمامهم يستمعون للتعليمات، أجلس في مؤخرة الحشد الذي يخطب فيه الأخ محمد صالح

- وأنتم أفضل المقاتلين لدينا. سيقودكم الأخ فضل المولى جبارة لعملية ستقلب موازين المعركة. بعد الغروب ستعبرون النيل غربا للطويلة، ستهاجمون القوات المتمركزة هناك. ثم ستتحركون لمهاجمة حامية كوستي. وعندما تنتهي مهمتكم ستصلكم تعليماتنا بالمهمة القادمة، الأخ فضل معه كل الصلاحيات للتصرف خلال المهمة، سيضع لكم خطة الهجوم على الحاميتين. سيؤمن طريقة اختفائكم وتجمعكم.

ينظر في وجوهنا ويكمل بحماس

- لا عودة للجزيرة إلا بالنصر، أعلم أنكم كنتم تطالبون بهذه الخطوة منذ بدأت الحرب. لكن أن تأتي متأخرة خيرا من أن لا تأتي أبدا، كنا نتمنى أن نأنس بهذا الحشد المؤمن المجاهد لوقت أطول، لكن قصف هذا المكان ونحن جميعا فيه يعني انتهاء كل أمل، موعدنا قبل الغروب عند القرية التي تسكنونها، لا يسير أكثر من رجلين منكم سويا، ولا يدخل أي منكم الجزيرة.

يشير لبعض الأنصار الجالسين في ركن المخزن، يوزعون علينا خبزا وملحا، ينتظر ريثما ينتهون ثم يقول

ـ فلتنصرفوا راشدين.

نقوم وكل يحمل خبزه وملحه، أتحرك جنوبا نحو طيبة مع كمال الذي تعلو ملامحه لمعة الأمل، ميل من الصمت المشوب بالفرح ثم ننحرف غربا وسط العشب

ـ هل تبقى الكثير؟

أسأل كمال فيقول

ـ أصبحت تعرف الجزيرة أكثر مني.

ثم يستدرك

ـ لا أظن، يوم أو يومان على الأكثر، حسبتك خدعت كالآخرين.

- جميعهم لم يلحظوا صناديق الذخيرة التي لا تكفي ليوم من القتال.

- ألم تفكر في أنه ربما تأتي شحنة من الذخائر؟

- من لا يستطيع إدخال طعام للجزيرة لا يمكنه إدخال ذخائر.

- صدقت، ربما يغادر الإمام من شمال الجزيرة بينما نشغلهم نحن في الطويلة وكوستي.

- للمرة الأولى يضعون خطة محكمة، لكنها للأسف خطة الهروب.

- أتوقع ذهابه لإثيوبيا، فعلى الأكثر يوم ويصل إليها.

- هل تتوقع تسليم الجزيرة فور خروجه؟

- لن يسلموها حتى يطمئنوا على وصول الإمام لمهجره.

ـ هل ستلحق به؟

ـ لا أعتقد، لكنني لن أبقى في هذا البلد.

تظهر طائرة قادمة من الجنوب تجاهنا، ننحرف مهرولين لدومة وسط العشب، يقترب الأزيز فننبطح على الأرض، يعبر الصوت من فوقنا ثم يبتعد، أقول وأنا أمسح التراب عن وجهي وأجلس

ـ ما رأيك في المجيء معي لنيجيريا؟

ينفض التراب عن ردائه ويقول وهو يتابع الطائرة التي تحلق فوق القرية

ـ لن أرحل من هنا لأي مكان في إفريقيا كلها، فهي تماما كالقلب المدمى لا مكان فيها إلا للألم

كقطيع من أفراس النهر يرسو عشرون زورق صيد صغيرة في انتظارنا، تداعبها الريح فتتداخل وتتباعد على صفحة النهر الغارقة في الظلام، في خلفية الشاطئ المقابل تظهر أضواء الطويلة مبعثرة كجمرات ذاوية، ونحن نجلس جماعات وفرادى على عشب الشاطئ صامتين مترقبين، الأخ فضل بطوله الفارع يذرع الشاطئ جيئة وذهابا ويداه معقودتان خلف ظهره، عيناه لا تتوقف عن رمق الطريق للقرية ورمق أضواء الطويلة والتطلع للسماء فوقها، انتهى منذ ساعة من تلقيننا خطة الهجوم، أمر زورقا يحمل خمسة أخوة بالتوجه للشاطئ الآخر والطواف منفردين حول القوة المرابطة للتأكد من عدم وجود فخ في انتظارنا، منذ دقائق أضيء مصباح على ظهر الزورق وأطفأ خمس مرات إيذانا بالعبور الآمن، ومازال الأخ فضل يذرع الشاطئ انتظارا لسيارة الأسلحة

والذخيرة، سأكون وكمال ضمن الفوج الأول من القوة المهاجمة سنطلق ثلاث قذائف أر بي جي في داخل الموقع ثم سنعود أدراجنا تاركين حملة الرشاشات في حرب عصابات مع القوة المترنحة من الصدمة. يغطي صوت السيارة القادمة على نقيق الضفادع في النهر، يهرول الأخ فضل نحو الصوت، تظهر سيارة صغيرة على بعد أمتار تطفئ محركها وتسكن، ينزل منها الأخ محمد صالح، يتحادثان طويلا، يعود الأخ فضل بوجه كالرمال بلا أدنى تعبير، يقول بعيون منطفئة

- بتعليمات من الإمام تم إلغاء المهمة.

يصمت مثبتا عينيه على أضواء الطويلة للحظات ثم يلتفت لنا ويكمل

- يمكنكم الآن الذهاب للراحة انتظارا لتعليمات جديدة.

تتشتت أفراس النهر في كل اتجاه غائصة في الظلام وهي تضرب وجه الماء بزعانفها الخشبية.

- عن أي راحة تتحدث؟ فلتقل لنذهب للموت كالنعاج.

يصرخ كمال من خلفي، يلتفت الجميع نحوه فيكمل بوجه مختنق

- تتسببون في قتل الآلاف من أهلنا ثم تأمروننا بالراحة.

يندفع نحو الأخ فضل ممسكا بطوق جلبابه وهو يردد

- فلتحضروا السلاح والذخيرة ولتذهبوا للنوم كالنساء.

- لو كان الأمر بيدي لذهبت بكم للخرطوم وفورا.

يرد الأخ فضل وهو يضع يده الضخمة على رأس كمال الذي يدفعه في صدره فيترنح ويكمل

- أمثالكم كانوا بجوار الخليفة التعايشي وتسببوا في ضياع ما حققه المهدي. أما نحن فلن نسير على درب الدمار الذي مهدتموه لنا، سنذهب للإمام إما أن يوقف هذه المذبحة أو يطلقنا لنجاهد كالرجال

تتردد أصداء كلماته وسط الإخوة فيزمجرون

- إلى الإمام إلى الإمام

نتجاوز الأخ فضل الواقف مصدوما من ردة الفعل، نمر بالأخ محمد صالح المستند على مقدمة السيارة مبتسما تعلو السعادة وجهه، حوالي السبعين رجلا يشكلون قلب الحشد والباقون يتبعوننا على بعد متباطئين، ندخل القرية الوهمية فيدق كمال على أحد الجدران الخشبية بيديه، يدوي صوت الخشب الأجوف في الفضاء الصامت، يتبعه الجميع فيعلو دوي القرع ملهبا حماسنا.

في منتصف الطريق ألمح على المدى المئات من المشاعل متجهة شمالا نحو غابة سيدي الطيب، حصاد اليوم من القتلى متجهين لمثواهم، **طوال الطريق أسأل نفسي لماذا لم أنفجر غاضبا مثل كمال، لماذا لم يكن لدي الدافع لأفعل ما فعل؟ والآن عرفت، فلقد تصاعدت نيران حقدي لموت رضيع عشة ولم يتحرك لي ساكن لموت المئات من أهل الجزيرة، كانوا بالنسبة لي وقودا لحرب سيحصد أهلهم ثمرتها، مجرد لاعبين بإرادتهم في نزال لابد أن يكون به خاسر، كنت دوما وبرغم أنني وسطهم أحس أنني أقف كشاهد غريب على قمة جبل شاهق أراهم على سفحه يأخذ بعضهم بنواصي البعض ويتذابحون، أما كمال فهم بالنسبة له أهل وذات وماضي ومستقبل، رغم رغبته الظاهرة في مغادرة هذا البلد إلا أنها ليست**

نابعة من كره له ولكنها نابعة من عشق متجذر حتى أعماق قلبه وعقله، يقول هذا الوطن بلا تاريخ ليس عن احتقار له أو رغبة في استبداله بوطن آخر ولكن حلما بمجد لم يستطع أسلافه صناعته، نيجيريا بالنسبة لي قريتي، وما حولها ما عدا ذلك لا آبه به لا يمثل لي جناح بعوضة، أما هذا الشاب فيحمل وطنه في داخله بكل ذرة تراب فيه، أي ألم تفجره بداخلنا فكرة الوطن، ماذا لو فكر كل واحد منا أنه وطن في ذاته.

ساعة من المشي وكنا أمام الكون الخاوي، السراي المظلمة شبه المتهدمة محاطة بعشرات الحراس، يتأهبون بمجرد رؤيتنا، يسدون باب السراي الرئيسي متناسين السور المحطم المفتوح على الداخل، الغريب أنه لم يفكر أحدنا في المرور عبر السور ولكننا جميعا نقف أمامهم يتقدمنا كمال الذي يقول دون أن يحاول حتى إزاحتهم عن طريقه

- نريد مقابلة الإمام.

يرد أحد الحراس

- الإمام في اجتماع هام.

يقول كمال وهو يضرب بيده على فخذه فنتبعه جميعا

- نريد مقابلة الإمام وفورا.

يشق الأخ محمد صالح طريقا وسطنا، يفسحون له فيدخل دون أن يلتفت لنا، بعدما يقطع الممر المفضي للباب الداخلي يلتفت نحونا ويقول مبتسما

- فليأت كمال معي.

يأخذ كمال بيدي، يسحبني نحو الأخ محمد صالح الذي ينظر لكلينا ويهز رأسه في رضا ويستدير داخلا ونحن خلفه.

في الداخل وقفنا ننتظر في الردهة المراق تحت ظلامها ضوء متسلل من باب الغرفة الوحيدة المضاءة، لحظات وينادينا الأخ محمد الذي سبقنا بالدخول، يتوقف كمال للحظات على الباب ثم يدلف فأتبعه، النافذة مغطاة بكليم منعا لتسرب الضوء الضعيف الذي ينبعث من راتينة معلقة في النجفة المتدلية من السقف، الإمام متربع وحيدا على أريكة تحت النافذة، يقف كمال بجوار الأخ محمد في مواجهة الإمام، أتنحى جانبا وأقف معطيا ظهري للحائط، يسأل الإمام وهو ينظر لكمال

- ما سبب هذا العصيان للأوامر؟

يرد كمال بصوت واضح

- وهل هناك أوامر لنعصاها يا سيدي؟

يمسح الإمام ذقنه بينما عيناه تمسح كمال

- ألم يبلغك أمري بوقف العملية؟

يرد كمال وعيناه على الكليم المعلق متحاشيا عيني الإمام

- بلغني.

يقول الإمام بصوت حاد رغم ملامحه التي مازالت على سكينتها

- ولماذا العصيان؟

يثبت عينيه على الإمام

- توسعة الحرب لخارج الجزيرة هي الوسيلة الوحيدة لوقف هذه المذبحة، ولو فنت هذه الجزيرة بمن فيها فلن تقوم للمهدية قائمة بعد اليوم.

يسأل الإمام

ـ أمن المهدية أنت؟

يصمت كمال فيجيب الأخ محمد صالح

ـ هو من الإخوان .

يهز الإمام رأسه كمن اكتشف سرا ، يمسح وجهه بيده ، يقول كمال

ـ لم أعد من الإخوان ، ولم أكن من المهدية ، أنا سوداني فحسب ، ألا يكفي هذا

يلون الغضب وجه الأخ محمد ، يقول الإمام

ـ يكفي ويزيد ، يا بني خير عندي أن تفنى الجزيرة كلها حتى أشجارها ، وأن تفنى المهدية فلا يبقى منها حتى الذكر ، من أن أوسع القتال لتسفك بحور من الدماء لا يتوقف جريانها في طول الوطن وعرضه لعشرات السنين .

يقول كمال بثبات

- لكن عدونا لا يمانع في سبيل الحكم أن يقتل كل روح على أرض هذا الوطن حتى لو حكمه خاويا

يصمت الإمام للحظات تسرح فيها عيناه خارج الغرفة بل ربما جاوزتها لخارج الجزيرة كلها ويقول

- منذ ثلاث سنوات اختارنا الشعب لنحكمه ، لكنني لم أجلس على كرسي الحكم ولن أجلس ما حييت ، فليعلم الجميع أنني لا أوافق أن تراق قطرة دم واحدة ليحكم المهدية هذا الوطن .

يقول كمال بحزن وصوت متهدج

- ولكن المئات بل الآلاف قتلوا بالفعل، والأرض تخضبت وارتوت بدماء أهلنا.

تتأرجح عينا الإمام بين كمال والأخ محمد ويقول

- أرض ارتوت بدماء كل هؤلاء الشهداء ستنبت يوما ما حرية وعدلا.

يقول كمال برجاء

- فلتنجُ أنت، فيجب أن تبقى أملا يتعلق به الناس.

يقول الإمام وكأنه يحدث نفسه

- الكل يريد نجاتي، وأخشى أن أطيعكم فما ألبث إلا قليلا وأموت على سرير في أرض غريبة.

يخفض كمال صوته فلا أكاد أسمعه

- هجرتك من هذه الجزيرة ليست نجاة لك فحسب بل نجاة لمن تبقى من أهلها.

يتنفس الإمام بعمق، يلقي برأسه مرتكنا على ظهر الأريكة، تبرز حنجرته والخطوط الفضية على رقبته يقول

- قبل أن ترتبوا لهجرتي من الجزيرة أعطوا تعليمات لكل سكانها بالخروج منها بأي وسيلة ممكنة، فلن أنجو بنفسي وأتركهم يذبحون، وعندما تشرق الشمس سلموا الجزيرة ليتوقفوا عن قصفها.

ثم ينظر لي رافعا صوته

- كيف حال صديقك؟

- أظنه بخير.

يقول بود

- فلتدع الحائط وتجلس.

أتحرك لوسط الغرفة، أجلس على أريكة قبالته. يكمل الإمام وهو يشير لي ويتلفت للجلوس

- هذا رجل قرر أن ينحاز لله. فحربنا لا ناقة له فيها ولا جمل. مثل هذا الرجل لا يخون، وأمثال هذا الرجل لا يظهرون إلا مع الفئة الصالحة المؤمنة.

ثم ينظر لي ويقول

- لو التقيت صديقك فاعتذر له نيابة عني. أبلغه أن يواصل رحلته، وأن يدعو لنا، ولو استطعت أن تخرج من هنا سالما وترافقه فأفعل، عل الله يجعل لك مخرجا مما أنت فيه. فأمثاله لا يلتقيهم أحدنا في حياته كثيرا.

أرد وعبد الله يتجسم أمامي

- أفعل إن شاء الله.

- من يبايعني على الشهادة في سبيل الله؟

يقول الأخ محمد صالح وهو يمد يده للشباب المحتشدين أمام السراي، يتدافعون بحماس ليده، يبايعون ووجوههم يضيئها الحبور، يقول الأخ محمد بعد أن لم يده وعيناه تغرورقان

- ما أتعس أولئك الذين لا يؤمنون بالله، ما أفدح خسارتهم، لو لم يخسروا طوال عمرهم إلا تلك اللحظات النورانية التي يسمو فيها الإيمان بكم عن دنياكم وأجسادكم وأهليكم وبنيكم لكفتهم خسارة،

لكن المولى سبحانه يهدي من يشاء ويجتبي من يشاء، ما أروع ما ينتظرنا عنده، فغدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه

- الله أكبر ولله الحمد

يجأر الشباب، فيقول كمال الواقف بجواري هامسا

- الأهم هو ما ينتظر هذا الوطن.

التفت له

- ينتظره النميري لسنوات طوال.

ينظر لي بيأس

- صدقت.

أضع يدي على كتفه بحنو بينما أتابع الشباب المنصرفين برفقة الأخ محمد نحو الجاسر مخترقين حي السوق.

- لماذا لا تبقى هنا؟ فموت أمثالك خسارة فادحة.

ينزل يدي عن كتفه برفق ويتعلق بذراعي ونمضي خلف الشباب

- الأفدح أن التاريخ ينبئنا أن الأوطان أيضا تولد مثل البشر وتموت.

نسير وسط حي السوق للحظات صامتين، أقف مترددا على رأس درب منزلي ناصيته متهدمين، أسأله

- هل يمكن أن يميت حاكم وطنا؟

يزفر ويدفعني للمضي، يقول

- وهل يميت الأوطان إلا حكامها؟!

- فلتنتظرني هنا.

أقول وأتركه وأعتلي الركام حتى أقف على قمته. بيت العم حسن مازال على حاله. أنزل عن التل مقتربا من البيت. نوافذ الحجرتين الأماميتين المفتوحة تشع ظلاما. أفشل في دفع الباب المغلق. أدور حول البيت بحثا عن منفذ. باب جانبي مفتوح على حوش أشجار. أدلف للداخل. بصيص ضوء خافت ينبعث من ثقب باب إحدى الغرف. ما عدا البصيص ورائحة ماء عطن تنبعث من ملابس تملأ إناء كدت أتعثر به فلا وجود لحياة. ألصق أذني بباب الغرفة المضيئة. لا أثر لصوت في الداخل. أدفع الباب برفق. على سرير وحيد وسط الغرفة تنام عجوز عارية الرأس على صدر شيخ وضيء الوجه. يد الشيخ تسترخي على ظهر العجوز تحتضنها بينما يداها متعلقتان برقبته كطفل. أنفاسهما تخرج عميقة مطمئنة متزامنة وكأنهما يشتركان في حلم واحد. تتعلق عيناي بهما للحظات. ثم أغلق الباب وأعود أدراجي منتشيا لكمال الواقف على التل. يسأل بمجرد رؤيتي

- أوجدتهم أحياء؟

أجيب وأنا أعتلي التل

- البيت تسكنه الملائكة.

يمسك بيدي لأصعد بجواره ويقول

- هم بالتأكيد في الغابة.

- هم حيث أرادوا.

أقول وأنا آخذ بذراعه ونمشي صامتين وسط أكوام الركام والظلام، فمازال القمر مصرا على الاحتجاب. أما النجوم فتتناثر على صفحة

السماء كأحلام مستحيلة المنال، تماما كحلم النجاة الذي كان يسكنني وغادر منذ أيام، تاركا مكانه فجوة مظلمة من وساوس الموت الذي انتظره بين لحظة وأخرى، تتردد أصوات المنادين بين البيوت المهجورة

- بأمر الإمام على سكان الجزيرة مغادرتها.

يبتلع الخواء والظلام النداء، شمالا في نهاية الفضاء المفتوح أمامنا وحيث ترقد الغابة كتل من الظلام تغادر مشاعل المشيعين زاحفة نحو القرية ببطء. نتجه شرقا ناحية الجاسر، يتلفت كمال بين الحين والآخر لكتل الضوء المتحركة ويزفر في ندم، يقول ونحن نكاد نصل لطرف الجاسر بينما المشاعل تقترب أكثر من القرية

- لو كنت فعلتها بالأمس لنجا من مات اليوم.

أقول وأنا أبحث بعيني عن الشباب الذين غيبهم الظلام

- فعلت ما عليك فلا تحمل نفسك أكثر مما تطيق.

يقطع كلماتي هدير سيارة قادمة من الجزيرة، نتنحى جانبا، لحظات وتظهر سيارة صغيرة مطفأة الأنوار، تمرق بجوارنا تحمل نساء وأطفالا، نشيح عن حفنات الغبار التي أثارتها في وجوهنا، يقول كمال

- أسرة الإمام تغادر.

- والباقون؟

أسأل والعم والأهل يبرقون في خاطري، يمسك بيدي لنحث الخطى، نعتلي ظهر الجاسر وهدير السيارة يكاد يتلاشى، أتفل بقايا غبار ومرارة في فمي، يقول

ـ غدا يغادرون أو بعد غد.

ـ ربما لا يغادرون.

أقول غاضبا وأتوقف، يجذبني ويقول

ـ في ليلة كهذه ووطن كهذا الذي نحيا به من العبث أن يسأل مثلك عن مثلهم.

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا   الاثنين ٣٠ مارس ١٩٧٠

انتهينا للتو من صلاة الصبح، صليناها على شاطئ النيل، ذلك النهر الذي يقدسه صدّيق فيردد كلما وقفنا على شاطئه: إن كل مياه العالم تغسل الجسد فحسب، أما النيل فيغسل الروح والجسد معا.

على شاطئ النهر المقدس صلى بنا العم، صوته الرخيم العميق النادم الباكي ذكرني بمولاي، نفس النغمات التي يسكب فيها العجائز كل أرواحهم وحكمتهم ويقينهم على طهر الآيات وحكمتها، فتسمو الآيات من أفواههم مزيجا من البكاء والشوق والإيمان والفرح، أحس الملائكة تتلقفها فتغتسل بها قبل أن تغتسل بها أرواحنا وقلوبنا، أرى الله ينظر نحونا ويبتسم، يعلن في الملكوت: أنا الحكيم العليم، فبقدرتي خلقت كائنا بإرادته يسمو فوق كل شيء وكل أحد، وبإرادته ينحط تحت كل شيء وكل أحد.

ننتهي من الصلاة فنستسلم لنسمات باردة يهبها النيل لنا، نسترخي تحت سماء بدلت ثياب حدادها السوداء برداء بنفسجي تشف له أرواحنا، كل منا في عالمه يحاول التخلص من مخزون وساوسه المكدس،

فالعقول ليست هنا، العقول تحوم حول تخوم الغد، تحاول الولوج لحماه، لكن كل الطرقات المؤدية له موصدة بجثث الأيام الباقية من هذه الحرب.

يقوم العم وينفض التراب عن ردائه، يتلفت للنهر للحظات ثم يرسل بصره نحو القرية، يزفر ثم يدب بخطوات متثاقلة على المدق الموصل للغابة، يلحق به أبكر فيتعلق بيده، نتبعه جميعا.

- ألم تكن غابات ديارنا أولى بهذه الأجساد؟، فأوجوكوو لا يملك طائرات ولا مدافع.

يقول العم وهو يتقدمنا للغابة التي تختزن بقايا ظلام الليل الآفل، ترد كلتومة المتعلقة بذراعي وهي تنظر لي بوجه مبرقش بلسعات البعوض

- وأين كنت سألتقي رجلا كعبد الله؟

تقول وتضغط ذراعي بثديها، يضحك العم ضحكة قاحلة ويقول

- لعن الله النساء، يمتن العالم ويحيينه من أجل رجل.

يقول طه وهو يرفع صوته مقهقها

- وأين كنت سأبتلى بمثل عشة؟

أخيرا تبتسم عشة الصامتة بجوار كلتومة، تدير رأسها للخلف وترمق طه الذي يقول

- يبتلى الإنسان بالخير والشر، لا تسيئي فهمي.

تقول فأسمعها بالكاد

- لو أن رجال العالم كلهم مثلك ما عرفت الدنيا شرا.

تضحك كلتومة، يقول العم بصوت خشن جارح وهو يصفق بيديه

ـ ولدي وحده بعيدا، لا يسمع غزلا انتظره طوال عمره.

يصمت فتتغلغل كلماته لأعماقنا، يجول عثمان وسطنا للحظات، يكمل العم رافعا صوته المجروح بالدموع

ـ لم نسمع فيك غزلا يا صدِّيق.

تقول زوجة صدِّيق من خلف الجميع

ـ صدِّيق ليس رجلي فحسب، بل ولدي الذي عجزت عن إنجابه.

ـ حفل غزل على شرف القذائف التي ستهل مع نور الصبح.

يقول العم ويتوقف، يستدير ملتفتا لنا فإذا عيناه مغرورقتان، يتسمر الجميع مستعيدين وعيهم، يمسح الدمع بكفيه، ينظر لوجوهنا الواحد تلو الآخر، يستدير ويتجه للغابة.

فبعد يوم عميت فيه الطائرات عن الغابة، وفي نهاية أصيل الأمس، في تلك اللحظات التي تعشش فيها مقدمات الليل وسط الغابة، وتتسلق الظلمة الوليدة الأشجار فتصبغ خضرتها بلون رمادي قاتم، حامت ثلاث طائرات فوقنا، تبعها بعد قليل عدة قذائف تهاوت لوقعها بعض الأشجار، رغم الصراخ والفزع إلا أنها لم تخلف قتلى أو جرحى، لكنها خلفت إحساسنا بالأمان في جحورنا الخشبية مهلهلا.

يلج العم للغابة، تتوقف كلتومة ممسكة بذراعي، تتلفت عشة نحو كلتومة وتتجاوزنا، يضرب طه كتفي بيده ويلحق بها، تستدير نحو النهر، تدفعني فأمضي بجوارها.

- فلترحل الآن.

تقول بعد صمت أوصلنا للشاطئ، لا أرد، أنظر نحو الماء الذي يخفق أسفل مني، أدعها وأمضي نحو أكمة الطبيب، أنظر في الداخل فلا أجد له أثرا، ألج فيغمرني دفء ورائحة هواء محبوس، أجلس مستندا على الجذوع المتلاصقة ووجهي للنهر، تلج خلفي وتجلس بجواري صامتة.

بالأمس وبعدما اقتحمنا جيش المشيعين وعلى أكتافهم مئات الضحايا، هرول العم كالمجنون بينهم، لم يدع أحدا إلا وسأله إن كان عثمان هو القتيل أم لا.

فور مغادرة المشيعين جاءنا أمر الإمام بمغادرة الجزيرة، حملت سيارة أسرة الإمام وذويه ورحلت، كادت الغابة تخلو من ساكنيها، رفض العم المغادرة، بكى عندما أصرت كلتومة على ذهابنا، قال من بين دموعه ونشيجه

- لن أدع الرجل الباقي من عائلتي وأرحل.

قالت كلتومة بغضب

- سيضيعنا مثلما أضاع نفسه.

قال العم وهو يحدقها بأسى

- إن كان أحد قد ضيع الجميع فهو أنا.

قامت كلتومة وجلست بجواره، وضعت يدها على كتفه وضمته وقالت

- يا أبتي أنت لم تقتل أحدا، ولم تدفعنا لذنب منذ وعيت، فلتنهض لنغادر هذا الجحر، فلم أعد أطيق رائحة الموت، مازالت الحياة

أمامنا، ألا تريد أن ترى حفيدك، ألا تريد أن تعلم صغير كلثومة القرآن، يمكننا جميعا الخروج سالمين من هذا الجحيم، فقط لتنهض.

قال العم وهو يحتضنها

- لم يترك حسن بيتا من لبن، هل ترضين لأديلانو أن يترك بعضا منه؟

- هذه ديارهم، لكن نحن لا ديار لنا هنا، وولدك فارقنا قبل أن نفارقه، فلتحافظ على الطفل وتنهض

قالت وهي تتحسس ظهره بكفها، فقال وهو ينشج

- أيام وتغادرين، ستقتلعين جذورك من جواري، ستتركين قلبي كفوهة مفتوحة على الألم، فمن سيتبقى لي سواه، أريده أن يقف على شفا قبري.

مدت يدها فمسحت الدموع عن وجنتيه وقالت

- لن أتركك، سترحل معنا لمكة ومنها لديار عبد الله، سنأخذ أبكر معنا، ولتأت عشة وطه لو أرادا، ألا تريد أن ترى بيت الله؟ ألا تريد أن تعفر جبينك بتراب حرمه؟

نظر لها بعينين كالجمر وقال

- أريد أن أرى بيتي، أريد لحظة أرتكن فيها وحيدا على حائطه، وينبض قلبي فلا أسمعه، فمنذ غادرته ودقات قلبي لا تغادر أذني كلما خلوت، أريد قريتي أريد أن أعفر وجهي بتراب طرقاتها، وأمرغ عيني في خضرتها.

صمتت وعيناها في عينيه، قلت وأنا أقترب منه

- ألم تقل الديار بساكنيها؟

رد وهو ينظر نحوي

- وقلت كل من تبقى من أهلي معي هنا، لكنك ستحملها وترحل، وتريدون الآن أن أتركه أنا وأرحل، لا ديار ولا أهل.

قالت له كلتومة بعدما سقطت عيناه في حجره

- يا أبتي أنت تطلب مستحيلا، لن تعود لديارك، ولن يعود ولدك، لم يتبق لك إلا بعض هؤلاء المحشورين حولك، وإن لم تنهض لنغادر فعند الصباح لن يتبق أحد منا جميعا.

- الطرقات خارج الأكمة مفتوحة، يمكن لمن يريد الرحيل، أما أنا فلن أغادر.

قال العم وأشاح بوجهه وجسده عنها، لاذ بالجذع وكأنه يتشبث به، نظر طه لعشة التي تتابع ما يدور ساهمة وعيناها على أبكر المنكمش في نهاية الأكمة، قال وكأنه يرجوها

- لن أغادر قبل التأكد من سلامة الإمام.

نظرت له عشة وأدارت بصرها لأبكر ثانية وصمتت، قال صدِّيق وهو يقوم ويمسك بيد زوجته ليوقفها

- لن أترك الجزيرة حيا كنت أو ميتا، سنذهب لتفقد الوالد والوالدة، وإحضار شيئا من طعام ونعود

لحق بهما طه الذي رمق عشة بنظرة أخيرة وقال للعم

- سأبحث عن فحلك الشارد.

ـ الجميع لديهم ما يبقيهم هنا إلا أنت .

تقول كلتومة وتمسك بيدي وتضعها بين يديها وتكمل وعيناها على النهر

ـ كنت أتمنى أن أحيا بجوارك حتى نزوج وليدنا ، ولكن حياتك أغلى من كل ما أتمناه ، فلترحل أنت .

أسحب يدي من بين يديها، أضعها على كتفها، أنظر لعينيها الدامعتين وأقول

ـ أما زلت تعتبرينني ذلك الغريب الذي التقاكم على الطريق عرضا؟

يرتسم الفزع على وجهها وتقول

ـ بل أنت الوطن التي تمنيت طوال عمري الحياة به .

أضمها لصدري وأهمس في أذنها

ـ أديلانو لم يعد أبا لك وحدك؟ والجميع أهلي مثلما هم أهلك، حتى عثمان لن نغادر إلا إذا رأيت في عينيه رضا عن كلينا .

تضم خصري بذراعيها وتهمس

ـ أنا خائفة .

أقول وأنا أتلفت للنهر الذي يعكس زرقة السماء الوليدة

ـ لولا الخوف لأصبنا جميعا بالجنون .

نعود للغابة قبل أن تشرق الشمس، أصرت على الاستحمام في ماء النهر ، دلكتها بعشب جاف وقليل من الطين وهي تضحك كطفلة، تألق جسدها البرونزي فاشتهيت أن أضاجعها، نظرت لذكري منتصبا يحمله

اناء وتضرج وجهها بالخمرة، منذ حملت وهي تعاف المضاجعة، نشفتها بعمامتي. وخرجنا للغابة.

تتلاشى الظلمة وتبدأ الظلال تقطر تحت الجذوع، نعود والنساء القليلات الباقيات بالغابة يجاهدن لإطفاء النيران قبل قدوم الطائرات، ضجيج الأطفال طوال يوم الأمس أصبح مجرد ذكرى، نمر بجوار الرجل المصاب فينظر لي متهللا، يمد يدا معروقة واهنة ويصافحني، فقط هو والعجوز البدينة ولا أثر للأهل، غادر معظم سكان الغابة ولم يتبق سوانا والعشرات. تنظر عشة الواقفة بجوار الإناء النحاسي نحونا بعينين شاحبتين ثم تحمل الإناء وتلج لداخل الأكمة.

عاد طه بعد منتصف ليل الأمس يتراقص فرحا، التقى الأحول الذي أرسله الحاج خلف الله. أبلغه أن همزة لدى الحاج بعدما تركته زوجة الضابط ورحلت لأهلها في الخرطوم، أبلغه أيضا أن الضابط مختف ولم يعثر له البوليس على أثر بعد شهرين من البحث والتحقيقات، وقال للعم إن عثمان تحرك مع قوة لخارج الجزيرة.

عاد صدِّيق وزوجته قبيل الفجر يحمل على كتفيه بعضا من دخن وتحمل على رأسها إناء نحاسيا وبيدها زجاجة بها بعض الزيت.

لم يغادر العم جلسته طوال الليل، فقط صوت ترديده للقرآن يعبق الأكمة، غلبه النوم بعدما عاد طه بالأخبار، على وقع سعادة أن همزة قد تحرر وأن عثمان مازال حيا نام وخده ملتصق بالجذع، مددته كلتومة فثنى جسده الفارع حول الجذع، جلست تهش البعوض عن وجهه تارة وعن قدميه أخرى.

ـ تحرر همزة وعثمان مازال حيا .

يقول العم لكلتومة متهللا بمجرد دخولنا ، وكأننا لا نعرف الخبر منذ الليل ، يبدو أن الأخبار في الليل لا تكشف عن كل جسدها ، تلتحف بعضا من الظلام فتخفي أكثر ما فيها ، وعندما تشرق الشمس تتعرى داخلنا ، تدوس على كل مواقع الوعي فينا .

تقول كلتومة وهي تغرف من بليلة الدخن وتمد الطبق له

ـ تتهلل وكأنه ذهب للنزهة خارج الجزيرة .

يتناول الطبق وينظر لها بعينين تعكسان قلقا غائرا بداخله ويردد محاولا التشبث بالأمل

ـ مازال حيا .

تناولني عشة طبقا يتصاعد البخار ورائحة زيت السمسم من صفحته ، تقول وهي تتجه للإناء فيلتصق جسدها بجسد كلتومة

- عزائي أنه الوحيد منكم الذي يفعل شيئا لو كنت رجلا لفعلته .

تتناول زوجة صدِّيق طبقها وتجلس مستندة على الجذع وتقول

- أما زلت ترانا أحياء يا عم؟

يصمت العم فيرد طه نيابة عنه وهو يضحك

- ماذا دهى النساء اليوم؟

يقول العم آسفا وهو ينظر لعشة التي تجلس بجوار أبكر

- ماذا تنتظر من نساء تطايرت أعمدة بيوتهن؟

تقول عشة

ـ منذ أيام كنتم تسخرون من النضيب. تستحقرون فعلته.

تقف امرأة نحيفة عارية الرأس أمام الأكمة. تناولها عشة الإناء النحاسي بما بقي فيه. تحمله على رأسها وتغادر ببدنها المترهل المهتز، يقول لها موجهاً حديثه لعشة

ـ لو كنت جباناً كالنضيب لذهبت بكم للخرطوم أو حتى لسواكن، وما جئت لهنا حاملاً بندقيتي وسيفي وحرابي. فلتريني رجلاً يمكنني مقاتلته. لكنهم يحاربوننا بآلات لا تجدي معها حراب أو سيوف أو حتى بنادق.

تصمت عشة متشاغلة بتناول الطعام. يرتشف العم ما بقي من ماء البليلة. ويحدج في بعينيه اللامعتين من فوق الطبق الفضي

ـ لم نسمع لك صوتاً يا ولي.

أشيح بعيني عن عينيه. أتابع ضوء الشمس الذي بدأ ينسكب على هامات العدريب. أقول وأنا أخفض عيني على وجه كلتومة

ـ لم أكن لأرفع حتى عصاة في وجه رجل يقول ربي الله، حتى لو قتلني.

يقول العم وهو ينظر نحو أبكر

ـ من أجل أمثالك وأمثال هذا تشرق الشمس كل صباح.

يمد صدّيق طبقه فارغا للأرض يمسح شاربه وذقنه النابتة ويقول لعشة

ـ الجبان من يقتل عزلا، لم يكن بالجزيرة إلا الخير حتى اعتلى ذلك الجبار كرسي الحكم، أتلومين الذبيحة على ذنب ذابحها؟!

ـ بأمثالكم تجبّر الجبابرة .

تقول عشة وتقوم مغادرة الأكمة ، أتابعها وهي تخب بجسدها القصير المدكوك للمقابر ، يقول العم وعيناه عليها

ـ لو كانت عشة رجلا لسادت الدنيا .

يقول طه وهو يقوم ليتبعها

ـ لولا أمثال عشة ما عمرت الدنيا .

مر زمن كالدهر الطويل ومازال الضحى متلكئا يأبى الانصراف، فالشمس تزحف ببطء ناحية الغرب، تتبعها الدقائق واهنة قلقة، بينما أصوات الانفجارات في القرية تلقي بصداها نحونا ، تغرس القلق حتى في جذوع الغابة وأوراقها الساكنة الصامتة ، ووسط ضوء سجين يلملم العم أطراف ردائه، يمسح العرق عن جبينه، يعاود الذكر مرسلا عينيه للمجهول، تعتدل كلتومة المستلقية على حجري، تنظر نحوي وتبتسم في محاولة لمواراة القلق المشع من عينيها، تحك خدها في فخذي لطمأنتي، تعاود الاستغراق في قلقها الذي ترتجف من أثره بين الحين والآخر، تضع عشة يدها على بطنها المرتفع، تحاول مغالبة ابتسامتها وهي تنظر نحو طه الممدد بعينين مفتوحتين على باب الأكمة ورجلاه خارجها، زوجة صدّيق الجالسة القرفصاء عيناها على أبكر الراقد ووجهه للجذع، صدّيق بجوار العم يلقي برأسه على الجذع مغمضا عينيه، العشرات الباقين من سكان الغابة أخرسهم القلق والترقب، فالآذان مفتوحة على انتظار دوي القذائف فوقنا، يمر أزيز طائرة بقربنا، يتصاعد صوت صراخ من الغابة، تتلاحق دقات قلبي، يعتدل طه ويلم رجليه، يهب أبكر مذعورا ويلوذ

بالعم. الأعين كلها مشرعة نحو السماء التي تحجبها هامات العدريب. يتباعد الصوت فيسحب كل منا عينيه خجلا. تضحك عشة بسخرية. التفت نحوها، تقول

- سيقود ابني هذا طائرة يوما ما .

تقول وتتحسس بطنها بيديها وتنظر لطه وتكمل

- يحس بقدومها فيتراقص في بطني .

يقول طه وهو يحاول الابتسام

- ربما يتراقص فزعا .

تعجز عن جرهم لحوار فيحل الصمت ثانية، لكنني بكلماتها وبعد مجاهدة استطعت الإفلات من براثن الترقب. كان يجلب لمخيلتي أفظع النهايات، يجسمها ويضفي عليها الكثير من الوحشية، استطعت أخيرا أن أحس بكلتومة المستلقية على فخذي. **أتذكر طفلي الذي ينمو في داخلها، حرمت منه في دياري فرزقني الله به وأنا عابر سبيل، وحيث بلد الموت فيه أقرب إليّ من شرك نعلي يتحقق أملا حلمت به لسنوات، وحين بدأت أعد الساعات المتبقية لي على ظهر هذه الأرض يستجيب الله لدعائي، أتذكر دموع مريم في الليل وهي تعري رأسها وتتضرع لله أن يمنحها طفلا، لجوءها لمولاي ليدعو لها، بكاء أمي عندما تلمح نظراتها لأطفال إخوتي، هل تقبل مريم بطفلي؟ أم تراها ستتحول لنمرة تفتك براحة الجميع؟**

يقترب صفير قذيفة، نتسمعه حتى يرتطم بأشجار حواف الغابة، يعلو صراخ فيهم طه بالخروج، تندفع عشة ممسكة بقدمه، يصرخ فيها وهو ينزع قدمه

ـ ألا تريدين شجاعا؟

تقول وهي تمسك بقدمه ثانية

ـ وماذا تفعل الشجاعة إذا كانت اليدين خاويتين؟

يخيب توقعنا فلا تسقط قذائف أخرى، يعاود الصمت التمدد، لحظات ويقول العم

ـ علها قذيفة ضالة.

يقول صدِّيق وهو يجذب طه للداخل

ـ وربما مقدمة لقذائف أخرى.

لا يكاد ينتهي من جملته حتى يدوي صفير القذائف المقتربة، تتساقط فتتابع الانفجارات، تتهاوى أشجار مرتطمة بالأرض، رائحة البارود تعبق المكان، يتسلل دخانه الأسود للداخل، يسعل أبكر ويبدأ في البكاء، كلتومة لائذة بجسدي والجذع، ينظر طه من باب الأكمة، يندفع للخارج، يلج هو والعجوز البدينة مصابة في ذراعها وبالأخرى تجر المصاب الزاحف على الأرض، ترتمي بجوار العم، العجوز الملقى وسطنا يلهث ودموع تنساب من عينيه الشاخصتين للسماء، تغطي زوجة صدِّيق فخذه بردائه، تنفجر البدينة في العويل، ترتطم قذيفة بهامات العدريب، تغمرنا الأوراق والأغصان الذبيحة، ترتطم أخرى فتهوي إحدى الأشجار على الثلاث الأخريات، أستسلم للذكر مغمضا عيني، أتلو الشهادة مرات، العم بجواري يصرخ

- وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

يتزلزل الجذع من خلفي فتصرخ كلتومة، أمددها وأرتمي فوقها، أشعر باختناق يغلق حلقي فلا أستطيع التنفس إلا بالكاد، يصرخ طه بألم

ـ آه، يا أولاد الزنا.

أرفع عيني نحوه، ينادي من تحت كوم أغصان

ـ عشة، فلتسمه عثمان، مدد يا خليفة المهدي مدد.

تنطلق العجوز في ضحك كالجنون، يدوي ضحكها فيكاد يغطي على كل صوت، تتوقف والدموع تنهمر من عينيها، تنظر بعجز وهلع ولوعة نحو المصاب الغارق في دمائه. أبكر تحت العم المرتمي فوقه يصرخ، صدّيق يجلس القرفصاء على باب الأكمة وجهه مغطى بالغبار، عشة المرتكنة على الجذع ممددة الساقين تضع يديها معقودتين على بطنها المرتفع بينما عينيها المفتوحتين على اتساعهما يشع منهما غضب عارم، زوجة صدّيق غارقة في بكاء وارتجاف ينفض الأوراق عنها، بينما ركام القذائف ودويها يتساقطان فوقنا، ونيران حرائق تضطرم في أرجاء الغابة.

تمر دقائق أحسها دهرا، ينزاح القصف عن الأكمة بينما صوت الانفجارات مازال يدوي في مؤخرة الغابة، أقوم عن كلتومة فتعتدل وتلتقي أعيننا في تيه كمن بعث، يتصاعد دخان الحرائق، تحبسه الأشجار فيتكاثف أسفل الجذوع، يزيح الجميع الأغصان عن أجسادهم ويعتدلون. العم يقلب في جثة المصاب الملقاة وسطنا، يلتف الجميع حول الجسد المسجى وسط الأكمة، العجوز البدينة المشتملة بصبر ولي تنحني على الجسد تلملم عليه رداءه، تنفض التراب والأغصان عنه، تمسح

وجهه وتغمض عينيه المفتوحتين على المجهول، تتحسس بأناملها جبينه وشفتيه. تتلفت عشة في وجوهنا. تنظر للخلف وتصرخ، تقفز نحو طه الذي لم يتحرك. تزيح الأغصان عنه بهلع، يفتح عينين متقدتين يعصرهما الألم. تنظر لأسارير وجهه المتقلصة، تتفقد جسده بيديها، تصرخ وتخرج يدها من تحت ساقه مدرجة في الدماء، أندفع نحوه، أرفع ساقه عن الأرض. فخذه وسمانته متهتكان حتى العظم، أضع عمامتي مطوية فوق الجراح. أربط عمامته فوقها، أرفع ساقه باحثا عن شيء أرفعها عليه. يتراجع صدِّيق ويضع الساق على كتفه، تغرف كلتومة طبق ماء وتسقيه. يرتفع أنين العم المنحني عليه، تغمر عشة منديلها في الماء، تمسح الغبار عن وجهه، تمسح الدماء عن رجليه بحنو وحذر، ينظر لها وتطفر دمعات من عينيه، ينظر نحوي فتمسح عشة دمعات على خديه. يقول وهو يلهث

- ألم أبلغك أنها مدة كافية؟

عثمان إدريس دار

قفا- الاثنين ٣٠ مارس ١٩٧٠

على بعد كيلو مترات من قفا، ووسط تلال جرداء تشع بياضا نكمن انتظارا لليل، الليل الأخير قبل صباح سيشرق على واقع هو بالتأكيد مختلف تماما في هذا الوطن. وطن قدمت إليه طلبا لحياة فأهداني الموت، موت أنتظره منذ أيام وأظنه لن يخلف موعده في الغد، غد ظللت أعدو خلفه منذ تشردي وأيقنت اليوم أنه محض سراب، سراب استحال واقعا ولكن فقط عند خط النهاية، نهاية حلمت أن تكون هناك في قريتي، قريتي التي حملتها وحدها في داخلي بديلا عن وطن يحمله كمال، كمال الراقد بجواري غير عابئ بالشمس التي تتعامد على الأرض، الأرض البيضاء الملتهبة التي يتناثر عليها بقية الشباب، الشباب الذين يغطون وجوههم بعمائمهم مستغرقين في ذكر له طعم الجنة، الجنة التي وعدهم بها رجال لا يعلم أي منهم مصيره يوم الحساب.

فمنذ ساعة وتمهيدا للعملية الكبرى غادر الأخ محمد مصطحبا خير الله وبعض الشباب لتفجير خط السكك الحديدية الموصل لربك، محاولة يائسة لمنع الإمدادات عن جنود نميري، وكأن ما لدى نميري من عتاد لا يكفي لقتلنا، بل وقتل نصف سكان السودان لو أراد.

لم يأخذ أيا منا معه. وكما توقعت لم يجعل كمال أميرا على الباقين. فمنذ أعلن أنه لم يعد من الإخوان ووجه الأخ محمد يقطر مقتا كلما تلفت نحوه. اقترب كمال منه محاولا التحدث معه فانصرف عابثا عنه للشباب الذين يحملون صندوق الديناميت وجهاز التفجير ولفافات الأسلاك. تبعه لحظات حتى اختفى عن ناظرنا وعاد ليجلس بجواري، قال وهو يخرج مفكرة يومياته من جيبه ويضعها تحت رأسه ويتمدد

- من أجل هذا كان يتوجب علي ترك تلك الجماعة.

وأكمل وهو يغطي رأسه بعمامته

- هؤلاء لا يمكنون وطنا بداخلهم. هم تماما كزهرات ملونة قد يغرك جمالها وبريقها. لكنها تنمو على سطح مستنقع من الأفكار العطنة، لا تمتد جذورهم للأرض. ولا فروع لهم يستظل تحتها غيرهم.

قلت

- ولكن بعضهم هنا لمساعدة الإمام.

قال من خلف حجاب العمامة البيضاء التي تشع ضوء

- جذبتهم رائحة الدماء كما تجذب الوحوشَ رائحة الفرائس.

قال وغرق في ذكر لم أرد انتشاله منه، تركني وحدي أجلس تحت سماء صافية وشمس ظهيرة متسلطة وحجارة بيض بلا أدنى تعبير أو إيحاء. فقط ترجمني بأشعة الشمس التي لا أجد ما أحتمي به من هجيرها سوى ردائي أضعه فوق رأسي.

لا أملك غير أن أجتر كبعير ما اختزنته طوال حياتي، فمنذ نبت وسواس الموت في عقلي وهو ينمو ويتسلق كل ذرة من ذاتي، بات غطاء

كثيفا يحجب كل قدرة على استشراف الغد. لم يدع لدي إلا بضع كلمات أوصي بها العم والأهل، تلك الوصية التي حرمها كمال في لحظة من لحظات يأسه على أمثالنا من البشر، لكنني أمتلك الحق في أن أوصي، فلا المتاع ولا السلطة ولا الأبوة وحدهم ما يمنحنا هذا الحق، يمنحنا هذا الحق أن يكون لدينا ما نقوله تافها كان أو قيما، وأن نمتلك من يريد سماعه. وما سأقوله لهم ليس تافها، هو خلاصة هدم واقتلاع لإنسان، أحسه بداخلي يشبه تماما ذرات ذهب تتناثر وسط طين يملأ جذع أجوف اقتلعه فيضان وتخبطته أمواجه لعامين متصلين بلا رحمة ولا هوادة.

أمد يدي محاولا سحب المفكرة من تحت رأس كمال، يستيقظ ويرفع العمامة. ينظر لي بجانب وجهه قائلا

- ما بها ليس للقراءة.

أقول بدون أن أرفع يدي عنها

- لكن بها ما يصلح للكتابة.

يرفع رأسه، أتناول المفكرة. يعيد الغطاء على وجهه ويقول

- ربما يقتل كلانا فلا يصل ما تكتبه لأحد.

أخرج قلم الرصاص الأزرق من وسط المفكرة

- لا تضيع كتابة حتى لو كانت على صفحة ماء، هكذا كانوا يقولون في قريتنا.

مع انتشار خليط الغموض الذي ينثره الغروب يعود الأخ محمد مهزوما بعد عملية التفجير الفاشلة، يعود أكثر قنوطا مما رأيته في أي

وقت، يختفي بريق التفاؤل من عينيه، يبدو كعجوز يلملم ما تبقى من مشاعره استعدادا للرحيل، ينتحى جانبا مشتملا بالقراءة في المصحف ليتجنب النظرات المتسائلة التي يصبها الشباب عليه

- أي فكر يدفع رجلا كان وزيرا سابقا ليكون هنا وسط شباب لا يعرفهم وبمكان غريب عنه وفي مهمة نهايتها المحتومة هي الموت؟ أي يأس دفعه ليسلك طريقا مثل هذا؟ أي طرق مسدودة أوصلته لهنا؟

يتساءل كمال ويزيح عينه عن الأخ محمد، يتلفت نحو القوس المتبقي من الشمس الغاربة

- لست وحدي المشرد هنا ولكن كم من مشرد وسط وطنه.

أقول وأمد له المفكرة فيتساءل

- أي وطن عاجز أسلم بنيه لهذا المصير؟ لا غد حتى تتلخص شعوبنا البائسة من رحى العسكر والدينيين

يزفر ويضع المفكرة في جيبه فأرد

- تقول هذا وأنت تضحي بروحك كي يتمكن رجل دين من الهرب بروحه.

- تعلم أنني هنا كي ينجو المئات من أهل الجزيرة بأرواحهم، ما أعجز عن فهمه هو سبب وجودك أنت هنا ولا أريد أن تموت أو أموت دون أن أعلم.

آخذ بيده ليقوم، نخطو حتى نفارق الشباب، يرمقنا الأخ محمد من فوق مصحفه بلا اكتراث، أعلق يدي بذراعه.

- هل ستصدق أنني لا أعلم؟، في البداية كنت أخدع نفسي بوهم الدفاع عن الدين، لكن منذ وطأت قدماي الجزيرة وأنا أعلم تماما أنه لا دين

في هذه الحرب ولا وطن. أنت وربما هناك من لا أدري عنهم مشغولون بالوطن، والأخ محمد والكثير من المخدوعين مشغولون بالدين، ولكن من يحركون هذه الحرب ويطعمون نارها لا دين ولا وطن يهمهم.

- الأخ محمد هنا تنفيذا لأمر الجماعة. والجماعة ترضعنا منذ الصغر أنها هي الدين وأنها الطريق المستقيم الوحيد الذي يوصل للجنة. ولكنك لم تجب بعد.

ينزع يده وينظر في عيني. أتطلع لوجهه النحيل الطيب ولعينيه الجاحظة التي يحتل بياضها حمرة وأجيب

- صدقني لا أدري، لكن المؤكد أن الحياة لم تعد تهمني. ربما يكون نوعا مستترا من الانتحار. فمازال بداخلي إيمان يمنعني من قتل نفسي، وربما يكون حقدا على كل ما هو عسكري. زرعه داخلي جنود أوجوكوو هناك في قريتي. لكن المؤكد أن ما يحدث الآن ليس سوى دفن لهذا الجسد. فلقد مت يوم وافقت على تطليقها. وربما مت يوم قتلت الضابط، نزعت روحي مع روحه. رافقتها للجنة أو للجحيم، أو مت يوم قتل أهلي أمام ناظري.

يسأل وهو يواري وجهه عني

- كيف استطعت أن تقف جامدا وأهلك يقتلون؟

أتطلع خلفي لأطمئن أننا ابتعدنا عن الشباب بما يكفي

- منعني العم من النزول لهم.

يمسك بيدي ليجنبني صخرة مستديرة كالبيضة

- ولماذا لم تنضم لجيش الحكومة لتأخذ بثأرك؟

أجلس على الصخرة التي لسعتني حرارة اختزنتها طوال النهار الغارب

- منعني العم، قال لن نَقتل ولن نُقتل.

يجلس بجواري زافرا بحسرة

- لكن هذا لم يمنعك من القتل.

- قتلت لحظة فقدت الثقة فيه وفي كل شيء.

أقول وأنا أتطلع لشجرة وحيدة تقف في نهاية وادٍ أجرد تنحدر عنه الصخور، فيقول

- فقدت الثقة في الله.

أمد يدي في جيبي وأستخرج كل ما به

- دع الله في ملكوته.

ينزل عينيه عني للأغراض التي وضعتها أمامي على الأرض، يتفحصها بعينيه ويقول

- ساعات ونصعد له.

أمد يدي للحزام أسفل ردائي واستخرج مسدس الضابط وأضعه فوق الأغراض

- هو أرحم بنا حتى من أنفسنا.

أتناول محفظة الضابط السوداء وأفتحها للمرة الأولى، يتصاعد الهواء المخزون مشبعا برائحة الجلد المدبوغ لأنفي، أخرج صورة شمسية

ملتصقة بالجلد، ينزع الجلد جزء من صدر الضابط الذي يقف بقوام ممشوق بجوار عروس برداء أبيض تشبه كلتومة كثيرا، وجهه مفعم بالأمل والطيبة بينما وجه العروس الجميل وجل، أسأل كمال الذي ينظر للصورة من فوق كتفي

- كيف تحول هذا الوجه الملائكي الطيب لذلك الإنسان القميء الذي قتلته هناك في الوادي؟

- بدله من بدل رجلا حالما يحفظ القرآن لرجل قاتل، شعوب موهوبة في الهدم.

أتغاضى عن حزنه لرؤية وجه الضابط، أمزق الصورة ببطء، ألقيها خلف ظهري، أقول بلا اكتراث

- حين قتلته لم يكن سوى شرطي فاسد.

في جيب داخلي ورقة رمادية بعشرة جنيهات، يقفز طه لخاطري، بقيت المحفظة معه طويلا، لم يأخذ منها شيئا، بأمثال طه يرزقنا الله، عدا ذلك ليس بالمحفظة شيء، أتناول الساعة وأرفع غطاءها فتلمع الميناء البيضاء التي يتوقف فوقها العقارب الذهبية الثلاث، أضعها بجواري على الصخرة، أتناول حجرا وأهشمها وسط ذهول كمال، أتناول أوراق النقود وأمزقها الواحدة تلو الأخرى، تتبقى ورقة فئة خمسة جنيهات من كومة النقود، أناولها لكمال

- هذه هدية لك، هي نتاج كدي لشهور في فلاحة الأرض.

يبعد يدي ويقول

- لا أحتاج مالا.

أضعها في جيبه

- هي حلال، وخير لي أن تأخذها أنت من أن يأخذها الجندي الذي سيقتلني، لو لم تردها أعطها للعم مع الوصية.

يصمت وعينه على المحفظة الجلدية والمسدس، أدس المسدس في حزامي وألقي بالمحفظة بعيدا

- فلتسدِ لي معروفا آخر، قبل لي همزة وأبكر، شم رائحة الوطن نيابة عني

- لن أنساك ما حييت.

يقول بحب حقيقي، أقوم آخذا بيده ليقف

- وأنا لن أحيا لكي أنساك أو أتذكرك.

يعلق يدي بذراعه ويستدير لنعود

- هل يمكنني قراءة وصيتك؟

أمسك بيده وأدفعه للأمام بعيدا عن الشباب

- فقط بعدما أرحل.

بعد خطوات من الصمت يقول بحماس

- هل تدري ما أتمناه الآن؟

- أن نرحل عن هنا.

أجيب بهدوء

- بل أتمنى أن تودعني وترحل لوطنك.

نصل للشجرة في نهاية الوادي فيحاول التوقف فأدفعه لتجاوزها وأقول

ـ وما قيمة الوطن بدونها وبدون الأهل .

يتلفت برأسه للخلف حيث موقع الشباب الذي غاب عن ناظرينا

ـ يمكنك الرحيل لمكة .

نعتلي التل الذي يحد الوادي

ـ الطريق الأسرع إلى الله يمر عبر ربك .

ينظر للسماء التي تفشى فيها الغروب

ـ أي قنوط حل بك؟

على قمة التل أقول

ـ قنوط عشب لا يجد أرضا يلامسها لينبت .

ننزل عن التل

ـ أرض الله واسعة أنت من يضيقها على نفسه .

ينفتح أمامنا واد آخر يتناثر به القليل من العشب

ـ أرضي هناك في أحضان الولي .

يتوقف وينظر لي

ـ ستقتل نفسك من أجلها .

ـ قلت لك إنني قُتلت منذ زمن بعيد، وأن ما أمامك مجرد جسد ينتظر الثرى .

يهم بالرجوع ويقول

ـ لا جدوى من الحديث معك .

أوقفه

ـ لا جدوى من حياتي ذاتها، لكن حياتك أنت ثمينة فلترحل من هنا .

يتلفت حوله

- لن أرحل.

أقول بغضب بعدما أدفعه في صدره

- غدا سترحل بدوني شئت أم أبيت، ومعك ما ينبغي أن توصله للعم.

يقول بفزع وهو يرى الغضب في عيني

- لماذا جئت بي لهنا؟ لن أرحل، أنا فقط أحمل وصيتك ربما أحيا وتموت، لن أطلب القتال وأهرب كالجبناء منه.

أدفعه في صدره ثانية، أصرخ في وجهه

- أيها التعيس، لا قضية لك هنا، وطنك يحتاج لك، لن تتوقف الحرب بين العسكر والدينيين إلا لو تعلق الناس بأمثالك، عد لتلاميذك، علمهم كيف يكون الوطن أغلى من كل شيء وكل أحد، علمهم ألا يعطوا عقولهم لمن يخربها، أن يجاهدوا بأيدٍ خاوية وقلوب ممتلئة بعشقهم لوطنهم

تمتلئ عيناه بالدموع، يرجوني.

- لو هربت من هنا كيف أنظر في عيون الناس؟ بل كيف أنظر لوجهي في مرآة تعكس عشرات القتلى؟ كيف ألتقي يوما بأحد الأخوة الذين سأتركهم كأرنب مذعور وأفر، هل يرضيك أن أخسر نفسي؟

- بل أنقذت المئات من المعدمين، أولئك الذين لم يحملوا سلاحا ولم تتدنس أرواحهم بدماء، عد من أجل هؤلاء وأمثالهم، عد من أجل عشب هذا الوطن.

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا – الاثنين ٣٠ مارس ١٩٧٠

رغم لهاثه وامتقاع وجهه فمازال أنينه يتردد، فسماعنا للصوت لا يعتمد على قوته فحسب، ولكن يعتمد على رغبتنا الصادقة في سماعة، فرغم خفوت صوت الأنين إلا أنه يعلو داخلنا على كل صوت، حتى العم حسن الذي ثار كالثور الهائج لرؤيته طه مصابا يجلس صامتا مستندا على العنقريب الذي يرقد عليه طه في الحوش، وكأنه يدير الأنين بداخله فينبش ذكرياته مع طه وأبيه وأجداده، تنصب الآهات الواهنة داخلنا ممزوجة بضحكاته التي كانت، بأذانه الذي طالما أبهجنا، بتسليمه المطلق الذي علمنا كيف يتعبد به لله.

لمبة الجاز المضاءة بما تبقى من كيروسين تزفر ضوءها الأصفر فيغطي جذوع الأشجار الثلاث بخليط من الضوء والظل المتدرج نحو الغموض، يتمدد علي الأرض فيجلي سمرتها الطينية المزعجة، عشة على مؤخرة العنقريب تحمل على فخذيها ساق طه، تمسك قماشة تبللها من دلو ماء بجوارها، تمسح قطرات الدم التي تتساقط برتابة من الجرح المغطى، ملامحها خليط من اليأس والرجاء والغضب، تزفر بين الحين والآخر

وكأنها تطرد هواجسا تضطرم بداخلها، تتسع حدقتا عينيها وتضيق في صراع بين رؤية ما بداخلها وما تتمنى حدوثه، زوجة صدِّيق تجلس ساكنة على عتبة غرفتها، لا تحول عينيها عن صدِّيق الذي نضب مخزون الدمع في داخله فألقى برأسه على جذع النيم وعيناه المبللة على طه، العم وأبكر على فتحة الممر متلاصقين، نفس التعبير المرتسم على الملامح، تعبير الفزع والفقد وانتظار المجهول.

بجواري كلتومة التي تنتفض ثم تسكن، مستندين على جدار غرفة العم حسن متلاصقي الجانبين، أنظر نحو السماء المبرقشة بالنجوم اللامعة، **هل يكون تعد في الدعاء لو طلبت منك أن ينجو هذا الرجل الصالح؟ تقربا لك تقبل مستسلما كل ما لاقاه من آلام في حياته فلا تجعل موته ألما في قلوبنا، عشة لم يعد لها سواه، هو الجذع الذي تستظل أسفله، لا تقطع ظلها من هذه الأرض، سبحانك أنت أرحم بنا من أمهاتنا فارحم هذا المسكين واعف عنه واشفه.**

يفتح باب غرفة العم حسن، تطل رأس العمة ببطء، تستند بيدها على قائم الباب وتمد قدمها متجاوزة العتبة، العمة ستمارس طقوس عبادتها الوحيدة العالقة بذاتها، تخرج فتستند على الحائط فنقوم لها لتمر، تتكئ على الحائط وتنظر لأقدامنا لوهلة ثم تواصل السير، تقوم زوجة صدِّيق عن عتبتها، تتناول يدها عن الحائط وتتجاوز بها الباب المفتوح على ظلام هارب للداخل، تضع يدها على الحائط ثانية، العم حسن يتابعها بعينين زائغتين، تتوقف عند حائط غرفة صدِّيق، ذلك الحائط الذي يرتسم أساسه ببقع طينية كسدادات لطاقات مستديرة بلون بين

الأسود والرمادي تتمايز عن طلاء الحائط الكالح المتهالك، تحاول جهدها أن تنتصب معتدلة، تأبى فقرات ظهرها المتيبسة أن تطيعها، تمرر يدها على البقع قدر ما تستطيع ثم تنزع بيدها المتربة الشال عن رأسها فتعريه، ترفع رأسها بعناء للسماء، وبيد وحيدة مرفوعة وشفاه مزركشة بوشم أزرق تتمتم بكلمات غير مفهومة، تنساب دموعها ثم تستدير للحائط وتكرر فعلتها مع بقعة أخرى، مع وصولها لخط نهاية الحائط يقوم العم حسن متجها نحوها، يرفع شالها عن الأرض فيتنفس الظلام من تحته، يغطي رأسها ويمسح الدمعات الباقية على خديها، يمسك يدها بحنو ويذهب بها نحو غرفتها، ألمح زوجة صدِّيق وفي وجهها قنوط تدلف لداخل غرفتها، كل تلك البقع قبور لأجنة لم تكتمل كانت تتحرك يوما في رحمها، ينكسر الحلم بتصاعد الألم قبل انتهاء شهور الحمل، ساعات وتجهض، ثم تحفر حفرة جديدة بالحائط.

- أما من طريق للوصول لمستشفى؟

أسأل صدِّيق وأكمل

- لن يتحمل كثيرا.

- الذهاب للمستشفى يعني إلقاء القبض علينا وعليه، يعني موته في حجرة الحراسة، وذهاب جسده إلى حيث لا ندري.

يقول وينسحب بانهزامه للظلام خلف جذع النيم

- هل تعلم طريقا لمستشفى؟

أعيد سؤالي فيجيب العم حسن من جوار العنقريب

- بالتأكيد يعلم، ولكن من سيسمح له بالذهاب معكم.

أخطو نحوه، أنحني على طه الذي يومئ بعينيه موافقا، أنظر لعشة فيتهلل وجهها، أقول للعم حسن

- لا مانع لدى طه أو عشة.

ينظر نحوي بيأس ويقول

- لا أتحدث عن طه، عن هذا الأبتر أتحدث، من سيرعى تلك العجوز لو رحل ومت أنا خلفه؟ من سيكفنها ويسجيها اللحد؟ وأيضا تلك التي تحمل جنين طه لن تغادر معكم، فبأحشائها البذرة الأخيرة لتلك العائلة.

- في نفسك وولدك وبيتك تحكم، أما أنا فلا شأن لك بي.

تجيب عشة بغضب وتقوم واقفة بجوار العنقريب

يغادر صدِّيق المنزل غاضبا، يقول قبل أن يخرج

- ساعة على الأكثر وأعود.

يتضاءل حجم الزورق الخشبي الصغير المتهالك كلما تطلعت للسماء فوقي وللمياه المنحدرة نحو الشمال في صخب من حولي، على الفرع الغربي للنيل نبحر تجاه كوستي، يتمدد طه في قاع الزورق متوسدا كومة شباك وساقه على فخذ عشة التي تستند على مؤخرة الزورق، وهبنا الصياد الزورق رافضا أن يخاطر معنا بحياته، أنا وصدِّيق على الجانبين نجدف في الاتجاه المعاكس للتيار، أنوار المدينة تبدو أقرب كثيرا مما هي عليه فتقصر المسافة، ومازال طه يئن، وعشة على صمتها الذي تقبض به على الأمل الذي برق بداخلها.

تركنا العم حسن هائجا في المنزل، نزع صدِّيق يديه القابضة على ذراعه بقسوة، غادرنا والدموع متحجرة في عيني كليهما، خلفت كلتومة في المنزل، تركتها والجنين الذي كان سببا في هذه الرحلة وحدهما، لم أترك دياري لطلب المعونة من الله والأهل فحسب، تركتها لدعاء أردت أن أدعوه في محراب الله بأن يهبني وريثا، لكنني كنت أدعو لمريم معي، ربما يلين الله قلبها وتعتبره ابنا لها أيضا، لكن منذ أصيب طه وهناك تغير ما طرأ على كلتومة، شيء ما جعلها شاردة حزينة معظم الوقت، دائمة التفكير في أشياء تبدل الحزن والسعادة والألم والخوف على صفحة وجهها كسحب عابرة بين البيضاء الشفافة والرمادية القاتمة.

- هل تبقى الكثير؟

تسأل عشة فيجيب صدِّيق

- عشرة أميال على الأكثر.

عشرة أميال للوصول لكوستي التي لا أعلم هل سأعود منها أم لا، وأكثر من ألف ميل لبيت الله، لكن طه يستحق أن أضحي من أجله بحياتي، هو معدن من البشر أصبح من النادر وجوده، خليط من الإيمان لم يعد لتركيبته الفريدة وجود، بل إنه ليس طه فحسب، كل من التقيته في رحلتي هذه به نوع من التفرد، كلهم ألقى بداخلي شعاعا جديدا من الحقيقة التي كنت أتخيل أنني أمتلكها بلا نقصان، ولكنني كلما توغلت في رحلتي هذه تنكشف أمامي وجوها عديدة للحقيقة، بل تنكشف حقائق متعددة ما ظننت أبدا أنها موجودة، وما زلت أجدف طلبا للوصول للشاطئ الذي أرى من فوقه كل شيء ثابت يسفر عن وجهه الحقيقي.

هل حقا أحتاج إلى الذهاب لبيت الله؟ أم كما قال العم يمكنني الطواف حوله؟ هل نحتاج للطواف حول آلام البشر أكثر مما نحتاج للطواف حول البيت؟ هل كان صحيحا أن أتجه لله من أجل شيء آخر غير عبادته؟ هل كان طه محقا عندما اتهمني بفساد نية رحلتي؟ ما هذه الظلمات التي تشع سوادا بداخلي؟ أين أنت يا مولاي؟ أم أنني فطمت حتى عنك؟ هل كنت تريد فطامي بتلك الرحلة؟ أأردت خليفة من بعدك يتحمل آلام تساؤلات القوم؟ ألم تجد سواي؟ روحي مازالت عالقة بالسوى، أنظر في عيون البشر فلا أرى إلا آلامهم، ما زلت عاجزا عن رؤية أمواج الرحمة خلف تدافعهم، لا أرى سوى ظهر أكفهم الملوحة بسواد الحاجة، أعجز عن رؤية بطون أكفهم التي يتلقى بياضها رحمات الله، هل أعود ومعي ربي أتطلع نحوه حيث أولي وجهي؟

- عبد الله، طه يريدك.

تقول عشة بفزع، أترك المجداف فيميل صدِّيق ويلتقطه قبل أن يسقط، أنحني على طه الذي يلوك الكلمات في فمه قبل أن ينطقها بصعوبة.

- عد بي.

- ساعة ونصل المستشفى، يمكنهم عمل الكثير من أجلك.

أقول وأنا أتطلع لعينيه اللتين تبرقان رجاء، يهمس بصعوبة

- لا فائدة.

- ثق بي، ستعود لواديك وحياتك، ستربي أبناءك، ستورثهم إيمانا يتباهون به حتى على الملائكة

تدمع عيناي فأصمت. يضطرب الزورق متراجعا، يمسح صديِّق المطل من فوق رأسي دموعه. يعاود التجديف بقوة مندفعا بالقارب للأمام.

وسط عدة زوارق قديمة متهالكة تضجع على طين الشاطئ أرقد زورقنا، الفضاء المنبطح أسفل الظلام الكثيف يسفر عن القليل من معالم الأشياء، تنغرس أضواء المدينة البعيدة في الظلام فتنفذ متكسرة، صديِّق الواقف يراوح بين قدميه ينتظرني وطه بين يديه كطفل، عشة تميل بجسدها للأمام تأهبا للانطلاق. أسعى بحذر وأتقدمهم على مدق نحيل، خطوات ويلتقينا خط السكك الحديدية الملتوي في اتجاه الجنوب، أتجاوز العوارض الخشبية المغروس بأطرافها مسامير حديدية ضخمة ويجثم على ظهرها شريط القطار البرونزي اللامع. نحن تماما كهذه الاخشاب المسكينة، نحمل على ظهورنا طرق العبور للمجد التي يرتجيه كل حالم، مقيدون بحاجاتنا اليومية التي لا تختلف كثيرا عن تلك المسامير الضخمة التي تقيدها.

نصف ساعة من المشي كالمهرولين ونمسي على بعد خطوات من مبنى المستشفى الحجري ذي الطابق اليتيم، جل الإضاءة حبيسة داخل المبنى، القليل ينز من لمبتين معلقتين أعلى سطحها وأخرى أمام الباب الخشبي المفتوح على مصراعيه، لا أحد في الساحة الخاوية حتى من الأشجار، يغمرنا شعور بالاطمئنان، نهرول للداخل حتى إذا صعدنا العتبات ينقض علينا ثلاثة جنود ويحيطون بنا. يدفعوننا للداخل ومؤخرة بنادقهم تلكزنا بقسوة.

أمام ضابط صغير السن قوي الجسد نقف، ضوء اللمبة الكهربائية المتدلية من السقف يقزم ظلالنا، قطرات من دم طه تتساقط متلاحقة فترتطم ببلاط الأرضية اللامع فتصارع الصمت، رائحة دخان سيجارة الضابط الكريهة تعبق الحجرة، صورة لرجل متجهم موفور الصحة بملابس عسكرية معلقة على الحائط خلف الضابط، ينظر الضابط الذي وقف بمجرد دخولنا بعينين ملؤهما الحقد نحو طه، يجأر بالسؤال

- من أين قدمتم؟

نصمت فيصرخ

- أيها الرجعيون، لماذا لم تذهبوا به لإمامكم فيدعو له كي يشفى؟
- لسنا من أنصار الإمام.

تقول عشة بصوت خفيض متلعثم

- لا أحد بالجزيرة أبا إلا أنصار الإمام.

يدفع الكرسي فيرتطم بالأرض، يتقدم نحو طه الغائب عن الوعي ويلكزه بجنبه ويسأل

- كم جنديا قتلت أيها اللعين قبل أن تصاب؟ لا مكان هنا إلا للجنود المساكين الذين تتفننون في إصابتهم وقتلهم بدم بارد، أما أنتم فمكانكم السجن ثم حبل المشنقة.

أقول بعد أن نطقت بالشهادتين

- أيها الضابط، حتى الأسرى في شرع الله يعالجون ويعاملون بالحسنى.

يستدير نحوي بثورة عارمة، يضربني بكلتا يديه على كتفي بعنف، يمسك بطوق جلبابي ويدفعني فيلجئني للحائط.

- من هذا الحلبي الذي يتحدث نيابة عن الرجعيين؟ من أي البلاد قدمت لتحاربنا، ما رتبتك في جيش بلادك؟

يشدد من قبضته على رقبتي، يندفع الجنود ويبدأون في صفع صدِّيق وعشة، يدفعني الضابط فأترنح على مكتبه، يشتعل وجهه غضبا، يتقدم فيركل صدِّيق بقدمه فيبرك على ركبتيه وطه يهتز بين يديه، عشة منزرعة وسط الحجرة تتحمل اللطمات ولا تهتز، يعود الضابط لي، يصفعني فأمسك يده فتلتقي أعيننا، يركلني ويدفعني بعيدا

- لن أسلمكم للحراسة، سأقتلكم هنا يا أبناء الزانية.

يقول ويندفع لمكتبه ويخرج مسدسا من جراب موضوع فوقه

- أيها الضابط هؤلاء لا علاقة لهم بالإمام.

من فتحة الباب خلفي ينطق صوت أحسب أني أعرفه، يلتفت الضابط نحوه، يدخل الطبيب الهارب، يتقدم بثقة مرتديا بالطو أبيض نحو طه الغائب عن الوعي ويبدأ في فحص ساقه غير آبه بي أو بالضابط، يكمل دون أن ينظر للضابط الذي يتجمد المسدس بيده

- هؤلاء مساعدين لي بمستشفى أبا، لجأوا للغابة منذ بدأت الحرب، كادوا يقتلون تحت مبنى المستشفى المتهدم.

ينظر للضابط للحظات ثم يستدير خارجا، يتجاوز الجنود على الباب ويكمل

- لقد حضرتم في الوقت المناسب، فنحن في حاجة لمعونتكم، اتبعوني جميعا.

نمشي خلف الطبيب في رواق تنفتح على جانبيه أفواه عملاقة مظلمة لحجر عديدة، تزكمنا رائحة المطهرات التي تحتل وحدها المكان الصامت، ينحرف الطبيب يسارا ثم يتوقف أمام باب مغلق، أقرأ الخط الركيك الذي يعلن في تلعثم أنها غرفة العمليات، يدلف الطبيب وينير الغرفة فندخل، يسجي صديق طه على منضدة خشبية وحيدة وسط الغرفة، الطلاء متساقط عن الجدران كأنه نافر من الرائحة القابضة، نافذة متهالكة تحاول جهدها ستر الفضاء بالخارج، يزيل الطبيب العمامتين عن الجراح، يرفع كتل اللحم المنفصلة عن العظام المتكسرة، يعيد ردها في يأس، يمسح الدماء عن يده في البقعة الوحيدة البيضاء في العمامة.

- الجراح غائرة، العظام مفتتة، والأوردة متهتكة، ولا نملك علما أو تجهيزات لنقدم له شيئا، من الأفضل أن تبتر هذه الساق.

يقول الطبيب ويشد ملاءة على نصف طه الأسفل المشوه العاري، يصوب وجهه نحوي بعينين واثقتين بلا فزع ولا اكتراث، يصمت ثم ينظر لعشة على الناحية الأخرى من المنضدة ويكمل

- حتى عملية البتر غير مضمونة العواقب، الرجل ضعيف وفقد الكثير من الدماء، أخشى لو أعطيته المخدر ألا يفيق ثانية، هذا إن أفاق من غيبوبته تلك.

- لم تترك لنا خيارا سوى أن نحمله ونرحل.

من جوار عشة يقول صدِّيق الذي رسمت دماء طه على جلبابه أشكالا بدت لي كرؤوس الشياطين، لا يرد الطبيب منشغلا بتعبئة حقنته التي ما لبث أن حقن طه بها، يستدير والحقنة مازالت في يده ويقول

ـ شخصت الحالة فحسب، ولن أدعكم تذهبون للقتل حتى لو مات صديقكم، فالبعض يلقي بنفسه للموت متوهما أنها الشجاعة.

يضع الحقنة ويتناول زجاجة محلول ويعلقها على حامل حديدي بجوار المنضدة الملقى طه عليها، يوصل أنبوب بلاستيكي بالزجاجة ويغرس الإبرة بطرفة في ذراع طه، يستدير ويكمل

ـ استريحوا سأحضر لكم بعضا من طعام.

يغادر الغرفة فينعكس ضوء إنارة الممر من معطفه الأبيض على حجرة العمليات شاحبة الضوء.

نغادر المستشفى والليل لم ينتصف بعد، أحمل بيدي صرة طعام منحها الطبيب لنا، يحمل صدِّيق طه الغائب عن الوعي، بينما تكتفي عشة بحمل جنينها والحزن الذي يجثم داخلها فيبطئ خطوها، من نافذة حجرته يرمقنا الضابط وهو يفتل شاربه، الطبيب على الباب يحمل حزنا عميقا وأسفا جعلاه يعقد يديه على صدره في يأس، نغادرهم ملتحفين بضوء المستشفى، نباح كلب أشبه بالصراخ ينطلق من المدى، نسير وسط الدروب الصامتة التي تنفث رطوبة خانقة تفضي بنا لطرف المدينة، تسيطر أصوات حشرات الليل على الفضاء الغارق في الظلمة، قطرات ندى تبلل أطراف العشب وأرجلنا، أرفع رأسي العاري للسماء،

تزعجني النجوم اللامعة غير الآبهة، أحط عيني على النيل الذي يلوك ضوء النجوم، ينبح الكلب ويقدم سريعا من سط العشب، يقترب فيقف على بعد خطوات منا يهز ذيله، يقدم مطأطئ الرأس ويتمحك في ساقي عشة، تنظر عشة نحوه وتنخرط في النحيب، تبرك محتضنة رأس الكلب الأبيض المرقط بسواد لامع، تشد جلباب صدِّيق فتجلسه بجوارها، تطلق الكلب فيتشمم وجه طه ويلعق خديه، يدفن أنفه في صدر طه، تربت عشة على ظهر الكلب، تقول

- أين رفيقك؟ فقدته أنت الآخر أيها المسكين؟ أي رحلة مشؤومة فرقت وستفرق شمل الجميع؟

يحاول صدِّيق الوقوف، يمنعه الكلب القابض على طرف رداء طه، أنحني وأربت على رقبته، يفلت طرف الرداء فيقف صدِّيق ونتجاوز شريط السكك الحديدية.

في القارب يئن طه ونحن نوسد رأسه كومة الشباك، تناديه عشة بحنو فلا يرد، ينبح الكلب الجالس على مؤخرته بجوار عشة نباحا خافتا ويصمت، نجدف منحدرين مع الماء المتدفق نحو الشمال، الجزيرة كتلة صماء من الظلام، أستدير ملتفتا نحو ضوء كوستي المتباعد، يأبى الطبيب الانصراف عن مخيلتي منذ فارقناه، **هزني بعنف واتهمني بالجنون عندما وجدني مصرا على العودة، قال إن الصباح يحمل معه الموت لكل من بالجزيرة إذا لم يستسلم الإمام، كان الصدق يتدفق من وجهه وعينيه المختنقتين بالغضب، على باب غرفة العمليات رجاني أن أترك له الفرصة ليرد جميلي، قال إنني أعدت بعثه، أبلغته أنه فعل أكثر مما يتوجب عليه**

فعله، وهل يمكن لإنسان أن يفعل لآخر أكثر من أن ينقذ حياته؟ نفقد الأمل والرجاء في الكثير من البشر والأشياء ثم تمضي الأيام فنكتشف مدى حاجتنا لهم، يثبت لنا الله على الدوام أن ما نراه عبثا وعبئا قد يكون هو طوق النجاة لنا، هذا الولي الذي ينازع الموت أسفل قدمي مثال آخر ضربه الله لي، تعلمت على يدي هذا المسكين أن الإيمان ليس ركوعا وسجودا وذكرا فحسب، تعلمت أن الإيمان أكبر كثيرا من كل ذلك، ما أحوجنا جميعا لصيحة من صيحاته تزيل بعضا من الهم الجاثم فوق قلوبنا، فمثيرو البهجة في تلك الدنيا رسل من الله للفرح، رسل يعادل بهم كم الحزن المبثوث في ثنايا تلك الحياة، وها هو رسول البهجة في تلك الرحلة يصل لمحطته الأخيرة، تنحني عشة وتغرف بيدها غرفة من النيل وتبلل شفاه طه، تمسح بالبقية وجهه، تهمس

- أفق للحظات أتأمل فيها عينيك قبل أن ترحل، إياك أن تغادر دون أن تودعني، فارقني كل من أمتلكهم دون أن تتلاقى أعيننا، لا تكرر المأساة مرة أخرى، كنت دوما أرفق من التقيته، كنت أرفق بي حتى من أبوي، لا أظنك تفعلها، بل سأكون آخر ما تقع عليه عيناك في هذه الحياة، ستدعني أغترف زادا يكفيني لبقية المشوار، فلن أعرف الرجال بعدك.

عثمان إدريس دار

ربك – الاثنين ٣٠ مارس ١٩٧٠

وحدي وسط الشباب نسير، متسربلين بالظلام والصحراء الخاوية نسير. ربك حيث محطتي الأخيرة نسير.

لم يتبق سوى ساعة من المشي ونصف. غادر الإمام الجزيرة أو على وشك المغادرة، فالموعد المحدد خروجه هو الساعات الأولى من فجر الثلاثاء، والمعمعة في ربك للتغطية على هروبه.

الشباب الماضون يخبون الطريق لا يدرون أنها العملية الأخيرة، لا يدرون أنهم مجرد غبار يلقى في وجه قوات نميري ليعجزوا عن رؤية الإمام الهارب. كدت أضحك عندما استخدم اللواء أحمد عبد الله كلمة هجرة بدلا عن كلمة هروب أو فرار. هجرة! وقد انتهت الهجرة يوم الفتح، هنا لا تأخذ الأشياء أسماءها الطبيعية، تستعير قناعا مبهرجا كتلك الأقنعة التي تحول السحرة في غاباتنا لرسل، فالهروب هجرة، والصراع على الحكم جهاد، والقتل استشهاد، والخيانة ولاية، والدفاع عن النفس والعرض والمال قتل وجريمة، لاشيء هنا حقيقي.

لكن هؤلاء الشباب الذين ينضحون مع عرقهم حماسا سيحاسبون على نياتهم، الله يحاسب على النوايا لا على الأعمال، هم يساقون إلى الذبح مخدرون بنواياهم الطيبة، خير لهم أن يكملوا الطريق على حالهم هذه، فسيموتون على كل حال، لكن موتهم وهم يتوقعون أن أقدامهم تلامس الجنة، وأنوفهم تشم رائحتها، خير لهم من الموت عجائز وهم بين اليأس والرجاء.

لم يكن يهمني سوى الحمل الوديع. لو لم أفعل شيئا في حياتي سوى إنقاذه من كل هذا لكفاني. ذلك المسكين الذي يمكنه التفكير لأمة لكن حظه العاثر أنبته وسط أمة مراق في طرقاتها التعصب، لا أحد فيها يرى خارج ذاته شيئا.

كان مصرا على عدم الرحيل متشبثا بالموت كمن يتشبث بالحياة، لم يكن أمامي إلا أن أدفعه للذهاب دفعا. المسدس المصوب نحو صدره وبريق الغضب في عيني جعله يصدق أنني سأقتله وأقتل نفسي لو لم يرحل، كنت جادا في تهديدي، لكنني لم أكن لأقتله، كنت سأصيبه إصابة تقعده عن الحركة فحسب، غادر مكسورا يتحجر الدمع في عينيه، لكن عندما ستشرق عليه الشمس وهو مازال حيا فسيحمد لي ما فعلته.

ومازلنا نحث الخطى نحو ربك، صندوق قذائف الـ أر بي جي الأخير على كتفي والسلاح على الكتف الآخر، يبدو الظلام كغطاء كثيف تنشره السماء فيزيد الجو اختناقا، يسيل العرق على وجهي ويتسرب لعيني، أضع حملي على الأرض وأتوقف، أتنفس براحة وأمسح العرق وأنا أتلفت للشباب الذين تجاوزوني

ـ أين صديقك؟

يقول الأخ محمد الذي يلحق بي هو وخير الله ـ لم يسألني أي منهما عندما رآياني أعود وحيدا، اكتفيا بالتطلع لوجهي المبتسمـ

ـ هاجر.

أجيب وأنا أحمل الصندوق والسلاح ثانية، يحث الخطى دون أن يلتفت

ـ تقصد هرب.

أضحك، فيتوقف ويستدير لي غاضبا

ـ لم يؤذن لأحد بالهجرة سوى الإمام ومن يحتاجهم في طريق هجرته.

ـ لم يهرب لإثيوبيا.

ينظر لي مستفهما

ـ هاجر للسودان.

يتبسم ساخرا

ـ أي سودان؟

أقف أمامه

ـ سودان آخر لا تعرفه أنت.

يضحك

ـ إذن فقد لاذ ببيته كالجبناء.

ـ كم تضم البيوت من أحرار شجعان لا يجدون معركة عادلة لخوضها.

أقول وأتجاوزه فيسأل من خلفي

ـ وما يدفعك لخوض معركة غير عادلة؟

أتمهل ليلحقا بي

ـ هي عادلة تماما بالنسبة لي ولك.

يلهث خير الله بجواري

ـ عجزت عن فهمك أنت وصاحبك.

أمد له السلاح ليحمله عني

ـ العجز الحقيقي ستعرفه عند الصباح.

يحمل السلاح وهو ينظر في وجهي مستفهما، ثم يمد بصره نحو الأفق المعتم ويصمت، يمشى الأخ محمد عن يميني صامتا لدقائق ثم يقول وكأنه يحدث نفسه

ـ عند الصباح سيرون وحوشا كاسرة تهاجمهم.

لا أرد عليه، ولو كنت قائلا لسألته عما سنرى نحن، وهل مازال يصدق نفسه؟ عجيب أمر هذا الرجل، لا يعتريه القنوط إلا لينجلي عن حماس لا يفتر، أي مرجل متقد في قلبه؟ لكنه للأسف لا يملك القدرة على التفكير بعيدا عن جماعته، هو الآخر مخدر، رغم عمله كوزير فإن بداخله إنسانا مسلوب القدرة على التفكير المستقل، شخص ما أشعل حماسا لا يُطفأ بداخله، حماسا شوش على كل ملكات تفكيره، تركه صريعا بين حلم الاستشهاد أو حلم الحياة في مدينة فاضلة لم ولن تتحقق في هذه الأرض أو غيرها.

على مشارف ربك يستقبلنا مع الظلام المتكاثف فوقها لفيف من الأنصار مشتملين سيوفهم، لم يضع الأخ محمد وقتا، قسمنا بعصبية وعشوائية لمجموعتين، المجموعة الأصغر تحت إمرة خير الله لمهمة لا أعلمها، والكبرى تحت إمرته لمهاجمة المحلج، تمر دقائق وهو يشرح خطة الهجوم لم أعره خلالها انتباها، أعلم المطلوب مني جيدا.

دقائق من الوداع والوصايا المتبادلة بين الشباب وتفترق المجموعتان، ألمح وأنا أسير خير الله ينظر لي، أتوقف فيترك رفاقه ويعدو نحوي، يحتضنني ثم يطلقني وينظر في وجهي بعينين دامعتين ثم يحتضنني ثانية ويتركني ويهرول، نمشي للحظات على مدقين متوازيين وسط العشب، كان نصف القمر قد توسط السماء في رحلته نحو الغرب، ساعتين أو أقل ويؤذن للفجر، دقائق ثم ما يلبث المدقان أن يفترقا، تلاقت الأعين لمرة أخيرة، نادى خير الله من وسط رفاقه، سلامي لكمال إذا التقيته.

ندب صامتين، نحث الخطى، في مقدمتنا ثلاثة من الأنصار يسيرون متتابعين يفصل كلا منهم عن الآخرين أمتار، يحاذون بنا المدينة لدقائق ثم ينحدرون نحوها، نهبط في درب تعجز الأحواش على جانبيه عن سترنا، لحظات وتتلاصق الأحواش على الجانبين، نصبح في وسط المدينة تقريبا، لا أعمدة إنارة ولا بشر حتى الكلاب الضالة لا وجود لها، نمشي في خط مستقيم حتى يكاد الدرب يلامس ساحة المحلج، يعرج الأنصار بنا إلى درب آخر عمودي على دربنا، نتوقف أمام ثلاثة أحواش متجاورة، في الحوش الأوسط ندخل، يأخذ الأخ محمد أنصاري وخمسة عشر شابا سلاحهم وذخيرتهم ويتجه للحوش الأول، يغيب لدقائق ثم يعود ويأخذ مثلهم والأنصاري الثاني للحوش الأخير، يلج الأنصاري الأخير بجسده البدين القصير للبيت، لحظات ويفتح الباب ويتنحى بكرشه الضخم ويشير لنا فندخل، على أرض الحجرة الخاوية صينية نحاسية تعلوها أطباق طعام ممتلئة، على ضوء مصباح كيروسين شاحب يتحلق

الاثنا عشر شابا حول الصينية، يقدم الأخ محمد فيغلق الباب ويندس وسطنا، نتناول الطعام البارد الذي يبدو أن من أعدته غادرت منذ وقت طويل لتفسح لنا المكان، وجوه الشباب المحيطين بي أكثر شحوبا من ضوء المصباح الذي يتراقص عليها، طرد الخوف الحماس الذي كان يلهب وجوههم هناك أمام السراي، أكاد أحس بخفقات قلب الشاب الذي يلتصق جانبه بي، دقات خافتة متسارعة تلهث أنفاسه لتلاحقها. أزيح جسدي بعيدا عنه، أنظر لعينيه الزائغتين وشفتيه المرتعشتين ووجهه المثلث الذي ذكرني بوجوه الزراف، أضع يدي على ظهره، يلتفت لي بفزع، أبتسم له بحنو، يضع اللقمة على الصينية، يقوم من جواري. يجلس مرتكنا على الحائط أسفل المصباح مشيحا بوجهه عني

يقول الأخ محمد وهو يأكل بنهم

- الواجهة الأمامية لهذا الحوش لا يفصلها عن المحلج سوى طريق لا يتجاوز عشرة أمتار، عثمان وحده سيصعد لغرفة في الطابق الثاني تطل على المحلج، ستكون مهمته في بداية القتال إطلاق قذيفتي أر بي جي على المدرعات، إياك أن تصيب مبنى المحلج، أو معصرة الزيوت المجاورة، ستنتظر حتى يتجمع الجنود على مكان الانفجار ثم ستطلق قذيفة ثالثة وسطهم، أما نحن فسنكون برشاشاتنا خلف سور الحوش، هو منخفض بما يكفي ليفلت من قذائف الدبابات والمدرعات، وسيكون ساترا جيدا ضد رصاص الرشاشات، لن نتقدم باتجاه المحلج إلا عند فرار الجنود لمؤخرته، وسيغطينا عثمان بقذيفتي أر بي جي وسط الجنود الهاربين، أمامنا ساعة يمكنكم

الوضوء والراحة حتى أذان الفجر، سنصليه جماعة هنا ثم تبدأ المهمة فور انبثاق نور الصبح.

يصب الأنصاري عليّ الماء فأتوضأ، ألقي نظرة أخيرة على الشباب متحاشيا النظر لصاحب الوجه الطفولي، يحمل الأنصاري صندوق الذخيرة ويفتح الباب الداخلي للغرفة ويخرج، أتبعه حاملا المدفع، في صالة البيت الضيقة التي تختزن الظلام أعثر على رائحة البيوت التي افتقدتها منذ عامين، أقف مستنشقا الرائحة بعمق وعلى مهل، تنساب داخلي فرحا وحزنا وغضبا وأملا وحلما وودا وأنسا وأسرارا وراحة، تنساب ديارا وبشرا غادروني وغادرتهم، على سلم طيني ضيق يقف الأنصاري متعجبا لوقوفي ثابتا كالجذع الفارع وسط بيته، يدق مستعجلا على صندوق الذخيرة الخشبي، أصعد خلفه للطابق العلوي، غرب نصف القمر فتكاثف الظلام على المدينة المسجاة في حضن النيل وتوهجت النجوم محاولة إزاحته بلا جدوى، باب الغرفة الوحيدة مفتوح على الساعات الأخيرة، يلج ويضع الصندوق، يتقدم خطوات ويغلق النافذة، أتوقف على الباب عاجزا عن رؤيته، يخرج ويبتسم في وجهي، يمد يده متناولا ذراعي، يشد عليه ثم يضرب بيده على كتفي ويطلق يدي ويسرع لأسفل.

أتقدم للنافذة متحاشيا الارتطام بصندوق الذخيرة، أفتحها فيحط هواء مشبع بالرطوبة على وجهي، أتنفس بعمق، أمد رأسي بحذر، ألقي نظرة على المحلج، بناية مستطيلة الشكل لا يتجاوز طولها مائة متر تتمدد من الشرق للغرب، بصيص من الضوء ملقى أمام بوابتها الشمالية

التي تربض فيها عشرات المدرعات والدبابات واللوريات في طوابير متوازية تصل لمبنى معصرة الزيوت المجاور، في ساحة المحلج الجنوبية تتراص الآلاف من أكياس القطن العملاقة في كومات متجاورة، خمسة جنود متحلقون يغالبون النوم على بعد أمتار من سور الحوش، أرفع بصري للمدى، بنايات متناثرة وسط فضاء واسع ينتهي بالنيل وسط أشجاره الحارسة على شاطئه، أستدير للغرفة التي بدأت ملامحها تتضح، سرير وحيد بلا حاشية على جانب، أغراض مكومة في الجانب الآخر، أضع المدفع فوق صندوق الذخيرة، أنوي الصلاة وسط الحجرة، أصلي وترا بركعة واحدة، أستلقي على السرير مغمضا عيني، يثقل جسدي، أفقد إحساسي بالمكان.

يتبخر العامان الأخيران من عقلي، ألمحهم كفقاعات تنطلق في الهواء ثم ما تلبث أن تتلاشى، يغادرني كمال أميرا على الأخ محمد وخير الله ورفقاء السلاح يتبعهم محمد يتحسس رأسه، يغيب طه يسوق قطعانا فضية في وادي أخضر مغنيا دوبيتا، وجه الإمام الطيب يتداخل فوق فقاعة ويتلاشى، الوادي والضابط والهمباتة يمسكون بأيدي بعضهم ويختفون خلف دخان أسود كستار سميك، زوجة طه في ثياب عرس تزغرد وحولها أطفالها يبتلعهم ضباب أرجواني، عبد الله يرفض المغادرة، يسبقني لديار أهلي، أحسه نائما بجواري، تدخل أمي وعلى يدها إناء اللبن الساخن، أواري فخذي عبد الله العاريتين فيكشفها ثانية، للعجب تضحك أمي، تخلع منديها وتواري فخذيه، تدعني وتمسح رأسه بيديها، تقبل جبينه وتدع إناء اللبن بجواره، أشتاق للبن الأبقار الذي أشم

رائحة العشب المتصاعدة منه، أمد يدي لتناوله، تتضاءل يدي فلا أستطيع الوصول إليه، أرتد طفلا، تسري دمعات على خدي، يعتدل ويضع يده على كتفي، بيده الأخرى يسقيني، للبن طعم عسل الغابة، أتسلق الشجرة وكلتومة الطفلة تتقافز ترقبا وفرحا وقلقا أسفل مني، أصل لتجويف في قمة الجذع، تلدغني نحلات شرسة مدافعة عن مخزونها، أنجح في الوصول لقرص ذهبي، ألقي به نحوها، تلتقطه وتجري بنهديها المتراقصين تجاه عبد الله الجالس تحت الجذع، يقضم منه ويلوك في تلذذ، يضع قطعة في فمها، تغمض عينيها في نشوه، تخلع رداءها فتضحى عارية، تتراقص حوله في حركات دائرية، يأتي العم ومعه الطفلان وخلفهم أهل القرية يشقون الغابة في همة وغضب، الجدة حواية تتبعهم متقافزة، تختفي كلتومة خلف عبد الله، تستتر به عن عيونهم، يقدم العم فيضرب بعصاه الأرض، تتحول الغابة لواد فسيح مزده بالزهور، يرفع أبي عبد الله على كتفيه، يخطب فيهم فيتهاطل الدمع من عيونهم، مازلت على صراخي ولا أذن تسمع ولا عين تلتفت، تجمعت النحلات فوقي فغطتني تماما، أواصل الصراخ متألما، ينتفخ جسدي فيتطاير النحل فزعا، أهبط عن الشجرة والجميع يغادرون، أجري للحاق بهم، يستحيل نهرا بيني وبينهم، أقف أمام الماء الهادر عاجزا، يستدير العم ويضرب بعصاه النهر، ينقسم النهر لفرقين، أصعد للضفة الأخرى فلا أجد أثرا لأحد، يتلاشى العشب من حولي، يتحول الوادي لصحراء بلا نهاية، تتشقق شفاهي عطشا، أستلقي مستسلما للموت، يسري ظل فوق وجهي، أفتح عيني هازئا، وجه الإمام رقيقا مبتسما فوق وجهي، يمد يده فيتناول قربة من يد كمال المبتسم بجواره، يتساقط القطر على

شفتي، تسري الحياة في جسدي، يصطحباني وسطهما، أقدام الإمام وكمال تنبت عشبا حيثما وطئا، يخرج الإمام من جيبه حفنة من بذور ويطوحها، ينبت العشب فيملأ الوادي، ترعى قطعان جاموس وفيلة وسط العشب، يفتح ذراعيه فيصعد للسماء وأنا أحاول الإمساك به، يشد كمال الذي يحتل الشعر الأبيض كل رأسه ذراعي، نظارته تلمع تحت الضوء المنسكب علينا، نشرف على منخفض يحتشد به بشر لا حصر لهم، يلوح بيديه فيتعالى الهتاف والتصفيق، أرفع يدي خجلا فيجأر الحشد مهللا، ينزل كمال وسطهم يحملونه فوق رؤوسهم، يتركونني وحدي وسط الوادي الزاهي، أتجول فتتبعني القطعان، تنبت أشجار وسط العشب، تتدلى الثمار حتى تكاد تلامس الأرض، أنزع ثمرة وألوكها، أسمع لها أنينا في فمي، ألفظها مذعورا، أجري فتتبعني القطعان مزمجرة، يلتقيني جنود أوجوكوو يقودهم عبد الله، يصوبون الرصاص فوق رأسي، تتراجع القطعان مذعورة، يخلع عبد الله عباءته ويلقيها فوقي، تظلم الدنيا من حولي، أنزع العباءة فلا أجد أحدا، أجلس قانطا تحت شجرة وارفة، تمحى كل ذاكرتي فلا أتذكر أحدا، أضرب رأسي بيدي محاولا تذكر اسمي، أنظر ببلاهة للفضاء الشاسع الذي يطبق على حواف الأرض، لا شيء لا أحد لا حياة لا موت لا اسم أتذكره.

الانتصـار

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا: الثلاثاء ٣١ مارس ١٩٧٠

تشرق الشمس وطه على العنقريب ملتحفا بظل أشجار الحوش الثلاث، ساقه التي تورمت كثيرا ملقاة ببقع الدماء على ضماداتها وكأنها تتبع جسدا آخر، أنفاسه تتردد لاهثة حينا ومتباطئة لا تكاد تحس حينا آخر، الوجه النحيل متشح بصفرة تفشل شعيرات الذقن السوداء المتناثرة في صبغها، العينان العازفتان عن الرؤية تشد الجفون بعصبية عليها، الحنجرة البارزة التي طالما أسعدتنا ساكنة ثابتة وكأن أوتارها تمزقت، ينحسر طوق الجلباب المتسخ عن صدر ينبت به القليل من الشعر الملتوي على ذاته، لا أثر لأنين أو حركة أو وعي، فقط ملامح مشدودة على الألم.

تمر الدقائق فتنكمش بقع الضوء على جسده كلما علت الشمس، نلوك جميعا الصمت من حوله في ترقب، يتوقعون توقف الأنفاس الواهنة، بينما أترقب وعشة انفراج العينين وعودة الوجه الصبوح للحياة

- هل حقا يمكنه الرحيل دون أن يودعنا؟ .

تلقي لي عشة الجالسة بين الجذع ورأس العدريب سؤالها بفزع، تمد يدها لوجهه وتمسح قطرات عرق على جبينه، تلتفت نحوي فلا أجد ما أرد به عليها سوى نظرة خرساء للسماء

ـ افعل شيئا، تضرع لله بحق كل خير فعلته.

ترجوني فتطفر دمعات لعيني، أصمت فتقوم متجهة للعم الجالس في ظل الممر، تجثو على ركبتيها أمامه وتقول

ـ لتفعل أنت شيئا، بحق كل ما لاقيته من آلام، ادع الله لينجو هذا المسكين.

يضع العم يده على كتفها، يعتدل ويضمها لصدره ويبكي، تنزع جسدها منه وتجري لوسط الحوش، تخلع منديلها فيتعرى شعرها القصير شديد التجعيد، كلتومة وزوجة صدِّيق تندفعان نحوها، تحاولان احتضانها فتدفعهن بعيدا وتتلفت حولها في استنجاد، تقع عيناها الجاحظة على العم حسن الجالس على عتبة غرفة صدِّيق، تصرخ فيه

ـ تضرع لله لينجو هذا الفرع، أم أنك راض بنجاة فحلك؟

يلجم الوجوم الرجل فلا ينبس. تتلفت فتلمح أبكر بجوار العم، تجري فتمسك بيده، تعود به لوسط الحوش، ترفع يديها للسماء والطفل كاسف أسفل منهما، تقول

ـ أتضرع لك بحق هذا الطاهر، ربما نكون جميعا قد تلوثنا بذنب أو بشهوة، لكنه لم يرتكب ما يغضبك بعد، لم أطلب منك شيئا طوال عمري، قتل أهلي فلم أفعل سوى الحمد، تمزق وليدي أشلاء بين يدي فلم أنظر نحو سمائك نظرة غضب، دع هذا الرجل يقود قطيعي حتى النهاية، دع هذا الرجل أستعن به على نوائب حياتي التي لا تنتهي.

يقف العم بجوارها، يضع يده على كتفها بحذر، يهدهد كتفها بحنو، يقول وهو يضمها لجانبه

ـ لم يفعل الله له سوى ما طلبه منه
ـ وما أطلبه أنا؟
ـ لن يريك الله إلا خيرا.

قبيل الظهيرة يدفع صدِّيق باب الحوش ويدخل منكسرا، مازلنا على حالنا بين اليأس والأمل، يلقي نظرة على طه ويتجه لغرفته صامتا، يقف العم حسن أمامه

ـ مالنا لا نسمع للقذائف حسا؟ هل سلموا الجزيرة؟ أم أشفق النميري علينا؟
ـ وفد في عسلاية لتسليم الجزيرة، والإمام منذ السحر في طريق هجرته.

يقول صدِّيق ويحاول المرور لغرفته، يوقفه العم حسن ممسكا بتلابيب جلبابه، يقول وهو يدفعه في صدره بغضب

- هجرة أيها الغبي؟ أما زلت على غيك؟ ألم اقل سيتركنا بين قتيل وجريح ويلوذ بالهرب، ماذا جنيتم من ورائه؟
- يكفي أننا لن نخجل من ذكر ما حدث يوما، ولو تكرر لن نفعل غير ما فعلنا.

يقول صدِّيق بتحد وهو ينزل يدي والده برفق عن طوقه، يتركه العم حسن ويندفع نحو طه، ينحني عليه ويهز كتفه ويقول في جنون

- قم أيها المسكين فالحرب انتهت، قم لترحل لديارك وتربي وليدك، يمكنك الحياة بساق واحدة، لكن انهض ولا تمزق قلبي عليك، انهض فأطياف أهلي جميعا تطوف حول جسدك.

ينهي كلماته وينخرط في البكاء. ينهار جالسا بجوار رأس طه. تلم عشة المكومة لصق الجذع جسدها بعيدا عن جسده الذي لاصقها. يهم العم أديلانو بالتحرك نحوه. تلح كلتومة في طلبها الانفراد بي. يأتي صوت جلبة من الخارج. يتصاعد دبيب وصراخ فأتركها وسط الممر وأخرج للدرب. الكثيرون يهبطون مهرولين نحو السراي. أقف على ركام منزل منهار برأس الدرب. يتجه الحشد للسراي. ألحق بهم متمهلا، يتجاوزني صدّيق مندفعًا. يلمع تحت شمس الظهيرة ثوبه بخطوطه الثلاث على ظهره. تطل علي بقايا البيوت المنهارة. الأنصار المندفعون حفاة من حولي متهدمين كالبيوت وربما أكثر. بقايا من حماس يذوي تدفعهم متقافزين فوق الأرض الملتهبة. تسيطر ضجة الحشد على أذني بمجرد رؤيتي لبقايا السراي. أدلف وسط الحشد بصعوبة. أصل لمدخل السراي الداخلي. أقف حيث وقفت مع طه في أول أيام قدومي، يقف رجلا كنت أراه كثيرا حول الإمام صارخا في الحشد الغاضب الذي كاد يلجئه للداخل

- لم نفعل سوى تنفيذ أمر الإمام. هكذا أمر الإمام.
- لن نسلم الجزيرة قبل أن نتأكد من وصول الإمام لمهجره.

يصرخ شاب مشتعلا بالغضب، فيقول الرجل

- المهلة الممنوحة لنا عدة ساعات.

يهتز جسد الشاب غضبا، يحاول النطق فيحبس ارتجاف فكيه صوته، يصمت وهو يزوم، فيقول آخر بجواره

- فلتستمر الحرب.

يقول الرجل برجاء

ـ لن يبقى بالجزيرة حي لو لم نسلمها .

يصرخ الشاب

ـ نموت نموت جميعا ويحيا الإمام .

ـ لا ذخيرة معنا، ولن تجدي السيوف والحراب نفعا، فلا تلقوا بأنفسكم للتهلكة .

ـ لن نستسلم لن نستسلم .

يقول الشاب ويندفع نحو الرجل ويمسك برقبته، يجذبه آخرون فيفلته ويخرج سيفا من غمد معلق على خصره .

ـ سأقتلك أيها الخائن .

ـ يمكنكم قتلي لكن لا تتسببوا في قتل الجميع .

يقول الرجل بثبات، يظل السيف اللامع مرفوعا للحظات، يغمد السيف فتنطفئ الوجوه المحيطة به، يقول عجوز غائر العينين .

- وهل سيتركوننا أحياء لو سلمنا الجزيرة؟

- تعهدوا لنا بعدم المساس بأحد منكم .

أنسحب نحو البيت، تتخافت أصوات الحشد فيسيطر طه على كل فكري، يلحق بي صدِّيق باكيا فنعود صامتين

أعود من صلاة الظهر مع العم وأبكر، يدلف العم لظل الممر ويجلس، يلج أبكر الغرفة بحثا عن بعض الرطوبة، يزوم الكلب المتكور بجوار طرف العنقريب ثم يدفن رأسه في جسده ثانية، عشة على حالها

تواصل مسح وجه طه بالماء البارد، تسبقني كلتومة لغرفتنا، تقول بمجرد أن أدخل

- أديلانو يرفض الرحيل معنا.

أرد وأنا أجلس على العنقريب وأمدد ساقي

- من منا يمكنه الرحيل؟ الرحيل الآن ضرب من النذالة.

- أديلانو لن يرحل معنا مطلقا.

تكرر وهي تجلس بجواري، أنظر لها متحسبا لردة فعلها، أقول بصوت حنون حاولت أن أجعله صادقا قدر استطاعتي

- يمكننا المرور عليه حيثما يكون.

- يجب عليك إثنائه. فلن أرحل بدونه.

تقول ثم تلقي بعينيها في حجرها هربا من وجهي الذي تلون، أصمت طويلا فتكمل دون أن ترفع رأسها

- الرجل يحتاج لمن يرعاه، ولا أحد له في الدنيا غيري وذاك الشارد كالمجانين. ولن أكون الألم الأخير في شيخوخته.

أواصل الصمت، تكمل وهي تنظر لي بطرف عينها في حذر

- لماذا لا ترد؟ ليس وقتا للصمت، اذهب للرجل فهو يحبك كابنه، حاول أن تبقي شملنا ملتئما

- لو أنك لم تستطيعي التأثير عليه فمن يفعل؟

- لا أحتمل فراق أي منكما.

- ربما يعود عثمان.

ـ هل يعود الموتى؟ ذاك رجل مات منذ زمن بعيد
ـ وهل قتله أحد سوانا؟

يقول العم ويلج من الباب المفتوح، ينظر نحو كلتومة بغضب، يكمل وهو يرمقني بطرف عينه

ـ كلنا يده ملوثة بدم عثمان.
ـ دع عبد الله وشأنه، فلم يفعل غير أن جمع شتات ما مزق غيره.

تقول كلتومة التي تقف بيني وبينه وكأنها تحمني منه، فيرد العم

ـ لو مات فلن أسامح نفسي أو أحدا.

يقول وينحيها بيده، يجلس بجواري مطأطئا رأسه، تنحني عليه وتضع يدها على كتفه بحنو، تقول

- هل يمكنك أن تحب أديلانو مثلما تحب غيره؟ حتى متى تستعذب الآلام؟ أما من نهاية؟
- وهل انتهت آلامي؟ أم تمقتينه هو فحسب؟
- كيف تطلب أن نحب من يمقت ذاته؟ لا تعلق دماؤه في رقابنا، ألا من نظرة للطفل والجنينين، دعنا نفكر في هؤلاء المساكين، دعنا نرحل لمكان آمن لنغرسهم فيه.

تقول كلتومة وتتحسس جنينها وتنظر نحوه، يطيل النظر نحو بطنها، يحرك عينيه نحو النافذة، يصمت متشاغلا بالنظر نحو ضوء النهار في الخارج، أقول برجاء

- لا تفرق بيني وبين كلتومة.

يرد دون أن ينظر لي

ـ لم يطلب منك أحد فراقها .

تجلس كلتومة أمامه ، تدير وجهه نحوها ، تقول

ـ تعلم أنني لن أرحل بدونك .

يتطلع بعينيه لشعرها العاري ، يضع يده على رأسها ، يقول

ـ وأنت أيضا لم يطلب منك أحد الرحيل .

أضع يدي على كتفه وأقول

ـ يجب أن أنهي رحلتي .

ينظر نحوي ، تشع عيناه ألما ، يقول

ـ ستنتهي رحلتك راغبا كنت أو رافضا .

أقول بعطف

ـ دعك من كلينا ، أين ستذهب أنت ، كيف ستعيل هذا الجمع ؟

يقوم عن مكانه ، يتحرك نحو ضوء النافذة ، يستدير ويقول

ـ حتى لو لم يعد عثمان ، فمعي عشة بألف رجل ، ولدي بقية من عافية يمكنني العمل حتى تنفد

تقول كلتومة بتعجب

ـ لم تعمل بديارك ، هل تعمل أجيرا هنا؟

يزفر ويقول

ـ كلنا أجراء ولكن الله وحده يعلم متى نؤجر .

أقف وأخطو نحوه ، أقول

ـ يمكنكم الرحيل لمكة ، هناك ستكونون في جوار الله .

يرد بصوت عميق وعيناه تهرب من عيني

- نحن هنا في جوار الله.

تتساءل كلتومة بغضب

- أي شيء يربطنا بهذا المكان؟

يستند على حافة النافذة فينعكس الضوء على وجهه، يجيب

- تربطني أجساد واريناها ترابه، وأخرى على وشك أن نواريها.

ينظر نحونا بحزن ويكمل

- مازلتم صغارا، لا أدري هل يمكنكم أن تتفهمون ما أشعر به أم لا، لكن اسمعوا.

يلتقط أنفاسه ويتحسس رأسه العاري كالإكليل ويقول

- ذلك الشيب العاجز يريد أن يستريح، لم تعد قدماي براغبة في الخطو، لا جديد في تلك الدنيا يهم، لا شيء يلهمني أملا، كل ما أريده أن أحافظ على ما تبقى لدي من الأشياء، تقولين إنك لا تطيقين فراقي، وأنا لن أسمح لك بفراقي، بل لن أسمح به لأحد من بقية أهلي، حتى ذلك الشارد سآخذ بخطامه بمجرد عودته، سأعلمه كيف يحب ذاته، فالبعض منا يجهلون أن حب الذات قد يكون أكثر نفعا من التضحية.

أقول وقد تعاظم الرجاء داخلي

- إذن فلنحج جميعا وتعود إلى حيث تريد.

يتحرك نحو الباب، يقول قبل أن يخرج

- أعدكم أنني لن أكون ألما في حياتكم.

عثمان إدريس دار

ربك – الثلاثاء: ٣١ مارس ١٩٧٠

يهتز جسدي بعنف، أفتح عيني على رجل يجرني عن السرير، وجهه المحتقن يشع غضبا، أعتدل ونصف جسدي على الأرض، أتطلع نحوه بدهشة، أبحث عنه في ذاكرتي، أفشل في العثور عليه، يشدني من كتفي محاولا إيقافي، أنزع يده عن كتفي بعنف، أتلفت حولي بحثا عن شيء أعرفه، علامة مميزة أستعيد منها ذاكرتي

- عثمان . . عثمان، استيقظ قبل أن تتسبب في القضاء علينا .

يقول الرجل وهو يعاود هز جسدي، يتركني ويتجه لصندوق فوقه مدفع وسط الغرفة، يتناول المدفع ويضعه في حجري، أقلب في المدفع متعجبا، يعود للصندوق ويتناول قذيفة، يلقي بها فتتدحرج نحوي، أبتعد عنها فزعا، يقترب مني ويجلس أمامي

- هل جننت؟

يقول ثم يلطم وجهي بقسوة، تتسرب الأشياء لوعيي، تنهمر حتى تملأني، أضع يدي على كتفه، أتناول المدفع وأتلفت بحثا عن القذيفة،

أحشوها ثم أتقدم للنافذة، أرمق الآليات التي بدأت محركاتها في العمل، أنتقي مدرعة في وسط الطابور، أصوب نحوها، يدوى الانفجار ويشتعل اللهب الأزرق، أستدير للداخل فيحتضنني ثم يناولني قذيفة أخرى، أصوب هذه المرة في مؤخرة طابور المدرعات، يدوى الانفجار ثانية ويعلو اللهب، أنسحب للداخل، أضع المدفع فوق الصندوق المفتوح، أتحاشى الجلوس على السرير، أجلس على عتبة الباب المفتوح، يتعالى صوت الرصاص في الأسفل، تتصاعد تكبيرات متلاحقة وصراخ وأصوات استغاثات، يتجه لجانب النافذة، ينظر للخارج ثم يمد رأسه محاولا رؤية الشباب أسفل منه، يعود مسرعا متهلل الوجه، يحشو المدفع ويمده لي، أتجه للنافذة ثانية، من جانبها أتطلع لأسفل، الشباب خلف سور الحوش يغمرون المحلج بالرصاص، سبعة جنود ملقون على أرض المحلج تنشع أرديتهم بالدماء، خلف طوابير المدرعات يحتمي مئات الجنود

- هذه فرصتنا.

يقول بسعادة ويضرب ظهري بيده، أصوب نحو الجنود المذعورين خلف المدرعات، أتأملهم وهم يتداخلون في فزع وكأنهم يريدون الولوج داخل أنفسهم، أتذكر أهلي الجاثمين في رعب بالساحة انتظارا للذبح، أطلق القذيفة للفضاء بعيدا عنهم، ينزع المدفع من يدي، يحشوه بإحدى القذائف الثلاث المتبقية، يناوله لي غاضبا، أقف في منتصف النافذة وأصوب لأكوام القطن فتتصاعد النيران والدخان

- أيها اللعين، هؤلاء سيقتلوننا عما قليل.

يقول بجنون وهو يحاول جري بعيدا عن النافذة، أدفعه في صدره، ينظر لي وهو يهتز غضبا، ينزع المدفع من يدي يحشوه فأفسح له الطريق، يصوب نحو الجنود، يطلق القذيفة فتصعد بعيدة في السماء، يلقي بالمدفع ويعدو مسرعا للخارج، تهدر أصوات الآليات في قوة، تدوي أصوات انفجارات، تتعالى رائحة البارود فتحتل المكان، وسط الساحة يفيق الجنود من صدمتهم، يتقدمون نحو الأحواش محتمين بالآليات، يهبط بعضهم داخل الدبابات، يقفز آخرون للمدرعات، تتحرك المدرعات نحو الأحواش يسبقها رصاص رشاشاتها، تدك أسوار الأحواش الطينية فتتهدم، يطلق الشباب رصاصهم فيرتد من مقدماتها عاجزا، يتناثر الشباب المدهوسون تحت العجلات، أترك النافذة وأجلس خلف الحائط، يدخل الأخ محمد صالح والدم يسيل من ذراعه وفخذه وبطنه، يجلس وسط الحجرة يائسًا وعيناه عليّ، وسط أصوات القذائف المدوية أنظر له مبتسمًا، أقول رافعًا صوتي

- ألم أقل لك هي معركة عادلة تماما لكلينا؟

يغمض عينيه ويستغرق في الذكر، لحظاتٍ وتنبسط أسارير وجهه المحتقنة، يقول وهو مغمض العينين

- مازال أمامك فرصة للهجرة.

أضحك حتى يهتز كل جسدي

- تقصد الهرب.

يمسك بعضده المصاب فينساب الدم على أصابعه

ـ أيًا ما كان، فأمامك فرصة للنجاة فلا تضيعها.

تخترق قذيفة دبابة الحائط مخلفة غبارا ملأ الحجرة ورائحة بارود نفاذة.

من وسط الغبار يردد

ـ فلتذهب قبل فوات الأوان.

ـ أنا ذاهب بالفعل لحيث أريد.

أزحف لصندوق الذخيرة، أحشو المدفع بالقذيفة المتبقية. من الوضع جالسًا أصوب للسماء عبر النافذة. أطلق القذيفة وأتابعها وهي تتضاءل صاعدة حتى تتلاشى، ألقي بالمدفع خارج الحجرة. أفشل في متابعة ارتطامه بالأرض وسط دوي الانفجارات.

أتمدد وسط الحجرة واضعا يدي تحت رأسي. تمرق قذيفة عبر النافذة وترتطم بالحائط فوق الأخ محمد، تتوالى القذائف عبر النافذة فتشتعل النيران، يتعالى صوت الأخ محمد صالح مكبرا ومهللا مع رائحة شواء، لحظات ويصمت بينما النيران تلتهم السقف فوقي وتلقي بلهبها نحوي، كان آخر ما التقطته أذني صوت صراخ كمال ودوي انفجار متواصل يصطك في جوانب الحجرة فيتردد صداه.

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا: الثلاثاء ٣١ مارس ١٩٧٠

يتنهد طه بوهن، تندفع عشة واقفة بجوار رأسه، يحط رجاء الدنيا على وجهها. تنحني على وجهه، ترتجف جفونه وتنفرج، تشهق وتتدفق الدموع من عينيها. تنحني على يده وتقبلها، تنظر في عينيه بابتسامة من وسط دموعها. يلوك كلمات في فمه يعجز عن نطقها، يتلفت بوجهه في الحوش. تثبت عيناه علي العم الذي قام راكعا باتجاهه، يبتسم بعجز فتحلق جميعا حوله. تحجب بقع شمس الأصيل عن جسده، يشب برأسه محاولا النظر لساقه، أتقدم فأرفعه قليلا حتى أسنده على مؤخرة العنقريب وجذع النيم. تسقيه كلتومة قليلا من الماء، تقول عشة بعدما تجلس على حافة العنقريب ويد طه بين يديها

- حسبت أنني لن أرى تلكما العينين ثانية .
- لم أكن لأسامح نفسي لو مت دون أن أنظر نحوك مودعا .

يرد طه فينفجر العم ضاحكا ودموع تلمع في عينيه

- كنت أبحث عن ثوب لأكفنك فيه .
- أين فحلك الشارد؟ ألم يعد بعد؟

يسأل فيتلقى الإجابة من وجوم العم، ينظر نحوي، يهمس في أذن عشة بكلمات فتنطلق لغرفتهم على أثرها، يشير لي فاجلس موضع عشة، يقول وهو يمسك بيدي

- يا ولي، فقط الآن يمكنني القول إنني لا أدري إن كان لقائي بك من حسن حظك أم من سوء طالعك، لكن يتوجب عليّ الاعتذار لك عن أي أذى لاقيته منذ رأيتني.

- لا عليك حاولت مساعدتي وهذا يكفي ويزيد.

- دعني أكمل. •

يقول بصوت ضعيف فأصمت، تقف عشة بجواري، يكمل

- لم أكن بحاجة لمال حين استلبت القرط والخلخال، ولم أقصد فقط أن تحمل دعواتي لله، لكنني كنت بحاجة لصديق، لرجل يمكنني به أن أستعيد ثقتي في هذا الجنس البشري، ولم يخب فيك رجائي.

يمد يده لعشة فتناوله الجراب، يدس يده ببطء وتخبط ويستخرج قرط وخلخال مريم، يضعهما في يدي ويكمل

- هذه هديتي لمريم، فليس من العدل أن تفجع بزوجة ثانية وضياع حليها، أكمل رحلتك، لا تدع شيئا يوقفك، تذكر قولي هذا لا تدع شيئا يوقفك، وعدني أن تمر يوما ما على الوادي.

تتدفق الدموع لعيني، لا أجد من الكلمات ما يمكنني به الرد عليه، أنحني على رأسه وأقبلها، تزيحني عشة وتجلس مكانها، ينظر للعم نظرة طويلة ويقول

- حتى لو لم يعد عثمان فعد للوادي بمن بقي معك، لن أجد خيرا منك ليتربى وليدي على يديه. فعندما أموت وبعد أن يبعثني الله للحساب لن أجد في جرابي حجة أحاجج بها عن نفسي بعد حبي لله غير أنني صحبتك يوما ما. سأقول وأنا مطمئن لمصيري: يا رب لقد أحسنت صحبة قطب من أقطابك ألا يكفي هذا لدخول جنتك.

يبرك العم على ركبتيه. يستند على حافة العنقريب، يقول وهو يغالب دموعا في عينيه

- لا بل ستنتظرك بنيتي الصديقة الطاهرة وأبناؤك ليزفوك لموضعك من الفردوس.

يمسح بكمه دموعا تساقطت على خديه، لا يتمالك نفسه فينخرط في البكاء، يمسك طه بيد عشة، يقول بصوت لا يكاد يسمع

- اقتربي.

تقترب حتى يكاد وجهها يلاصق وجهه، يقول والكلمات تخرج بالكاد

- كنت زوجة صالحة، وستكوني أما صالحة، وكان يجب أن يكون وجهك آخر ما أراه في الدنيا

يقول ويسكن لسانه، ينسحب نور العينين لداخل المشكاة، تحلق طيور روحه مصفقة نحو سفر طويل.

ننتهي بعد انتصاف الليل، وسط الظلام يحتضن العم عشة تحت ذراعه ويسيران بخطوات ثقيلة أمامنا، العم حسن يمشي متشبثا بذراع

صدِّيق وكأنه يخشى فقده، يحمل أبكر وزوجة صدِّيق طرفا العنقريب الخاوي الممدد بينهما، كلتومة المتعلقة بذراعي تلتفت خلفها ترقب الكلب الباسط ذراعيه على طرف القبر، تهب نسمة حارة تنثر في وجوهنا التراب وترحل تاركة الهواء اللزج الحار ساكنا، نترك شاطئ النيل ونهبط وسط العشب، دقائق ونصل البيت، الحمل الوديع يستتر بأكمة ظلام بجوار الباب، يدقق العم النظر ثم يندفع نحوه

- أين عثمان؟

يصمت الحمل فيكمل العم

- عله أصيب؟

يمد بعض وريقات ويضعها في يد العم ويقول

- هذه وصية عثمان، أمرني أن أسلمها لك، أحسن الله عزاءك.

تشهق عشة، تمسك كلتومة ذراعي قبل أن تسقط للأرض

- أين الجسد؟ أم تركته للذئاب؟

يقول العم وهو يهز كمال بكلتا يديه، تتهاوى الوريقات إلى الأرض، يبكي الحمل المستسلم ليدي العم، يجيب من بين شهقاته

- تحت ركام محلج ربك.

يجلس العم أرضا، يلم الورقات وهو يردد

- أهذا كل شيء؟ أهذا كل شيء؟ عله سكب روحه على تلك الأوراق.

- أنا لم أقتل أحدا أنا لم أقتل أحدا.

تصرخ كلتومة من تحتي فتحتضنها عشة، يردد العم

ـ قُتلنا جميعا يوم فارقنا ديارنا .

ـ مَن الأفضل أن ترحلوا الآن، فالنميري سيقتل كل من بالجزيرة عند الصباح .

يقول الحمل ويتقدم خطوة وينحني على أبكر الباكي، يحتضنه ويقبله، يكمل وهو يطلق أبكر

ـ أنا في انتظاركم لأخرجكم من الجزيرة .

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، أي ظلمات تكسو هذه الأرض، أما من صباح؟ ، أما من صباح؟

يقول العم باكيا وهو يقوم ويتجه للداخل، أقيم كلتومة التي تنظر لي بذعر ووجه مخنوق وتردد

ـ عبد الله : أنا لم أقتله، أنا لم أقتله، يعلم الجميع ما فعله بي، لم يقتله أي منا أليس كذلك .

عثمان إدريس دار

الجزيرة أبا الأربعاء ١ أبريل ١٩٧٠

في الحوش وتحت الضوء المرتجف للمبة الكيروسين يجلس العم وبيده وريقات الوصية، يمسح دمعات بكم قميصه، وبيديه المتغضنتين المعروقتين يمسك بالورقات، يتلو

هذا ما وصى به عثمان إدريس دارمروة

أبي أديلانو: أعلم أن عودتك لديارنا مستحيلة، عد للوادي وهناك سيكون لك قرية وأولاد وأحفاد، احك لهم عني، عن رجل لم يستطع الدفاع عن أهله، فمات وهو يدافع عَن الحق تحت راية الله في أرض غريبة، ادع لي، فإن لم يتقبل الله من رجل مثلك فعلى الدنيا والآخرة السلام، لا تبحث عن جسدي حتى لا أكون ألما لك حيا وميتا.

كلتومة: لم أقصد إيلامك يوما، فقط كنت أريد أن تنامي بين ذراعي في كوخ آمن، ولكنك فضلت أن تنامي بين ذراعي غيري تحت القصف، حاولت كثيرا وطوال شهور طويلة أن أتعلم كيف أكرهك، لكنني لم أكن أزداد إلا حبا وشوقا ومغفرة، لا تفارقي أديلانو، فالطريق

لله يبدأ من عنده وينتهي عنده، لا تغادريه حاملة بقايا سعادة سيقتات بها ما بقي من عمره، كفاه ألما من كلينا وعلى كلينا، وأدخلي أبناءك المدرسة، حققي حلما عجزت أن أحققه لك، وعند الله إذا وطأت قدماي جنته، سأرجوه أن يجمعنا في حياة أبدية عوضا عن تفرقنا في تلك الحياة الزائلة، وادع لي.

طه: يعلم الله كم أحببتك، كدت تعوضني عمن فقدت من أهل وديار، ولكنك ما زلت غير مقيد بوزر جرم ارتكبتُه، ما زلت ذلك الطاهر الذي عرفته، عد لواديك واحدب على العم والأرانب، وادع لي.

عشة: رزقك الله بطه ليعوضك عمن فقدت، كوني ظلا له وللجميع، لا أمل في هذا القطيع إن لم تكوني وسطَه، تساقط مع من تساقط، ولكنني أعلم أنك لن تعدمي نهرا أو مرعى، وادعي لي.

أبكر: لا تفقد الأمل في لقاء همزة، أعلق واجب استعادته في رقبتك، استمع للجد أديلانو وأطعه، ارشُفْ ما عجزت عن ارتشافه من رحيق حكمته، وعد لديارنا يوما حتى ولو زائرا، شم الديار والتراب نيابة عني، وإذا التقيت بأحد يعرفني فبلغه مني السلام، وادع لي.

الولي الكاذب: إذا توهمت يوما أن الله قريب منك، ربما يكون هنا في مكة، أو فوق سرير وأنت تضاجع امرأة، ربما يكون هذا بعد ساعة أو عند الغرغرة، فبأي وجه تتلفت له، وبأي قلب تستقبل أنواره، لم أسامحك، وأنتظرك عند الله لأحاجك.

كمال: أخرج العم من أبا حتى لو دفعت حياتك ثمنا لذلك، ولا تغادرهم إلا إذا غرسوا أوتادهم في تلك الارض، كنت تتمنى أن تصبح درويشا للعم، عل الله حقق رجاءك، وأثق أن رجائي لن يخيب فيك.

الختام

عبد الله ولد فال

الجزيرة أبا - الأربعاء ١ ابريل ١٩٧٠

- اذهب للجنينة ولا تعد إلا إذا أرسلت لك.

للمرة الثانية يدفع العم حسن صدِّيق وزوجته خارج المنزل يرجوه صدِّيق

- دعنا نموت معا، أو نحيا معا، فمن النهر والبر جنود نميري يحاصرون الجزيرة، سنقتل على أي حال.

- الليل ستار ورحمة الله واسعة علك تنجو.

يقول العم المستند على الباب

- ومن سيواريك الثرى ويقف على قبرك إذا مت؟

- لم تعد هذه إلا جيفة، لا فرق لديها بين أن يأكلها الدود أو تنهشها النسور.

يقول ويشير لجسده، يتقدم العم ويحتضنه

- بل هو جسد مبارك، سأفتقدك أيها العجوز.

نودع العم حسن ونسري حاملين متاعنا، نتجاوز السراي التي اختفى الحراس عن بابها وغادرتها الأنوار ليحل ظلام كأنه أبدي، نسعى

شمالا على شاطئ النيل. نمر على قبر طه بجوار غار المهدي الغارق، ينبح الكلب الباسط ذراعيه ولا يتحرك لرؤيتنا. يعاود شم تراب القبر ويرفع رأسه نحونا

- وداعا أيها الرجل الصالح.

بصوت خفيض يقول العم الذي تتعلق كلتومة بذراعه منذ خرجنا، تنحرف عشة خطوات وسط العشب. تقف على شفا القبر، تقبض بعضا من رماده وتسره في طرف ثوبها. تربّت على رأس الكلب وتعود، نمشي لدقائق ثم يوقفنا الحمل. يتحرك نحو شجرة منفصلة عن صف الأشجار الذي يكاد يتلاصق على الشاطئ. يفك حبلا مربوطا للشجرة ويشير لنا فننزل للقارب. ويجدف صدِّيق والحمل على الجانبين، عشة تجلس على مؤخرة القارب خلف صدِّيق والحمل اللذين يجدفان على الجانبين وجهها نحو القبر وأبكر الواقف بجوارها معطيا ظهره لنا يتطاول ليتابع الجزيرة المنسحبة للخلف. في المقدمة بجواري كلتومة التي لم تنبس بكلمة منذ سماعنا للوصية تستند برأسها على كتف العم، زوجة صدِّيق الذي يبدو أنها لم تغادر الجزيرة من قبل لا تتوقف عن البكاء، العم يعبث في ثيابه بفزع. يعثر على الوصية التي توهم أنه فقدها، تحاول كلتومة إعادة رأسها لكتفه. يقول وهو يقيم رأسها

- لم يعد كتفي صالحا لحمل أحد، انظري للجانب الآخر، لا تضيعي كل شيء.

تنظر نحو الفضاء، تعقد يديها على صدرها وتطيل النظر نحو عشة التي تقبض على صرة التراب في طرف ثوبها، أضع ذراعي حول كتفها وأقول

ـ لم ترتكبي جرما لتعذبي نفسك لأجله .
ـ ربما أفعل عما قريب .
تقول وهي تستسلم لذراعي الذي أطوقها به ، أهمس
ـ لا نحاسب على النوايا .
تمسك بيميني وتضغطها بيدها ، يرمقنا الحمل باستهجان ، تزفر وتقول
ـ بعض النوايا أكثر شرا من الأفعال .
أضم جسدها بذراعي وأواصل الهمس
ـ عما قريب سيصبح كل هذا من الماضي ، سيكون غدا به الأمل لكلينا .
ـ بعض الماضي كخناجر تقتل كل غد .
تقول ثم تلمح بطرف عينها إيقاع جملتها على وجه العم الذي يقطب حاجبيه ، أصمت فيعلو صوت ارتطام المجدافين بالماء ، أقول بغضب
ـ أكاد أعلن فشلي في فهمك ، ألم يكن هذا الغد هو كل حلمنا؟
يكاد يتوقف الحمل عن التجديف ، يرمقنا ثم يتمهل في التجديف وكأنه ينتظر ردها ، تنظر نحوي فتبدو عيناها أكثر ضياعا مما ظننت ، تقول
- كان وما يزال ، ودوما وجود غد حلم للمشردين أمثالنا .
يعاود الحمل التجديف بهمة ، أسألها
- ماذا حدث إذا؟
تنكسر عيناها عن عيني ، تقول وهي ترنو لأضواء كوستي المقتربة
- يحقق البعض بموته ما لا يستطع تحقيقه بحياته .
يبتسم الحمل ، أنظر للعم الذي يتابع تكسر النجوم وسط الماء

ـ لم نقتل أحدا، ألم تكرري هذا مرارا؟

تقول بوهن

ـ أنا متعبة، دعني أستريح على كتفك.

ـ في الغد قد تضحى النوايا أفعالا.

ـ إن صَدَقْتَ.

تقول وتلقي برأسها فوق كتفي، أنظر نحو العم الذي يعلو وجهه عدم الاكتراث، أطيل النظر نحوه فيعطني ظهره ويدلي قدميه في الماء مستقبلا كوستي، أنظر نحو عشة التي تتحسس بطنها وتنظر نحو السماء المظلمة التي تتلاحق فوقها نتف شفافة من سحب.

يخرج القارب من فرع النيل الشرقي، تتخاطفه دوامات ارتطام الماء برأس الجزيرة، لحظات ويستقيم متهاديا، يبحر بنا الحمل وسط النهر متحاشيا الاقتراب من الضفتين، تلصق كلتومة جسدها بجسدي، **أي ألم تنثرين بذوره داخلي، بل وتصرين على سقايته بتلك العبارات الغامضة المتخبطة، ذلك الارتكان الحميم على جسدي هل هو الوداع؟ لم أعد قادرا على فراق أحد، هل أستطيع فراقك أنت وجنينا حلمت به لسنوات طوال؟ وهل سأبقى هنا لبقية عمري؟ كيف يمكنني حمل كل من أحب لمكان واحد؟ *نحمل من نحب بداخلنا فلا تأسي على فراق أحد*، صدق مولاي. لكن أي قوة علينا امتلاكها ليكون غياب الأجساد بلا تأثير ولا ألم، وأي شوق يرويهم ليبقوا أحياء.**

قبيل الفجر نصل شاطئ كوستي الشرقي، على مرمى البصر كوبري القطارات يتوسد الضفتين، ينزلنا الحمل ويلحق بنا، يقول بهمس

- حمدا لله على سلامتكم، فلنكمن هنا انتظارا للشروق، فحظر التجوال ينتهي عند السادسة.

يسير خطوات ويعود فيقول

- فلتفترقوا حتى لا تلحظ تجمعكم دورية، وابتعدوا عن الشاطئ.

يوغل وسط العشب فأتابعه حتى يغيب في الظلام، يمسك العم بيد عشة وأبكر يمضون شمالا حتى يغيبوا، يتحرك صديق وزوجته أمتارا ويجلسان فيغطي العشب وجودهما.

أتحرك وكلتومة حتى نكاد نصل لشريط السكك الحديدية، أجلس فتتوسد فخذي، أقول

- لم تر نفسك والعم يتلو الوصية.
- لو كان له بداخلي ذرة حب ما سمحت لنفسي ولو بنظرة نحوك، لكنه لم يترك لي بموته خيارا، فلن أفارق أديلانو حتى يموت أحدنا.
- ماذا لو وافق على رحيلك؟
- هذا اختياري وليس اختياره.
- ستكتبين علينا الفراق لسنوات.
- أيضا من حق من انتظرتك لسنوات أن تعود لها وأنت تحمل خيرا لا شرا.
- يمكنني الذهاب معك للوادي لشهور ثم أواصل رحلتي.
- دع كل شيء ينتهي هنا.
- سأمر عليك في طريق العودة.
- هناك من هو متلهف لرؤيتك منذ سنوات.

ـ عند عودتي من الحج سيكون وليدنا على صدرك.
ـ وقتها ولشهور طويلة لن يحتاج لغير صدري.
ـ لكنني أحتاج له ولك.
ـ لو مررت على الوادي لن أسمح لك بالعودة لديارك، دعنا نفترق لمرة واحدة لا تتكرر.
ـ هل أنا ولي كاذب؟
ـ ولي أو غير ولي هذا يعلمه الله، لكنك لم تكن كاذبا يوما، ثم إنك الرجل الذي انتظرته لسنوات، سأنتظر عودته ما بقي من عمري.

وسط الزحام على محطة القطار نعثر عليهم، العم يحتضن كلتومة وكأنها فارقته لسنوات، نجلس بجوار رصيف ضئيل مكتظ بالمسافرين، يقدم صديق خلف الله الأحول نحونا، يجلس حتى تلاصق ركبتيه ركبتا العم، يهمس لعشة

ـ أين طه؟

تصمت عشة فيجيبه العم

ـ غادر لحيث يريد الله.

يقول الرجل بفخر

- حري بمن مثله أن يختفي طويلا عن الأنظار، فلقد سمعنا أنه فعل بقوات الحكومة الأفاعيل، هل حقا قتل عشرات الجنود ودمر العديد من المدرعات؟
ـ فعل ما كان يتمنى فعله.

يجيب العم ويقطب حاجبيه فيقوم الرجل متهللا ويغيب وسط الزحام، تبتسم عشة للعم فيضحك لها ويقول

- يهبط الكثير من العطاء على المرء حتى بعد موته.

يتعالى صوت القطار القادم، يتلفت الجميع نحو الغرب، تشد كلتومة ذراعي لصدرها، دمعات تنساب من عينيها، تخنقني الدموع فألتفت للقطار الذي بدأ يظهر، يقوم العم ويحتضنني ويقول

- قطارك يا ولي، بلغ الله أن حجر النرد على وشك الخروج من الطاولة، بلغه أنني أحتاج لطفه لأهبط بسلام.

يحتضنني ويتوارى خلف عشة التي تصافحني وتقول

- لم نر منك إلا خيرا، لا يكن في صدرك شيئا من عثمان، فعندما تنكشف له الحقيقة سيعرف قدرك.

يقف أبكر بيني وبينها ويحتضنني ويقول

- سأبلغ سلامك لهمزة ولن أنساك ما حييت.

يصافحني صدِّيق ويقول

- كنا نتمنى استضافتك في ظروف خير من هذه، تعلمت منك الكثير، وأنا في انتظار عودتك.

تقول زوجة صدِّيق وهي تضع يدها على كتفه

- ادع الله أن يرزقني بطفل يريح ذلك العجوز ويريحني.

يتهادى القطار حتى يسكن فيندفع المسافرون نحو الأبواب، يندفع أبكر فيسبقهم لكرسي بجوار نافذة ويشير لي، أهم بالذهاب فتتعلق

كلتومة بي، أحتضنها فتنخرط في البكاء، تنحني وتقبل يدي، تدفعني نحو القطار وتستدير، يمسك العم بذراعي ويتجه بي للقطار وعيني لا تفارق ظهرها المهتز لنحيبها، يفرغ المسافرون من الركوب، أصعد عتبة القطار وأتجه لحيث أبكر الذي يقبلني ويجري نازلا، يتحرك القطار ببطء فيلوحون لي، تستدير كلتومة نحوي وتلوح بيدها، تتباعد المسافة بيننا، تنعدم قدرتي على رؤيتهم، أستدير فيضع مولاي يده على كتفي ويردد

ـ ألم نقل: الفطام قدر السالكين حتى انفصال الروح.

•

تمت

إيضاحات

١ـ الجنينة: مدينة سودانية على الحدود التشادية، هي الآن عاصمة ولاية غرب دارفور.

٢ـ أجوكوو : جنرال نيجيري قاد محاولة انفصال الجنوب الشرقي المسيحي (بيافرا) عن الحكومة المركزية فيما سمي بالحرب الأهلية النيجيرية.

٣ـ ابن الحاجة، أولاد الحاجة: لقب يطلقه السودانيون على المهاجرين الأفارقة.

٤ـ السنبوك: مركب شراعي صغير يستخدم في تهريب البشر والسلع بين شواطئ السودان والسعودية، الجمع سنابك.

٥ـ القطية: كوخ من الحجر أو اللبن بسقف مخروطي من العشب، الجمع قطاطي أو قطيات.

٦ـ اللوري حل بي: أغنية من تراث دارفور.

٧ـ فقيري: يا شيخي.

٨ـ اعزم لي: ارقني.

٩ـ العنقريب: سرير خشبي ملته من القش المدفر والمربوطة مع قوائمه بالحبال، ينام عليه بلا حاشية ويستخدم أيضا في نقل الموتى كنعش.

١٠ـ الفردة: بطانية منسوجة يدويا من صوف الخراف يغطى بها صيفا، عادة تكون بيضاء بحواف ملونة.

١١ـ الحلبي: لفظ سخرية يطلقه السودانيون على أصحاب البشرة الملونة والبيضاء.

١٢ـ الساقية: أغنية شعبية سودانية.

١٣ـ النميري: جنرال سوداني قاد انقلاب عسكري بمساعدة الشيوعيين (انقلاب مايو ١٩٦٩)، أطاح بالحكم المدني وأغلق الأحزاب وأسس نظام عسكري قمعي استمر يحكم حتى أوائل الثمانينات.

١٤ـ الأزهري: زعيم سياسي سوداني رئيس وزراء السودان ورافع علم الاستقلال عن الحكم الإنجليزي المصري المشترك.

١٥ـ الفلاتة: يطلق على المهاجرين النيجيريين.

١٦ـ الإمام الهادي: أحد خلفاء الإمام المهدي قاد محاولة فاشلة لاستعادة الحكم المدني بعد انقلاب مايو، قتله بوليس نميري وترك ينزف حتى الموت في الكرمك أثناء هربه لإثيوبيا بعد مذبحة الجزيرة أبا.

١٧ـ جزيرة أبا: جزيرة وسط النيل الأبيض طولها حوالي ٢٢ ميل وعرضها ٤ أميال استقر بها الإمام المهدي وكانت يتعبد في غار بها ومنها انطلقت الدعوة المهدية، وفيها انتصر المهدي في أول معارك

التحرير، يعتبرها الأنصار شبه مقدسة وتقع بها سراي الإمام التي اشتراها الإمام عبد الرحمن من أحد الإنجليز وجددها وجعلها مقرا لإقامته ولاستقبال الزوار الأجانب.

١٨ـ الإمام المهدي: هو رجل دين سوداني ادعى أنه المهدي المنتظر وقاد حركة شعبية لاستقلال السودان واستطاع تحريره بعد طرد الإنجليز والمصريين منه، هو مؤسس الشخصية السودانية الحديثة. مات في مايو ١٨٨٥ بعد شهور من تحقيق استقلال السودان الذي أعيد احتلاله من الإنجليز والمصريين في سبتمبر ١٨٩٨ .

١٩ـ راتب الإمام المهدي: مجموعة من الآيات القرآنية والأدعية النبوية والمأثورات اختارها المهدي ليقرأها أتباعه يوميا كنوع من التقرب لله وهم شديدو التبرك والتمسك بها .

٢٠ـ سواكن: مدينة وميناء في شمال شرق السودان على البحر الأحمر، كان ميناء الركاب والبضائع حتى افتتح ميناء بورتسودان في أوائل القرن العشرين فتحول ميناء سواكن للركاب فحسب.

٢١ـ المريسة: جعة بلدية تصنع من الذرة الرفيعة، تستخدم كهاضم، تسكر فقط إذا أفرط في شرابها.

٢٢ـ الفاشر: مدينة سودانية تبعد عن الجنية ٣٥٠ كيلو متر شرقا.

٢٣ـ الأبيض: مدينة سودانية تبعد عن الفاشر ٥٥٠ كيلو متر شرقا.

٢٤ـ سنار: محطة القطار الرئيسية في وسط السودان، تبعد عن الابيض ٣٠٠ كم شرقا.

٢٥ـ الإندايا: خمارات كانت تنتشر في كل ربوع السودان حتى منتصف السبعينات، عليها راية مرفوعة طالما كان الخمر

متوافرا، وتنزل الراية عند نفاذ الخمر، لو أنزل أحد الزبائن الراية فمعنى ذلك أنه اشترى كل الخمر الموجود وكل مشتريات الزبائن الجالسين على نفقته (يكون هذا الفعل موطن افتخار).

٢٦ـ تولى: هرب (يقصد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه).

الأنصار: هم مؤيدو وأتباع الإمام المهدي والأئمة خلفائه يشتهرون بالتعصب للإمام والغيرة عليه والاستعداد للتضحية بالمال والنفس من أجل حمايته ورضاه، ينتشرون في كل ربوع السودان، وبشكل خاص في غرب السودان ومنطقة النيل الأبيض وأم درمان.

كوستي: مدينة سودانية على الجانب الشرقي للنيل تبعد عن الأبيض ٢٥٠ كيلو متر شرقا.

التعريقة: قميص قطني رقيق وشبه شفاف، يرتديه الرجال تحت الملابس لامتصاص العرق.

الجاسر: هو جسر ترابي بناه الإمام عبد الرحمن المهدي ليصل الجزيرة بالشاطئ الشرقي للنيل عرضه عشرة أمتار وطوله ألف وخمسمائة متر تقريبا.

الإمام: يقصد بها خلال الرواية الإمام الهادي عبد الرحمن المهدي.

محمد صالح عمر: أستاذ الشريعة بكلية القانون جامعة الخرطوم قيادي بالإخوان المسلمين مواليد الخرطوم ١٩٣٥ استقال وشكل وحدة جهادية في الأردن تتبع منظمة فتح لمحاربة إسرائيل، ثم عاد بتعليمات من الجماعة لمؤازرة الإمام.

تم الاستعانة بالمؤلفات التالية

١- شهادتي للتاريخ - أحداث الجزيرة أبا ١٩٧٠ وحركة ١٩ يوليو ١٩٧١ للرائد / عبد الله ابراهيم الصافي

٢- دائرة المهدي المال والمعتقد والسياسة فيرقس نيكول

٣-الجيش السوداني والسياسة عميد / عصام الدين ميرغني طه

٤-مجزرة الجزيرة أبا وأحداث الكرمك د/ الصادق الهادي المهدي

المحتويات

الموضـــوع — الصفحة

الأقتلاع ٧
عبد الله ولد فال ٩
عثمان إدريس دار ٢٥
الحرث ٣٧
عبد الله ولد فال ٣٩
عثمان إدريس دار ٦٥
الغـرس ٨٩
عبد الله ولد فال ٩١
عثمان إدريس دار ١١٧
الحصـاد ١٤٥
عبد الله ولد فال ١٤٧
عثمان إدريس دار ١٧٥
الرحيل ١٩٩
عبد الله ولد فال ٢٠١
عثمان إدريس دار ٢٢١
الحصـار ٢٣٩
عبد الله ولد فال ٢٤١
عثمان إدريس دار ٢٦٧

الحـرب ٢٩٣
عبد الله ولد فال ٢٩٥
عثمان إدريس دار ٣٠٣
عبد الله ولد فال ٣١١
عثمان إدريس دار ٣٢٣
عبد الله ولد فال ٣٣٥
عثمان إدريس دار ٣٤٧
عبد الله ولد فال ٣٦٧
عثمان إدريس دار ٣٨٣
عبد الله ولد فال ٣٩٣
عثمان إدريس دار ٧٠٧
الانتصار ٤١٧
عبد الله ولد فال ٤١٩
عثمان إدريس دار ٤٢٩
عبد الله ولد فال ٤٣٣
عثمان إدريس دار ٤٣٩
الختام ٤٤٣
عبد الله ولد فال ٤٤٥
إيضاحات ٤٥٣

العشب ينبت سواءً أرواه الغيث، أم تخلل جذوره الدم، الولي يقطع آلاف الأميال سيرًا ليحج تاركا وراءه كل شيء، عائلة يعتقلها حجر صحي، تأشيرات حدودية بين الهروب والصحوة. الطريق معتمة، وثمة وميض حرية يلوح في المراعي، فينهبه الجراد، قرى تمزق أهلها، حين يسقط العدل بين العشب والحرب، على تخوم الحياة. صوتان يرويان، مأخوذين بنَفَس معركةٍ من الاقتلاع فالغرس، حتى القتل والوصية، من يتقدم الآن للهرب، وكيف سينمو عشب على جفاف الأرواح، والرغبة نُزعت قسرًا، بهول المجاعة، ونشوة الجذبة، تحت القذائف، وعلى الجزيرة أبا في قلب المذبحة. يودع، يلوحون، قطار بطيء، ومسافة تتباعد، سعد عبد الفتاح يضع ملحمة العشب كوجه حي، تجعّد بمشوار طويل في الحياة.

الناشر

سعد عبد الفتاح، كاتب مصري صدر له، "سفر الولي" رواية عن دار الأدهم في ٢٠١٢.

صورة الغلاف Marcus Bleasdale

ISBN 978-977-803-009-9
9 789778 030099